هذه المجلة

ستحاول هذه المجلة ان تعبر عن هذا القطاع من النشاط القومي كما ينبغي ان يكون ، والا فالاحسن الا يكون !

وسوف تصدع بما تظن انها مامورة به من وحى ضميرها ومنطق كيانها هذا ، ولا يمكنها ان تكون الا كذلك ، خاصة والبلاد مقبلة على ثورة ثقافية روحية تقتلع اوتادا ناشزة من اصولها، وتجتث اوضاعا شاذة من الغرائب المستوردة بفروعها وجذورها وحيثما لا تستطيع الاقتلاع ستعمد الى الاقناع ، اقناع عجائب المخلوقات لدينا ، بضرورة الرجوع الى الجادة المستجدة، والصراط المستقيم المستعاد .

لقد كافح شعبنا اكثر ما كافح لا من اجل مستوى من المعيشة يضاهى مستوى السويد او كندا ، ولا من اجل ترف اوبذخ ، ولامظاهر ،او شكليات وسطحيات ، وانما كانت اقوى الدوافع له فى كفاحه هى بطاقة تعريفه ، هى هويته ، هى استرجاع شخصيته وذاتيته ، هى انيته واصالته ، اللتان هو بهما من هو ، وليس شيئا بدونهما اطلاقا !

فمن اجل ذلك كافح ، وباسم ذلك ذاق ما ذاق من زقوم ، وتجرع ما تجرع وابتلع من سموم ، وباسم ذلك نجح وطفا من اعماق الانكار ،والتجاهل ، واللااسمية ، رافعا فى كلتى يديه بطاقة تعريفه ، وهو يدوس بكلتى قدميه تلك الشارة البالية التى سجل فيها كنكرة من النكرات وضرب فيها بجرة قلم على ماضيه الطويل المجيد بين الشعوب والامم .

هذا من حيث المبدا والمخبر ، ومن حيث المنهج والمظهر فستصدر هذه المجلة كل شهرين مؤقتا . وسيتحلى مظهرها الخارجي من حين لآخر برسم من رسوم ماضينا التليد المجيد ، من اقدم ما يوجد فى بطون التاريخ ، ممن كانوا مرجعا من مراجع وطنيتنا اثناء الكفاح التحريرى على اختلاف عصوره واطواره ، من الثورى السياسى الى الثورى المسلح ، او بمنظر طبيعي من تضاريس هذا البلد الجليل الجميل ، او بصورة لشخصية مغربية ، او اسلامية عامة ، او من التراث الانسانى المشترك الواسع .

ولمساعدة قرائها من المبتدئين ستجعل جزءا من مقالاتها مشكولا ، رغم الصعوبات الفنية ، كما سيكون جزء منها باللغة الفرنسية كما هو شان بعض المجلات فى بلدان شقيقة ، لتخاطب بعض الناس لدينا بما يفهمون ، وقد يكون ذلك احيانا فى شكل مقتطفات من صحف اجنبية ، تعبر عما تود ان تقوله هذه المجلة ، وتستغنى به عن اى شرح او تعليق .

كلمة الأصالة

وفي هذا المجال ايضا ترحب مقدما بكل مـــن يدفعه وازعه الى المساهمة فيها ، بالعربيـــة او الفرنسية ، وحتى بارسال مقتطفات ذات دلالـــة ومغزى ، كما ترحب بكل نقد او انتقـــاد ، وبأى لفت نظر او تنبيـــه .

ومن جهتها فسوف لا تقصر لا في التنويه ولا في التنبيه : تشيد بالمكرمات ، وتنبه برفق الى كـــل ما يبدو لها شاذا ناشزا ، وسبحان من لايخطىء ولا يضـــل !

وسوف تفضل دائما الاشهار علـــى التشهير ،وتبدا بالتلويح قبـــل التصريح ، ولكنهـــا ايضـــا ستكون طبقا لمبدا : « كونوا ضد العصاة قساة »!

وانها سوف لاترحم لايتامى الثقافة المستمرين في عنادهم وجهلهم المركب ضد كل ما يتصل بثقافتنا ومقومات شخصيتنـــا ، لان الاستعمـــار لا يزال متعششا في امخاخهم ، واحيانا في قلوبهم ، مـــن حيث يدرون او لا يدرون !

ولا اولئك الذين يظنون ان مجرد معرفتهـــم بلغتهم القومية يخولهم الحق في ان يجعلوا مـــن معركة البلاد لاسترجاع لغتها موضوعا للاحاديث الطوال على سطوح المقاهي ، او فرصة للكسب السريع ، ويطلبون احيانا خمسين دينارا للدرس الواحد ، وهي كل مساهمتهم في انجاح التعريب !

ولا اولئك المشعوذين الذين ينصبون من انفسهم مالكا ، وابا حنيفة ، والشافعي ، وابن حنبـــل ، ويودون ان يرجعوا باسلامنا الحي الدائم الـــى عصور الانحطاط ، وهو الذي جاء صالحا لكـــل زمان ومكـــان .

ولا طبعا اولئك المبشرين الذين يسيرون على خطى دوفوكو ، ولافيجرى ، وغيرهم من الدجالين باسم المسيح ، الجواسيس السائرين في ركـــاب الاستعمار والاستغلال ، ويحاولون حتى بعـــد استرجاع استقلالنا تسميم عقول ابنائنا ، وحـــل نظام اسرتنا ، عوض الاهتمام بابنائهم واسرهم في بلدانهم وراء البحـــار ، وهي التى تعاني الآن ازمة حضارة اتخذت احيانا اشكالا في غاية الحدة والخطورة على مجتمعاتها واستقرارها !

ولا أولئك الذين ينكـــرون علينـــا ديننا ،ويخلقون بذلك دينا مضادا يقصدون به الهيمنة على كل من تدفعه سذاجته وسخافته الى الوقوع في مثل هذه المصيدة ، التى يعززونها بسلســـلة من الاوتاد ، تتمثل في انكار القيم الاخلاقية وبث الانحلال ، وانفكاك النظام العائلي ، ويرمون كل من يقف في وجهـــهم ، وينبـــه الى حبائلهم ،بالرجعية ، والتعصب ، والاقطاعية .

ومن حيث المحتوى فزيادة عن نشر محاضرات الملتقى الرابع للتعـــرف على الفكـــر الاسلامي بقسنطينة والمؤتمرات التالية ، حسب تتابعهـــا الزمني ، ستحاول أن تكون متنوعـــة شاملة ، وعلى كل فهذه ارادتها ، وهذا عزمها ، بـــل واجبها ، اذ تؤمن بحقيقة معروفة لا جدال فيها في نظر كل مسلم حق ، وهي ان الاسلام عبادات ومعاملات ، ودين ودولـــة ، دين عـــلم وعمل ، وحضارة وثقافة ، دين حتى يتصل بكل مـــا في الحيـــاة .

مولود قاسم

ثـــورة متكامـــلة

بِدُخُولِ الْمُخَطَّطِ الرُّبَاعِيِّ فِي سَنَتِهِ الثَّانِيَةِ تَنْطَلِقُ ثَوْرَتُنَا بِأَعْمِدَتِهَا الثَّلاَثَةِ : الثَّقَافِيِّ ، والصِّنَاعِيِّ ، وَالزِّرَاعِيِّ ، إِنْطِلاَقَتَهَا الْحَقِيقِيَّةَ نَحْوَ تَحْقِيقِ مُجْتَمَعِنَا الاشْتِرَاكِيِّ الْعَادِلِ الْمُزْدَهِرِ ، عَلَى أَسَاسٍ سَلِيمٍ مَتِينٍ ، هُوَ ضَمَانُ بَقَاءِ كُلِّ بِنَاءٍ أَصْلِيٍّ أَصِيلٍ .

وَإِذَا كَانَ الْإِزْدِهَارُ الْإِقْتِصَادِيُّ وَالْإِجْتِمَاعِيُّ ، وَتَوْزِيعُهُ الْعَادِلُ عَلَى جَمِيعِ أَبْنَاءِ الشَّعْبِ يَفْتَرِضَانِ نَجَاحَ ثَوْرَتِنَا الصِّنَاعِيَّةِ وَالزِّرَاعِيَّةِ وَتَنْسِيقَ جَمِيعِ جُهُودِنَا فِي سَائِرِ مجَالاَتِ الاقْتِصَادِ وَالانْتَاجِ ، فَإِنَّ ثَوْرَتَنَا الثَّقَافِيَّةَ هِيَ رُوحُ كُلِّ هَذَا الْبِنَاءِ ، إِذْ هِيَ الَّتِي سَتُتَوِّجُ أَعْمَالَنَا ، وَتُعْطِيهَا تَمَاسُكًا وَانْسِجَامًا ، وَتَضْمَنُ لَهَا الشُّمُولِيَّةَ ، والْخُصُوبَةَ ، وَالدَّوَامَ ، وَتُصْبِغُ عَلَيْهَا مَعْنَاهَا الْحَقِيقِيَّ ، وَمَغْزَاهَا التَّام !

وَلِهَذَا وَإِذْ أَحُثُّ عَلَى أَقْصَى الاهْتِمَامِ بِهَذِهِ الثَّوْرَةِ الثَّقَافِيَّةِ الَّتِي سَتُعَزِّزُ مُقَوِّمَاتِ شَخْصِيَّتِنَا وَعَنَاصِرَ ذَاتِيَّتِنَا ، وَالَّتِى هِيَ



أصيلة

بقلم الرئيس

هواري بومدين

بالتَّالِي عَمِيقَةُ الْمَغْزَى، سَامِيةُ الْمَبْدَإِ، وَاسِعةُ الْأَبْعَادِ، وَإِذْ أُؤَكِّدُ مِنْ جَدِيدٍ تَشْجِيعَ مَجْلِسِ الثَّوْرَةِ وَالْحُكُومَةِ لِجَمِيعِ مَجَلَّاتِنَا، وَجَرَائِدِنَا، وَسَائِرِ أَجْهِزَةِ إِعْلَامِنَا، فِي هَذَا الْمُنْعَرَجِ مِنْ تَارِيخِنَا، وَتَطَوُّرِ بِلَادِنَا وَالْعَالَمِ الْعَرَبِيِّ كُلِّهِ، أُرَحِّبُ بِصُدُورِ مَجَلَّةِ « الْأَصَالَةِ »، الَّتِي تُصْدِرُهَا وِزَارَةُ التَّعْلِيمِ الْأَصْلِيِّ وَالشُّؤُونِ الدِّينِيَّةِ، وَبِزَمِيلَتِهَا (الثَّقَافَة) الَّتِي سَتُصْدِرُهَا وِزَارَةُ الثَّقَافَةِ وَالْإِعْلَامِ، وَأَتَمَنَّى لَهُمَا الْقِيَامَ بِدَوْرِهِمَا أَحْسَنَ قِيَامٍ .

الإنيــة والأصــالة

مولود قاسم

وزير التعليم الأصلي والشؤون الدينية

يُشَرِّفُنِي أَيَّمَا تَشْرِيفٍ أَنْ أَفْتَتِحَ هَذَا الْمُلْتَقَى الرَّابِعَ الَّذِي هُوَ بِالنِّسْبَةِ لِلأَسَاتِذَةِ الأَفَاضِلِ تَعْرِيفٌ بِالْفِكْرِ الاسْلاَمِي ، وَبِالنِّسْبَةِ لَنَا جَمِيعًا تَعَرُّفٌ عَلَى هذَا الْفِكْرِ الَّذِي كَانَ نِتَاجَ ثَقَافَةٍ مِنْ أَخْصَبِ الثَّقَافَاتِ الْعَالَمِيَّةِ ، وَمَحْصُولَ حَضَارَةٍ مِنْ أَعْظَمِ الْحَضَارَاتِ وَأَشْمَلِهَا لِجَمِيعِ أَنْوَاعِ نَشَاطِ الانْسَانِ عَبْرَ الأَزْمِنَةِ والأَمْكِنَةِ !

وَأَوَدُّ فِي بَدْءِ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ أَنْ أُرَحِّبَ بِكُمْ جَمِيعًا ، وَأَنْ أَخُصَّ بِهَذَا التَّرْحِيبِ حَضَرَاتِ الأَسَاتِذَةِ مِنْ الأَقْطَارِ الشَّقِيقَةِ وَجَمِيعِ

نص المحاضرة التى القـاها الاخ مولـود قاسم فى افتتاح الملتقى الرابع للتعرف عـلى الفكر الاسلامى بقسنطينـة 8 — 17 جمادى الثانية 1390 هـ — 10 — 19 اغسطس 1970 م

الْاخْوَةِ الطَّلَبَةِ الَّذِينَ أَتَوْا مِنْ خَارِجِ الْقُطْرِ بِصِفَةٍ عَامَّة، وَأَنْ أُبَلِّغَكُمْ صَادِقَ تَحِيَات الْأَخِ هُوَارِى بُومَدْيَن، رَئِيس مَجْلِسِ الثَّوْرَة والْحُكُومَة، وَخَالِصَ تَمَنِّيَاته لَكُمْ بِطَيِّبِ الْمُقَامِ فِي الْجَزَائِرِ وَبِنَجَاح هَذَا الْمُلْتَقَى، وَالتَّوَصُّلِ مِنْ خِلاَله

إِلَى نَتَائِج إِيجَابِيَّة، بِفَضْلِ مَا سَيُتَدَاوَلُ فِيهِ مِنْ آرَاء حَوْلَ مَاضِي ثَقَافَتِنَا، وَمَا يَكْتَنِفُ حَاضِرَهَا مِنْ تَحَدِّيَات وَاسْتِفْزَازَات، بَلْ وَمَا يُحْدِقُ بِهَا مِنْ مَخَاوِفَ وَأَخْطَارٍ، وَأَخِيرًا مَا يَفْتَحُهُ لَنَا مُسْتَقْبَلُهَا مِنْ آفَاقٍ هِيَ فِي مُحِيطِ أَنْظَارِنَا،

نَرْنُو إِلَى مَا وَرَاءَهَا مِنْ تَمَخُّضَاتٍ خِصْبَةٍ ، يُعِيدُ بِهَا التَّارِيخُ نَفْسَهُ ، وَيَتَجَدَّدُ بِهَا مَا كَانَ لِلْاسْلاَمِ مِنْ قُوَّةٍ ذَاتِيَّةٍ وَقُدْرَةٍ جَبَّارَةٍ عَلَى الْإِعْتِمَادِ عَلَى نَفْسِهِ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ فِى إِسْتِيعَابِ آخِرِ تَطَوُّرَاتِ الْعُلُومِ وَالْفُنُونِ ، لِيُقِيمَ عَلَى أَسَاسِهَا ثَقَافَتَهُ وَحَضَارَتَهُ الْأَصِيلَتَيْنِ ، اللَّتَيْنِ بِهِمَا ، وَبِهِمَا فَقَطْ ، يُسَاهِمُ فِى سَيْرِ الْبَشَرِيَّةِ نَحْوَ مَزِيدٍ مِنَ النُّورِ وَالتَّقَدُّمِ الْمُطَّرِدِ .

وَإِنَّ مِمَّا يَزِيدُ مِنْ شُعُورِى بِهَذَا الشَّرَفِ أَنْ يَنْعَقِدَ هَذَا الْمُلْتَقَى فِى هَذِهِ الْمَدِينَةِ الْعَرِيقَةِ ، الَّتِى كَانَتْ الْعَاصِمَةَ الثَّقَافِيَّةَ لِبِلاَدِنَا فِى حِقَبٍ مُخْتَلِفَةٍ مِنْ تَارِيخِهَا الطَّوِيلِ ، وَرَمْزَ الْكِفَاحِ وَالْمُقَاوَمَةِ لِلْبِلاَدِ كُلِّهَا مِنْ عُهُودِ مَاصِنِيصَا ، وَيُوغُورْطَةَ إِلَى أَحْمَدَ بَاىْ ، وَعَبْدِ الْحَمِيدِ بْنِ بَادِيسَ الَّذِى كَانَ شِعَارُ عَمَلِهِ طَوَالَ حَيَاتِهِ : « الْجَزَائِرُ وَطَنِى ، وَالْإِسْلاَمُ دِينِى ، وَالْعَرَبِيَّةُ لُغَتِى » إِلَى 8 مَايُو 1945 الَّذِى كَانَتْ مِنْطَقَتُهَا مَسْرَحًا لَهُ ، وَالَّذِى نَحْتَفِلُ بِذِكْرَاهُ الْخَامِسَةِ وَالْعِشْرِينَ ، وَإِلَى عَهْدِ النَّشَاطِ السِّيَاسِيِّ الثَّوْرِيِّ الَّذِى مَهَّدَ لِانْطِلاَقَةِ فَاتِحِ نُوفَمْبَرَ الْخَالِدَةِ وَإِلَى الْعِشْرِينَ أَغُسْطُسْ 1955 الَّذِى دَفَعَ بِكِفَاحِنَا التَّحْرِيرِيِّ خُطُوَاتٍ جَبَّارَةً إِلَى الْأَمَامِ ، سَاهَمَتْ الْمُسَاهَمَةَ الْكُبْرَى فِى مَسِيرَتِنَا نَحْوَ اسْتِرْجَاعِ سِيَادَتِنَا الْمَسْلُوبَةِ وَاسْتِرْدَادِ اسْتِقْلاَلِنَا الْمَغْصُوبِ .

وَبِهَذِهِ الْمُنَاسَبَةِ وَنَحْنُ بِصَدَدِ الْكَلاَمِ عَنِ الثَّوْرَةِ وَالْكِفَاحِ التَّحْرِيرِيِّ فِى عَرِينِ ابْنِ بَادِيسَ الَّذِى كَانَ دَوْمًا يَقْرِنُ اِسْمَ فَلَسْطِينَ بِاسْمِ الْجَزَائِرِ فِى كِتَابَاتِهِ وَمَوَاقِفِهِ أَوَدُّ أَنْ أَطْلُبَ مِنْكُمْ مُرَاعَاةَ دَقِيقَةِ صَمْتٍ تَرَحُّمًا عَلَى شُهَدَاءِ الْكِفَاحِ التَّحْرِيرِيِّ فِى الْجَزَائِرِ وَفِى بَقِيَّةِ الْمَغْرِبِ الْكَبِيرِ ، وَالْمَشْرِقِ الْعَرَبِى وَسَائِرِ الْعَالَمِ الْإِسْلاَمِيِّ ، وَفِى فَلَسْطِينَ الْيَوْمَ ، وَفِيهَا بِالذَّاتِ !

حَضَرَاتِ السَّادَة

نَجْتَمِعُ هُنَا لِنَتَصَفَّحَ سِجِلَّ بَعْضِ مَشَاكِلِنَا ، وَنُرَاجِعَ ضَمَائِرَنَا ، وَنَنْظُرَ بِشَيْءٍ مِنَ الْعُمْقِ فِى أَنْفُسِنَا وَنُحَاوِلَ أَنْ نَضَعَ الْأُصْبُعَ عَلَى مَوَاطِنِ الدَّاءِ ، لِنَتَحَسَّسَ حَقِيقَةَ شُعُورِنَا وَمَشَاعِرِنَا ، وَنُدَقِّقَ وَعْيَنَا ، وَنَخْرُجَ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ بِنَظْرَةٍ وَاضِحَةٍ بَعْضَ الشَّيْءِ عَنْ كُنْهِ وَاقِعِنَا ، وَعَمَّا يَنْتَظِرُنَا إِذَا لَمْ نُسَارِعْ إِلَى اتِّخَاذِ الْحُلُولِ النَّاجِعَةِ لِبَعْضِ مَا نُعَانِيهِ مِنْ مَشَاكِلَ وَأَمْرَاضٍ ، إِذَا مَا زَادَتْ إِسْتِفْحَالاً قَدْ تُؤَدِّي بِنَا إِلَى الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ ، وَنَحْنُ لَمْ نَكَدْ نَسْتَرْجِعُ زِمَامَ أُمُورِنَا ، وَنَسْتَعِيدُ حُرِّيَّةَ التَّصَرُّفِ فِى شُؤُونِنَا ، وَالتَّحَكُّمِ فِى مَصِيرِنَا كَشُعُوبٍ حُرَّةٍ وَدُوَلٍ ذَاتِ سِيَادَةٍ .

إِنَّ شُعُوبًا لَمْ تَعْرِفْ تَوَقُّفًا فِي تَطَوُّرِهَا أَصْبَحَتِ الْيَوْمَ تَشْعُرُ دَقِيقَ الشُّعُورِ بِمَا تُسَمِّيهِ أَزْمَةَ حَضَارَةٍ وَبِدَايَةَ الْانْحِدَارِ وَالْانْهِيَارِ ، بِسَبَبِ تَسَامُحِهَا فِي بَعْضِ الْمَبَادِىءِ وَقَوَاعِدِ السُّلُوكِ الْعَامِ كَأَفْرَادٍ ، وَجَمَاعَاتٍ ، وَأُمَمٍ ، وَإِنَّ مَشَاكِلَ الْاسْرَةِ ، بِمَا فِيهَا الْمَرْأَةُ وَالشَّبَابُ ، لَتَلْعَبُ الدَّوْرَ الْأَسَاسِيَّ ، بَلْ الْفَاصِلَ فِي هَذِهِ الْأَزْمَةِ الَّتِي قَدْ تَعُودُ نَكْبَةً وَبِدَايَةَ النِّهَايَةِ .

وَاسْمحُوالى إِذَا كُنْتُ هُنَا صَرِيحًا أَكْثَرَ مِنَ اللاَّزِمِ وَلَمْ أَكُنْ عِلْمِيًّا ، مَوْضُوعِيًّا ، هَادِئًا ، كَمَا يُقَالُ ، وَذَلِكَ أَنَّ الْقَضِيَّةَ فِي غَايَةِ الْخُطُورَةِ فِى نَظَرِى ، وَلَمْ تُلاَقِ إِلَى الْآنَ كُلَّ مَا تَسْتَحِقُّهُ مِنْ عِنَايَةٍ وَاهْتِمَامٍ فِي عَالَمِنَا الْعَرَبِيِّ الْإِسْلَامِيِّ ، وَفِيمَا يُسَمَّى بِالْعَالَمِ الثَّالِثِ بِصِفَةٍ عَامَّةٍ .

وَلَقَدِ اخْتَرْتُ كَعُنْوَانٍ لِهَذِهِ الْكَلِمَةِ « الْإِنِّيَّةُ وَالْأَصَالَةُ » ، وَأَقْصِدُ بِالْإِنِّيَّةِ ذَلِكَ الْوَعْيَ الْحَادَّ بِالذَّاتِيَّةِ وَالشَّخْصِيَّةِ ، وَهِيَ تِلْكَ الْإِنِّيَّةُ الَّتِي يَتَكَلَّمُ عَنْهَا ابْنُ سِينَا وَالَّتِي تَتَلَخَّصُ فِي أَنَّهُ كَانَ قَدْ

تَصَوَّرَ نَفْسَهُ مُعَلَّقًا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، وَأَنَّ جِسْمَهُ قَدِ انْتُزِعَ مِنْهُ وَفِى حُكْمِ الْعَدَمِ ، وَلَمْ يَبْقَ لَهُ فِى تِلْكَ اللَّحْظَةِ وَهُوَ بَيْنَ عَالَمَيْنِ إِلاَّ ذَلِكَ الْوَعْىُ الْحَادُّ بِوُجُودِهِ ، وَشُعُورُهُ بِذَاتِهِ الْمُتَمَيِّزَةِ ، الْقَائِمَةِ بِذَاتِهَا ، الْمُسْتَقِلَّةِ عَنْ غَيْرِهَا ، وَهَذَا التَّصَوُّرُ لِابْنِ سِينَا هُوَ الَّذِى كَانَ الْأَصْلَ فِى ذَلِكَ الْكُوجِيتُو الدِّيكَارْتِى الْمَعْرُوفِ ، الَّذِى يَقُولُ « أُفَكِّرُ فَأَنَا إِذَنْ مَوْجُودٌ » .

لَقَدْ كُنَّا فِى الْعَهْدِ الْاسْتِعْمَارِىِّ مُعَلَّقِينَ فِى الْهَوَاءِ بَيْنَ عَالَمَيْنِ مَنْزُوعَةً عَنَّا جِنْسِيَّتُنَا الْجَزَائِرِيَّةُ ، وَغَيْرَ مُعْتَرَفٍ بِنَا وَلاَ مُعَامَلِينَ كَفَرَنْسِيِّينَ ، وَمَعَ ذَلِكَ كُنَّا كَأَكْثَرِ مَا نَكُونُ اعْتِزَازًا بِذَاتِيَّتِنَا ، وَتَعَلُّقًا بِمُقَوِّمَاتِ شَخْصِيَّتِنَا ، مِنْ دِينٍ ، وَلُغَةٍ ، وَتَقَالِيدَ ، وَبُعْدًا عَنْ كُلِّ مَا يَمَسُّ مِنْهَا أَوْ يَنَالُ مِنْ قُدْسِيَّتِهَا

وَلَقَدْ كُنَّا نُقَاوِمُ جَمِيعَ الْأَمْرَاضِ الْإِجْتِمَاعِيَّةِ وَالْآفَاتِ الْمُسْتَوْرَدَةِ إِلَيْنَا ، الْغَرِيبَةِ عَنَّا ، وَكَانَ ذَلِكَ بِدَافِعٍ مِنَ الذَّوْدِ عَنْ هَذِهِ الْأَنِّيَّةِ وَتِلْكَ الْأَصَالَةِ ، رَافِضِينَ كُلَّ مَا يَفْصِلُنَا عَنْ مُحِيطِنَا الطَّبِيعِىِّ ، وَلِجَمِيعِ مَظَاهِرِ الْإِدْمَاجِ وَالْمَسْخِ وَسَائِرِ مُحَاوَلَاتِ الْإِذَابَةِ وَالسَّلْخِ ، وَكَانَ هُنَاكَ إِجْمَاعٌ عَلَى تِلْكَ الْبَدِيهِيَّاتِ بَيْنَ أَغْلَبِ أَفْرَادِ الْمُجْتَمَعِ ، وَكَانَتْ تِلْكَ الْحَصَانَةُ هِىَ سِلاَحُنَا الْأَوَّلُ فِى الذَّوْدِ عَنْ أَنْفُسِنَا ، وَبِذَلِكَ ضَمِنَّا لِأَنْفُسِنَا الدَّيْمُومَةَ وَالْحَيَاةَ عَبْرَ الْعُصُورِ وَالْأَعَاصِيرِ .

وَلَكِنْ يَجِبُ عَلَيْنَا الْيَوْمَ أَنْ نَعْتَرِفَ أَنَّهُ ، بَعْدَ زَوَالِ الْخَصْمِ وَاخْتِفَائِهِ مِنْ سَطْحِ أَرْضِنَا ، قَدْ بَدَأَتْ تِلْكَ الْحَصَانَةُ تَضْعُفُ ، وَأَخَذَ ذَلِكَ الشُّعُورُ بِالْإِنِّيَّةِ وَالْأَصَالَةِ يَتَضَاءَلُ ، وَأَصْبَحَ الْكَثِيرُ يَتَسَاهَلُ فِيمَا لاَ يَنْبَغِى أَنْ يُتَسَاهَلَ فِيهِ إِطْلاَقًا وَبِأَيَّةِ صُورَةٍ مِنَ الصُّوَرِ ، إِذَا لَمْ نَرِدِ الْامِّحَاءَ وَالذَّوَبَانَ .

وَلَقَدْ نَجَحَ أَعْدَاؤُنَا عِنْدَمَا عَقَدُوا بَعْضَ قَادَةِ الْعَالَمِ الثَّالِثِ ، وَكَوَّنُوا لَدَيْهِم ازْدِوَاجًا فِى الشَّخْصِيَّةِ ، إنْجَرَّ عَنْهُ ازْدِوَاجُ النَّقَائِصِ وَالسَّلْبِيَّاتِ ، وَانْعِدَامٌ كُلِّىٌّ لِلْمَزَايَا وَالْفَضَائِلِ ، إِذْ تَجَرَّدُوا مِنْ مَزَايَاهُمْ وَلَمْ يَكْتَسِبُوا مَزَايَا أَسْيَادِهِمْ ، بِدُونِ أَنْ يَتَخَلَّصُوا مِنْ عُيُوبِهِمْ الَّتِى ضَمُّوا إِلَيْهَا عُيُوبَ الْمُجْتَمَعَاتِ الْغَرِيبَةِ عَنْهُمْ ، وَالَّتِى حَاوَلُوا أَنْ يَتَقَمَّصُوا شَخْصِيَّتَهَا عَبَثًا وَسُدًى . وَبَقَوْا فِى تَخَلُّفِهِمْ يَعْمَهُونَ .

وَفِى الْوَقْتِ الَّذِى نَرَى فِيهِ دُوَلًا صِنَاعِيَّةً ، دُوَلًا قَوِيَّةً مُتَقَدِّمَةً ، دُوَلًا مَتِينَةَ الْأَرْكَانِ ، دُوَلًا اشْتِرَاكِيَّةً كُبْرَى ، تُكَافِحُ بِكُلِّ صَرَامَةٍ وَحَزْمٍ وَعَزْمٍ كُلَّ مَا قَدْ يَضُرُّ بِتَمَاسُكِ شَخْصِيَّتِهَا وَسَلَامَةِ مُجْتَمَعِهَا ، نَجِدُ أَفْرَادًا مَمْسُوخِينَ فِى مُجْتَمَعِنَا يَرْمُونَ كُلَّ نِدَاءٍ عِنْدَنَا إِلَى الْفَضِيلَةِ بِالتَّزَمُّتِ وَالْجُمُودِ ، بَلْ وَالرُّجُوعِ إِلَى الْقُرُونِ الْوُسْطَى وَعُصُورِ الظَّلَامِ ، ذَاهِبِينَ فِى جَهْلِهِمْ إِلَى حَدِّ الْخَلْطِ بَيْنَ الْقُرُونِ الْوُسْطَى الْاورُبِيَّةِ وَالْاسْلَامِيَّةِ ، وَنَاسِينَ أَنَّ الْقُرُونَ الْوُسْطَى لَدَى الْاورُبِّيِّينَ هِىَ عَصْرُ الظُّلُمَاتِ وَالتَّأَخُّرِ ، بَيْنَمَا هِىَ فِى الْاسْلَامِ تُمَثِّلُ الْعُهُودَ الذَّهَبِيَّةَ لِلْحَضَارَةِ ، وَالثَّقَافَةِ ، وَالنُّورِ .

وَفِى الْوَقْتِ الَّذِى نَرَى فِيهِ بَلَدِيَّةَ مُوسْكُو مَثَلًا تَمْنَعُ بَيْعَ الْمَشْرُوبَاتِ الْكُحُولِيَّةِ قُرْبَ الْمَصَانِعِ ، وَالْمَعَاهِدِ الْعِلْمِيَّةِ ، وَالْمَسَارِحِ ، وَقَاعَاتِ السِّينَمَا ، وَجَمِيعِ أَمَاكِنِ التَّجَمُّعَاتِ الشَّعْبِيَّةِ وَلَا تَسْمَحُ لِغَيْرِهَا مِنَ الْمَحَلَّاتِ الْاخْرَى الْبَعِيدَةِ عَنْ هَذِهِ الْأَمَاكِنِ بِبَيْعِ الْخُمُورِ بَيْنَ السَّاعَةِ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ نَهَارًا وَالثَّامِنَةِ مَسَاءً وَفِى الْوَقْتِ الَّذِى تَسْبِقُ هَذَا الْمَنْعَ حَمْلَةٌ وَاسِعَةُ النِّطَاقِ فِى جَمِيعِ مُدُنِ الْاتِّحَادِ السُّوفْيِتِى ضِدَّ الْمَشْرُوبَاتِ الْكُحُولِيَّةِ ، بِدَعْوَى أَنَّهَا تُخَدِّرُ الشَّعْبَ ، وَتَضُرُّ بِالانْتَاجِ

نَجِدُ أَبْوَاقًا فِي مُجْتَمَعَاتِنَا تَدْعُو إِلَى التَّعَالِي عَنْ مِثْلِ هَذِهِ السَّخَافَاتِ وَتُطَالِبُ بِاحْتِرَامِ الْفَرْدِ لِيَشْرَبَ مَا يَشَاءُ !

وَفِي الْوَقْتِ الَّذِي تَمْنَعُ فِيهِ جُمْهُورِيَّةُ الصِّينِ الشَّعْبِيَّةُ مَثَلاً الزَّوَاجَ بَيْنَ الصِّينِيِّينَ وَالأَجْنَبِيَّاتِ وَبَيْنَ الصِّينِيَّاتِ وَالأَجَانِبِ ، وَتَمْنَعُ فِيهِ دَاخِلَ الصِّينِ مُجَرَّدَ الصِّلاَتِ الْوُدِّيَّةِ بَيْنَ الصِّينِيَّاتِ وَالأَجَانِبِ ،

وَفِي الْوَقْتِ الَّذِي تَكْتُبُ فِيهِ الْبَرَافْدَا أَنَّ الرُّوسِيَّاتِ اللاَّئِي يُخَالِطْنَ الأَجَانِبَ لاَ يُشَرِّفْنَ لِينِينَ وَلاَ الْوَطَنَ السُّوفْيِتِيَّ ، نَجِدُ أُولَئِكَ الْمُنْسَلِخِينَ عِنْدَنَا يُنَادُونَ بِمَا يُسَمُّونَهُ تَحْرِيرَ الْمَرْأَةِ ، وَيُطَالِبُونَ بِأَنْ يُتْرَكَ لَهَا حَبْلُهَا عَلَى غَارِبِهَا ، تَتَزَوَّجُ مَنْ تَرْغَبُ وَتُخَالِطُ مَنْ تَوَدُّ تُسَافِرُ مَتَى وَإِلَى حَيْثُ أَرَادَتْ ، تَعُودُ مَتَى تَشَاءُ أَوْلاَ تَعُودُ !

وَفِي الْوَقْتِ الَّذِي نَرَى فِيهِ حَاخَامَ تَلْ أَبِيبَ يَرْفُضُ عَقْدَ زَوَاجِ حَفِيدَةِ ابْنِ غُرْيُونَ بِضَابِطٍ إِسْرَائِيلِيٍّ كَبِيرٍ ، لِأَنَّ أُمَّهَا لَمْ تَكُنْ يَهُودِيَّةَ الأَصْلِ ، وَفِي الْوَقْتِ الَّذِي يَرْفُضُ فِيهِ بَرْلَمَانُ إِسْرَائِيلَ السَّمَاحَ بِتَقْدِيمِ الْخِنْزِيرِ فِي بَوَاخِرِهَا السِّيَاحِيَّةِ لِغَيْرِ الْيَهُودِ ، فِي جَمِيعِ الْبِحَارِ ، لِأَنَّ دِينَهُمْ يَمْنَعُ ذَلِكَ ، نَجِدُ الْمُتَحَرِّرِينَ لَدَيْنَا مِنْ كُلِّ وَازِعٍ مَانِعٍ يَدْعُونَ إِلَى سَعَةِ الأُفُقِ، وَرُوحِ التَّسَامُحِ ، وَعَدَمِ التَّعَلُّقِ بِمَا يُسَمُّونَهُ الأَفْكَارَ الْبَائِدَةَ ..

مِنْ هَذِهِ الأَمْثِلَةِ وَمِنْ عَنَاوِينِ الْمُحَاضَرَاتِ تَرَوْنَ أَنَّ الْمَرْأَةَ سَتَكُونُ فِي هَذَا الْمُلْتَقَى أَحَدَ الْمَوَاضِيعِ الرَّئِيسِيَّةِ الَّذِي سَيُطْرَقُ مِرَارًا وَتَحْتَ أَوْجُهٍ عِدَّةٍ وَبِإِلْحَاحٍ وَإِصْرَارٍ وَلَنْ يَكُونَ ذَلِكَ تَصْغِيرًا لِشَأْنِهَا ، وَتَقْلِيلاً مِنْ أَهَمِّيَّتِهَا بِالنِّسْبَةِ لِلْمُجْتَمَعِ، بَلْ بِالْعَكْسِ مِنْ هَذَا سَنُرَكِّزُ عَلَيْهَا الْحَدِيثَ لِأَهَمِّيَّتِهَا الْقُصْوَى بِالنِّسْبَةِ لِلأُسْرَةِ وَالأُمَّةِ

ولخُطُورَة دَوْرِهَا فِي حَيَاتِهِمَا، وَذَلِكَ أَنَّهُ إِذَا كَانَتِ الاسْرَةُ هِيَ الْخَلِيَّةُ الاولَى فِي جِسْمِ الْامَّة كَمَا يَقُول عُلَمَاءُ الاجْتِمَاعِ ، فَإِنَّ الْمَرْأَةَ هِي عِمَادُ هَذِهِ الاسْرَة ، وَنُقْطَةُ الارْتِكَازِ فِيهَا ، إِذْ بِسَلاَمَتِهَا تَسْتَقِيمُ حَيَاةُ الاسْرَة ، وَبِسُقْمِهَا تَسْقُمُ وَتَنْدَثِرُ وَتَنْهَارُ أَرْكَانُهَا !

وَإِذْ نَقُولُ هَذَا فَلَسْنَا مِنْ أَنْصَارِ رَأْيِ بِسْمَارْك الَّذِي حَدَّدَ لِلْمَرْأَة الأَلْمَانِيَّةِ ثَلاَثَةَ وَاجِبَاتٍ فَحَسْبُ وَهِيَ :

الأَطْفَالُ وَالْمَطْبَخُ وَالْكَنِيسَةُ !

بَلْ نَحْنُ مِنْ أَنْصَارِ ابْنِ بَادِيسَ الَّذِي كَانَ يُلِحُّ كُلَّ الالْحَاحِ عَلَى ضَرُورَة تَعْلِيم الْبِنْتِ وإِشْرَاكِهَا فِي حَيَاة الْامَّة ، بِصِفَة أَكْثَرَ فَعَالِيَّة مِمَّا قَدَّرَهُ لَهَا بِسْمَارْكُ الْمُسْتَشَارُ الْحَدِيدِيُّ كَمَا يُسَمِّيهِ الأَلْمَانُ !

يَقُولُ ابْنُ بَادِيسِ ، مُسْتَشْهِدًا بِأَحَادِيثَ نَبَوِيَّةٍ تَحُثُّ عَلَى تَعْلِيمِ الْبِنْتِ ، مَا يَلِي :

« وَسَيْرًا عَلَى مَا اسْتَفَاضَ فِي تَارِيخِ الْامَّة مِنَ الْعَالِمَات ، الْكَاتِبَاتِ الْكَثِيرَاتِ ، عَلَيْنَا أَنْ نَنْشُرَ الْعِلْمَ بِالْقَلَم فِي أَبْنَائِنَا مِن رِجَالٍ وَنِسَاء ، عَلَى أَسَاسِ دِينِنَا ، وَقَوْمِيَّتِنَا ، إِلَى أَقْصَى مَا يُمْكِنُنَا أَنْ نَصِلَ إِلَيْهِ مِنَ الْعِلْم الَّذِى هُوَ تُرَاثُ الْبَشَرِيَّة جَمْعَاءَ وَثِمَارُ جِهَادِهَا فِي أَحْقَابِ التَّارِيخ الْمُتَطَاوِلَة ، وَبِذَلِكَ نَسْتَحِقُّ أَنْ نَتبوأَ مَنْزِلَتَنَا اللاَّئِقَةَ بنا وَالَّتِي كَانَتْ لَنَا بَيْنَ الْامَم » .

وَيُضِيفُ فَيَقُولُ : « عَلَيْنَا أَنْ نُشْرِكَ مَعَنَا نِسَاءَنَا فِيمَا نَقُومُ بِهِ مِنْ مَهَامٍّ مَصَالِحِنَا ، لِيَقُمْنَ بِقِسْطِهِنَّ مِمَّا يَلِيقُ بِهِنَّ فِي الْحَيَاة ، عَلَى مَا يَفْرِضُهُ عَلَيْهِنَّ الاسْلاَمُ مِنْ صَوْن ، وَوَقَارٍ ، وَحِشْمَة ، وَعَدَم زِينَة ، وَعَدَم إِخْتِلاَط ، وَلَنْ تَكْمُل حَيَاةُ أُمَّةٍ إِلاَّ بِحَيَاةِ شَطْرَيْهَا الذَّكَرِ وَالْانْثَى »

وَيُرْدِفُ قَائِلاً : « وَذَلِكَ أَنَّ

الْمَرْأَةَ هِيَ رَبَّةُ الْبَيْتِ وَرَاعِيَتُهُ ، وَالْمُضْطَرَّةُ بِمُقْتَضَى هذه الْخِلْقَةِ لِلْقِيَامِ بِهِ ، فَعَلَيْنَا أَنْ نُعَلِّمَهَا كُلَّ مَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ لِلْقِيَامِ بِوَظِيفَتِهَا ، وَنُرَبِّيَهَا عَلَى الْأَخْلاَقِ النِّسْوِيَّةِ الَّتِي تَكُونُ بِهَا الْمَرْأَةُ امْرَأَةً ، لاَ نِصْفَ رَجُلٍ ، وَلاَ نِصْفَ امْرَأَةٍ ، فَالَّتِي تَلِدُ لَنَا وَلَدًا يَطِيرُ خَيْرٌ مِنَ الَّتِي تَطِيرُ بِنَفْسِهَا » .

هَذَا مَا يَقُولُهُ ابْنُ بَادِيسِ عَنِ الْمَرْأَةِ . وَإِنَّ اهْتِمَامَهُ هَذَا بِهَا لَرَفْعٌ مِنْ شَأْنِهَا ، وَتَمْجِيدٌ لِدَوْرِهَا ، وَتَشْرِيفٌ لِمَكَانَتِهَا فِي الْاسْرَةِ وَالْمُجْتَمَعِ ، وَالْامَّةِ ، وَلأَنَّهَا الْمُرَبِّيَةُ الاولَى لِلنَّشْءِ ، وَالْمَدْرَسَةُ الْاولَى الَّتِي إِذَا أَعْدَدْتَهَا أَعْدَدْتَ شَعْبًا طَيِّبَ الْأَعْرَاقِ ، كَمَا يَقُولُ حَافِظُ إِبْرَاهِيمُ ، فَبَادِيس يَقْبَلُ مِنْهَا أَنْ تَكُونَ مِثْلَ فَاطِمَةَ نْسُومَر الَّتِي قَادَتْ الْمُسَبِّلِينَ أَوْ الْمُجَاهِدِينَ سَنَةَ 1857 فِي جِبَالِ جَرْجَرَ ضِدَّ جِنِرَالاَتِ الْجَيْشِ الْفِرَنْسِي ، وَلكِنَّ بَادِيس لاَ يَقْبَلُ مِنْهَا أَنْ تَكُونَ ضَحِيَّةَ الانْحِرَافِ وَالْانْجِرَافِ فِي تَيَّارِ تَوَافِهِ وَسَطْحِيَّاتِ مَا يُسَمَّى بِالْحَيَاةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ الْعَصْرِيَّةِ ، وَلاَ يُرِيدُ مِنْهَا أَنْ تَكْتَفِي مِنَ الْحَضَارَةِ بِقُشُورِهَا وَجَوَانِبِهَا السَّلْبِيَّةِ ، وَلاَ يُرِيدُ مِنْهَا أَنْ تَكُونَ ضَحِيَّةَ التَّقْلِيدِ الْأَعْمَى ، وَتَتَهَافَتَ عَلَى عَادَاتٍ سَيِّئَةٍ لَيْسَتْ مِنْ تَقَالِيدِنَا وَلاَ تَتَمَاشَى مَعَ مَبَادِئِنَا ، وَلاَ يُرِيدُ مِنْهَا أَنْ تَكُونَ مِنْ ذَلِكَ النَّوْعِ الَّذِي يَبْرَعُ فِي اللَّعِبِ بِالسِّجَارَةِ وَفِي مَسْكِ الْكَأْسِ ، وَلاَ فِي التَّسَكُّعِ عَلَى سُطُوحِ الْمَقَاهِي ، وَالْحَذْلَقَةِ بِاللَّهْجَةِ الْبَارِيسِيَّةِ ، الَّتِي لاَ تَسْتَعْمِلُهَا حَتَّى جَمِيعُ الْفَرَنْسِيَّاتِ ، وَأَخِيرًا ، فَهُوَ لاَ يُرِيدُ مِنْهَا أَنْ تَتَجَرَّدَ مِنْ شَخْصِيَّتِهَا وَتُصْبِحَ مَفْسُوخَةً ، مَمْسُوخَةً وَمَزِيجًا مُزَرْكَشًا مِنْ رُقَعٍ لاَ انْسِجَامَ وَلاَ تَجَانُسَ بَيْنَهَا فَتَعُودَ وَبَالاً عَلَى وَسَطِهَا ، وَشَرًّا عَلَى مُجْتَمَعِهَا .

حَضَرَاتِ السَّادَة ،

قَبْلَ أَنْ أَتْرُكَ مَوْضوعَ الْمَرْأَة وَأَهَمِّيَّتِهَا فِي الاسْرَة وَالأمَّة ، أَوَدُّ أَنْ أَطْرُقَ نُقْطَةً حَسَّاسَةً مِنَ الدَّرَجَة الاولى وَتَتَّصِلُ بِهِ مُبَاشَرَةً وَبِالإِنِّيَّة وَالأَصَالَة ، وأَكْتَفِي بِإِشَارَة قَصِيرَة إِلَيْهِ لأَنَّهُ سَتَتَعَرَّضُ لَهُ سَيِّدَةٌ هُنَا مَعَنَا فِي مُحَاضَرَة خَاصَّة بِهِ ، وَهُوَ مَوْضُوعُ الزَّوَاج بِالأَجْنَبِيَّات وَالأَجَانِب .

فَإِذَا كَانَ الاسْلاَمُ يَسْمَحُ لِلْمُسْلِمِ بِالزَّوَاجِ بِالْكِتَابِيَّات ، مِنْ مَسِيحِيات وَيهُودِيَّات ، فَإِنَّ مِنَ الْحَلاَلِ مَاهُوَ مَرْغُوبٌ عَنْهُ ، وَمُبَغَّضٌ فِيه ، وَلَيْسَ أَدَلَّ عَلَى هَذَا مِنْ قَوْلِهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : أَبْغَضُ الْحَلاَلِ إِلَى اللَّه الطَّلاَقُ ، وَإِنَّ فِي تَبْغِيضِ بَعْضِ الْحَلاَلِ لأَكْثَرَ مِنْ حِكْمَة وَمَغْزَى !

وَإِذَا كُنَّا نَفْهَمُ وَضْعَ أُولَئِكَ الْمُوَاطِنِينَ مِنَ الطَّلَبَة وَالْعُمَّال الَّذِينَ اضْطَرَّتْهُمْ ظُرُوفُ الْمَهْجَرِ فِي أورُبَا إِلَى التَّزَوُّج بِالأَجْنَبِيَّاتِ ، وَلاَ نُنْكِرُ أَنَّ بَعْضًا مِنْهُنَّ صَالِحَاتٌ فَإِنَّ هَذَا يَنْبَغِي أَلَّا يَحْدُثَ بَعْدَ الْيَوْم مَهْمَا كَانَت الأَعْذَار ، وَقَدْ زَالَتْ تِلْكَ الظُّرُوفُ الاضْطِرَارِيَّةُ كَالْمَنْفَى وَالْغُرْبَة الطَّوِيلَة ، وَيَجِبُ بَعْدَ الْيَوْمِ أَنْ نَعْمَلَ كُلَّ مَا فِي وُسْعِنَا لِمَنْعِ تَكْرَارِ مِثْلِ هَذِه الْحَالاَتِ وَأَنْ نَتَّخِذَ التَّدَابِيرَ الصارِمَةَ خَاصَّةً ضِدَّ مُوَظَّفِي الدَّوْلَة الَّذِينَ تُحَدِّثُهُمْ نُفُوسُهُمْ بِذَلِكَ ، لِنَحُولَ دُونَ أَنْ تُصْبِحَ الْجَزَائِرُ بُرْجَ بَابِلِ وَخَاصَّةً أَنَّ هَذِهِ الْحَالاَتِ تَمُسُّ مَنْ لَهُمْ مُسْتَوَى مُعَيَّنٌ مِنَ التَّعْلِيمِ وَالثَّقَافَة ، أَيْ تَمُسُّ الاطَارَات الَّتِي تُنْفِقُ عَلَيْهَا الدَّوْلَةُ الأَمْوَالَ الْكَثِيرَة ، وَالَّتِي عَلَيْهَا الْمُعَوَّلُ فِي بِنَاءِ الْبِلاَدِ ، وَضَمَان تَمَاسُكِ الأُمَّة ، وَانْسِجَامِ نُمُوِّهَا وَازْدِهَارِهَا

وَإِذَا كَانَ هَذَا كُلُّهُ بِخُصُوص الرِّجَال الَّذِينَ يَسْمَحُ لَهُمُ الدِّينُ بِالزَّوَاجِ بِالأَجْنَبِيَّات فَمَاذَا يُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ عَنْ أُولَئِكَ

النعاج الجرباء اللائي يتزوجن بالأجانب ، واللائي وإن كن يعددن على أطراف الأصابع ، إلا أنهن خزي وعار ، وفضيحة على عائلتهن والمجتمع كله .

فزيادة على تحريم الدين الاسلامي لزواج المسلمة بغير المسلم ، فهناك أيضا بقية من الاحساس بالشرف، وبما نسميه النيف يجب أن يمنع حدوث مثل هذه الحالات .

وهنا يجب تعاون الآباء مع السلطات لمنع احتمالاته وفرص حدوثه بالسهر على هؤلاء ومراقبة مخالطاتهن، وخاصة منع سفرهن إلى الخارج وحدهن مهما كانت الأسباب والتعللات .

وإني لا أجد أي حرج في الكلام عن هذه المأساة بحضور إخواننا هنا من البلاد الشقيقة ، خاصة وأن هذه الحالات وإن كانت لاتزال قليلة ، إلا أنها عامة بالنسبة لهذه البلدان الشقيقة ، وقد كنا أيام إقامتنا في أوروبا نحزن ونأسى ونخجل عند رؤية أخوات لنا من البلدان الشقيقة يتزوجن بالأجانب، وإذا بهذا يحدث الآن حتى للجزائريات .

وكلنا في الهم مغرب ومشرق !

ويكفي أن ألخص هذا كله في الاشارة إلى كلمة وردت أخيرا في جريدة بلد شقيق عن خطر هذه الموضة ، موضة تعلق كثير من شباب اليوم بالأجنبيات ، وشاباته بالأجانب ، وفي الشغف بكل ماهو أجنبي من منتوجات ومنتجين !

وفي هذا الصدد أود أيضا بهذه المناسبة أن أوجه إنذارا إلى جميع تلك المنظمات التي تسمي نفسها خيرية ، من تبشيرية وغيرها ، ولا تريد بنا خيرا ، إننا لها بالمرصاد ، وسنحرص على تتبع أعمالها التخريبية بعين

يَقظَة سَاهِرَة ، وَسَنُرَاقِبُهَا وَنُعَامِلُهَا بِكُلِّ حَزْمٍ ، وَعَزْمٍ وَصَرَامَة إِذَا مَا اسْتَمَـرَّتْ فِـي غَيِّهَـا وَإِخْلاَلِهَـا بِوَاجِبِهَا نَحْوَ الْبَلَدِ الْمُضِيفِ . .

حَضَرَات السَّادَة ....

قَبْلَ أَنْ أَخْتِمَ كَلِمَتِي هَذِه ، أَوَدُّ أَنْ أُشِيرَ بِغَايَة الإِيجَازِ إِلَى مَوْضُوع مِـنْ أَهَـمِّ مَوَاضِيعِ هَذَا الْمُلْتَقَى وَيَتَّصِلُ الاتِّصَالَ الْوَثِيقَ بِالأَصَالَـة ، وَهُوَ الْعَلاَقَةُ بَـيْنَ الاشْـتِرَاكِـيَّة والإِسْلاَم . لَقَدْ كَثُرَت الْمُنَاقَشَاتُ حَوْلَ هَذِه الْعَـلاَقَة ، فَمِـنْ قَائِـلٍ مُغْـرِضٍ دَسَّـاسٍ أَن أَلاَّ عَـلاَقَـةَ لِلاسْـلاَمِ بِالاشْـتِرَاكِـيَّة ، وَأَنَّ الاسْلاَمَ كَدِينٍ لاَ يُمْكِنُ أَنْ يَتَّفِقَ وَالاشْـتِرَاكِيَّةَ الَّتِي لَـهَا أُصُولٌ إِلْحَادِيَّةٌ أَوْ عَلَى الأَقَلِّ لاَ دِينِيَّـةٌ ، وَهَؤُلاء يُحَاوِلُونَ أَنْ يُبْعِدُونَا عَـنْ الاشْتِرَاكِـيَّة لِـحَاجَة فِي نَفْـسِ يَعْقُوبَ ، وَهَذِه هِيَ الْقُوَى الرَّجْعِيَّة

وَمِنْ قَائِلٍ آخَـرَ أنَّ الاسْـلاَمَ كَدِينٍ فَهُوَ رَجْعِيٌّ بِحُكْمِ الطَّبِيعَة وَلاَ يُمْـكِنُ بِالـتَّالِي أَنْ يَتَـلاَقَى وَالاشْتِرَاكِيَّةَ ، وَلِـهَذَا فَعَـلَى مَنْ يُرِيدُ أَنْ يَـكُونَ اشْـتِرَاكِـيًّا أَنْ يَنْسَلِخَ عَـنْ دِيـنِه الاسْـلاَمِيِّ ، وَهَؤُلاء لا يَقِلُّونَ غَدْرًا وَخِـدَاعًا ، وَخُبْثًا عَنِ الأَوَّلِينَ لأَنَّهُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُعَقِّدُونَا ، بِحَيْثُ نَبْذُلُ الْجُهُودَ لِنَنْـسَلِخَ عَنْ دِيـنِنَا ، وَقِيَـمِنَا ، وَعَنَاصِرِ شَخْصِيَّـتِنَا ، وَمُـقَوِّمَاتِ أَصَالَتِنَا ، وَنَتَحَمَّسَ فِي ذَلِكَ الانْسِلاَخِ وَالامِّسَاخِ ، وَنُبَالِغَ وَنَعْمَلَ أَكْثَرَ مِمَّا يَطْلُبُونَ مِنَّا ، لِنَبْدُوَ فِي نَظَرِهِمْ قَادِرِينَ عَلَى الدُّخُولِ إِلَى نَادِيهِمْ الصَّعْبِ الْمَدْخَلِ ، وَلْنَحْصُلَ عَـلَى رِضَاهُمْ عَـنَّا ، وَقَبُولِـهِمْ أَيَّانَا فِي زُمْرَةِ الْمُقَرَّبِينَ !

وَآخَرُونَ مِنَّا ، وَلَكِنَّهُمْ عَلَيْنَا ، انْطَلَتْ عَلَـيْهِم تِلْكَ الْحَذْلَـقَةُ الْغَدَّارَةُ ، فَأَصْبَحُوا يَسْتَجِيبُونَ طِبْقَ تَجْرِبَة بَافْلُوفْ ، وَهُمْ الَّذِينَ فِيهِمِ الْقَابِلِيَّةُ لأَنْ يُسْتَعْمَرُوا ، وَالتَّبَعِيَّةُ لِصَاحِبِ السَّاعَةِ مِنْ أَيِّ شَـكْلٍ أَوْ

لَوْنٍ كَانَ .

وَلِجَمِيعِهِمْ نَوَدُّ أَنْ نَقُولَ أَنَّ الْاسْلَامَ دِينٌ وَدَوْلَةٌ ، وَأَنَّهُ بِصِفَتِهِ دِينًا سَمَاوِيًّا كَامِلاً ، وَالدِّينُ عِنْدَ اللَّهِ الْاسْلَامُ ، فَهُوَ فَيَّاضٌ بِالرُّوحِيَّاتِ ، وَالْأَخْلَاقِيَّاتِ ، وَالْمَعْنَوِيَّاتِ عَامَّةً ، كَمَا أَنَّهُ دِينُ الْعَمَلِ وَالْجُهْدِ ، وَدِينُ الْقُوَّةِ وَالْجِهَادِ ، وَلَيْسَ دِينَ الْاسْتِكَانَةِ ، وَالْمَهَانَةِ ، وَقَبُولِ الْجُورِ وَالْإِذْلَالِ بَلْ هُوَ دِينُ الْعَدَالَةِ وَالْانْصَافِ ، وَدِينُ الْعِزَّةِ وَالْأَنَفَةِ ، وَالشَّرَفِ ، وَدِينُ التَّسَاوِى فِى الْفُرَصِ وَالْإِمْكَانِيَّاتِ بِالنِّسْبَةِ لِلْجَمِيعِ ، وَبِالتَّالِى فَهُوَ دِينُ الْاشْتِرَاكِيَّةِ بِمَعْنَاهَا الْأَصْلِىِّ الْأَصِيلِ الشَّامِلِ .

فَالاسْلَامُ لَيْسَ دِينَ الْفَقْرِ ، وَالضَّعْفِ ، وَالْحَاجَةِ ، بَلْ هُوَ دِينُ الْقُوَّةِ وَالْازْدِهَارِ ، وَفِى هَذَا يَقُولُ الْامَامُ عَلِىٌّ رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُ « كَادَ الْفَقْرُ أَنْ يَكُونَ كُفْرًا » ، كَمَا كَانَ أَبُو ذَرٍّ الْغِفَارِىُّ يَقُولُ : « عَجِبْتُ لِمَنْ تَجُوعُ بَطْنُهُ وَلَا يَخْرُجُ شَاهِرًا سَيْفَهُ » ، وَيَقْصِدُ بِذَلِكَ تَسَاوِى الْفُرَصِ فِى الْعَمَلِ وَالْإِمْكَانِيَّاتِ ، وَتَوْزِيعِ الثَّرَوَاتِ بِالْعَدَالَةِ بِالنِّسْبَةِ لِلْجَمِيعِ .

وَبِخُصُوصِ مُكَافَحَةِ الْاسْتِغْلَالِ وَالرِّبَا يَقُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « ثَلَاثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَمَنْ كُنْتُ خَصْمَهُ خَصَمْتُهُ ، وَيَقُولُ فِى آخِرِهِ : وَثَالِثُهُمْ هُوَ مَنِ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَاسْتَوْفَى مِنْهُ وَلَمْ يُوفِهِ أَجْرَهُ » وَيَقْصِدُ طَبْعًا الْأَجْرَ الْعَادِلَ .

وَفِى هَذَا يَقُولُ مُحَمَّدٌ الْمُبَارَكُ ، الْاسْتَاذُ بِكُلِّيَّةِ الْحُقُوقِ وَعَمِيدُ كُلِّيَّةِ الشَّرِيعَةِ بِسُورِيَا سَابِقًا ، وَعُضْوُ الْمَجْمَعِ الْعِلْمِىِّ الْعَرَبِىِّ بِدِمَشْقَ ، وَالْمُقِيمُ حَالِيًا بِالْمَمْلَكَةِ الْعَرَبِيَّةِ السَّعُودِيَّةِ ، مُسْتَنِدًا إِلَى ابْنِ تَيْمِيَّةَ ، مَا يَلِى : « إِذَا كَانَتِ الْاشْتِرَاكِيَّةُ اشْتِرَاكَ جَمِيعِ أَفْرَادِ الشَّعْبِ فِى الْمَنَافِعِ وَالْمَصَالِحِ ، وَعَدَمَ اسْتِئْثَارِ فِئَةٍ مِنَ النَّاسِ

بِالْمَنْفَعَة ، وَتَدَخُّلَ الدَّوْلَـة فِـي تَقْيِيد الْفَعَّالِيَّات الاقْتِصَـادِيَّـة ، كَتَـحْدِيد حُـقُوق الْمِلْكِيَّـة وَثِمَارِهَا تَقْيِيدًا يُؤَدِّى إِلَى الْعَدَالَة فِي تَوْزِيع الثَّرْوَة ، وَإِلَى تَكَافُؤ الْفُرَص بَيْنَ النَّـاس ، بِـحَيْثُ يَعِيشُونَ عَلَى مُسْتَوَى مِنَ الْحَـيَاة يُؤَمِّن لَـهُمْ الْحَاجَـات الانْسَانِيَّة الْمَادِّيَّة وَالْمَعْنَوِيَّة ، فَإِنَّ الاشْتِرَاكِيَّة بِهَذَا الْمَـعْنَى لَا مُـنَافَاةَ بَيْنَـهَا وَالْإسْلَام ، بَلْ أَنَّ الإسْلَامَ عَـلَى طَرِيقَتِه الْخَاصَّة يَتَّجِهُ فِي هَـذَا الاتِّجَاه الْمُؤَدِّى إِلَـى تَعْـمِيـم النَّفْع ، وَإِقَامَة الْعَدَالَة ، وَإِنْصَاف النَّاس ، بَلْ يُجِيزُ تَدَخُّلَ الدَّوْلَة فِي فَعَّالِيَّات الْأَفْرَاد الاقْتِـصَادِيَّة وَغَيْـر الاقْتِصَادِيَّـة إِذَا اقْتَضَـت الضَّرُورَة أَو الْمَصْلَحَةُ الْعَامَّةُ ذَلِكَ

وَيُضِيفُ فَيَقُولُ : وَالْإسْلَام يَقُولُ بِتَدَخُّل الدَّوْلَة وَمِنْ ذَلِكَ مَنْعُهَا الاحْتِكَارُ ، وَأَخْـذُهَامِنْ أَمْـوَال الْأَغْنِيَاء مَالًا غَيْرَ الزَّكَاة إِذَا كَانَت الدَّوْلَةُ فِي حَالَةِحَرْب لِلدِّفَاع عَن حَوْزَة الْمُسْلِمِين ، أَوْ كَانَ فِي النَّاس فُقَرَاء وَلَمْ تَكْفِهِمُ الـزَّكَاةُ ، أَوْ غَيْرُ ذَلِـكَ مِـنَ الْـحَاجَات ، فَالْإسْلَامُ إِذَنْ يَقُولُ بِتَدَخُّلِ أُولِي الْأَمْرِ ، أَىْ الدَّوْلَـة ، لِإِحْـقَاق الْحَقِّ ، بَلْ لِلرَّحْمَة بِالضُّـعَفَاءِ ، وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ فَوْقَ الْعَدْل وَأَكْثَرَ مِنَ الْعَدْل . فَالْقَوْلُ أَنْ لَـيْس فِـي الْإسْلَام اشْتِرَاكِيَّةٌ يَنْـطَوِى عَـلَى جَهْلٍ بِحَقِيقَة الاشْتِرَاكِيَّة ، وَعَلَى قُصُورٍ فِي فَهْم الْإسْلَام ، وَتَعَالِيمِه وَأَهْدَافِه ، وَبُعْدٌ عَنْ مَعْرِفَة أَحْكَامِه الْمُتَعَلِّقَة بِهَذَا الْمَوْضُوع .

وَيَرْدِفُ قَائِـلًا : « وَلَا يُتَصَـوَّرُ بِحَال مِنَ الْأَحْوَال أَنْ تُؤَدِّىَ أَحْكَامُ الْإسْلَام إِلَى مَوْت فَرِيقٍ مِنَ النَّاسِ جُوعًا أَوْ وُقُوعِهِمْ فَرِيسَةً لِلْبُـؤْس وَالْفَقْرِ وَالْمَرَض ، وَيَنْعَم فَـرِيـقٌ آخَرُ مِنَ النَّاسِ فِي الْوَقْت نَفْسِـه بِالْمَلَاذِّ ، وَالطَّيِّبَات ، وَالْكَمَالِيَّات لِأَنَّ هَذَا مُخَالِفٌ لِأَهْدَاف الْإسْلَام

الْوَاضِحَة فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّة مِثْلِ قَوْلِه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « الْمُسْلِمُونَ كَالْجَسَدِ الْوَاحِدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى ، » وَقَوْلُهُ « إِنَّ الْأَشَاعِرَةَ كَانُوا إِذَا أَمْحَلُوا أَو افْتَقَرُوا جَمَعُوا مَا عِنْدَهُمْ وَاقْتَسَمُوهُ بَيْنَهُمْ بِالسَّوِيَّةِ ، فَهُمْ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُمْ » وَقَوْلِه أَيْضًا : « فِي الْمَالِ حَقٌّ سِوَى الزَّكَاة » ، أَيْ أَنَّ الدَّوْلَةَ لَهَا أَنْ تَأْخُذَ عِنْدَ الضَّرُورَة أَكْثَرَ مِنَ الزَّكَاة ، وَمَا رُوِيَ عَنْهُ أَيْضًا عَنْ أَحَد أَصْحَابِه قَالَ : « بَيْنَمَا نَحْنُ فِي سَفَرٍ مَعَ النَّبِيِّ (ص) إِذْ جَاءَ رَجُلٌ عَلَى رَاحِلَةٍ لَهُ ، فَجَعَلَ يُدِيرُ بَصَرَهُ يَمِينًا وَشِمَالاً فَقَالَ « ص » مَنْ كَانَ مَعَهُ فَضْلُ ظَهْرٍ فَلْيَعُدْ بِه عَلَى مَنْ لاَ ظَهْرَ لَهُ وَمَنْ كَانَ عِنْدَهُ فَضْلٌ مِنْ زَاد فَلْيَعُدْ بِه عَلَى مَنْ لاَ زَادَ لَهُ ، فَذَكَرَ مِنْ أَصْنَاف الْمَالِ مَا ذَكَرَ ، حَتَّى رَأَيْنَا أَنَّهُ لاَ حَقَّ لِأَحَد مِنَّا فِي فَضْلٍ »

وَمِنْ هَذَا يَتَّضِحُ أَنَّ أُصُولَ ، الْاشْتِرَاكِيَّة قَدْ وُجِدَتْ مُنْذُ أَرْبَعَةَ عَشَرَ قَرْنًا وَذَلِكَ فِي رُوحِ الْاسْلاَمِ وَنَصِّه وَهُوَ دِينُ الْعَدَالَة ، وَالْانْصَاف ، وَالتَّضَامُنِ ، وَالرَّحْمَة مَعَ الْمُحَافَظَة عَلَى حُرِّيَّة الْبَادِرَة ، وَالتَّنَافُسِ فِي الْعَمَلِ الْبَنَّاء ، مَعَ الاحْتِفَاظ بِالْقِيَمِ الرُّوحِيَّة وَالْأَخْلاَقِيَّة الْعُلْيَا ، الَّتِي بِهَا يَتَمَاسَكُ الْمُجْتَمَعُ وَيَقْوَى بُنْيَانُهُ وَذَلِكَ كُلُّهُ مَا نَوَدُّ أَنْ نُسَمِّيَهُ بِأَصَالَة مُجْتَمَعِنَا الْاشْتِرَاكِي .

دور الشباب في حياة الأمة

د : أحمد طالب

وزير الإعلام والثقافة



* نص المحاضرة التي القاها د : احمد طالب الابراهيمي امام الملتقى الرابع للتعرف على الفكر الاسلامي المنعقد بمدينة قسنطينة فيما بين 8 - 17 جمادى الثانية 1390 هـ الموافق لـ 10 - 19 اغسطس 1970 م

اننى مبتهج بهذا اللقاء الاسلامى الذى دعت اليه مشكورة وزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية وهذا اللقاء ، هو ثمرة من ثمرات الاستقلال، من ثمرات استقلال هذه البلاد العربية المسلمة ، فلقد كان وما بالعهد من قدم ، مضروبا بسور من حديد بيننا وبين اشقائنا فى المشرق ، فلا لقاء ، ولا اتصال

ولا تزاور الا فى القليل النـادر تحت المراقبةوالتهديد الاستعمارى واليوم ، وبفضـل الاستقـلال الـذى انتزعنـاه بالتضحيـةوالفداء ، والثمـن الغـالى ، اصبحنـا نجتمع باخواننا المسلمين حيث مـا كانـواونعقد معهم الاجتماعات ، ونقيم اللقـاءات ونتبـاحث معهم فيما يهم شـؤون الاسـلاموالمسلمـين ، ولا نخشـى واش ولا رقيب ، والحمد لله ، والله اكبر . وما يزيد فى اهميةهذا الملتقى ، اقـامته فى مدينة قسنطينـة ، عاصمة الشرق الجزائرى ، وقلعة المقاومـةالصامدة، ايام الاحتلال ، بلد عبد الحميد بن باديس ، رمز التضحية والتفانى ، فى ايقـاظالجزائر من غفوتها، وتنبيهها مـن غفلتهـا ، وانقاذها من كبوتها ، ذلكم الرجل الذى عاشللاسلام والعربية والجزائر ، وما ترك ميدان العمل والكفاح ، الى ان فارق الحياة .

لقد تعودت فى هذه المواطـن ان اخـاطب الشباب ، واليوم اريد ان اتحدث عن الشباب ، ان الشباب فى كل امة من الامم ، عنوان صادق على ما تبلغه تلك الامة من تقدم او انحطاط ، واذا اردنا ان نصدر حكما على امة مهما كان ماضيها وحاضرها ، هل هى جديـرة بالرقى والصعود ، والبقاء والخلود ، ام هى جديرة بالخمود والجمود ، والاضمحلال ، والزوال ، فانما ننظر الى ما فيها من شباب ، وما يقومون به من اعمال ، فاذا كان شبابها من الطامحين العاملين على ما يرسى بنيانها ، ويرفع شانها فانها باقية ما اتسمت بتلك السمات ، وهبت عليها تلك النفحات ، واذا كان شبابها مـن المتواكلين القانعين فهى امة تنتظر الساعة وما ادراك ما الساعة ، وهى ساعة تودع فيهـا الحياة الى حيث لا رجعة .

فالامة التى لا شباب لها ، لا مستقبل لها ، وقد اشاد القرآن الكريم بذكر الشباب وثباتهم على عقائدهم ، فقال : ((اذ اوى الفتيـة الى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة ، وهىء لنا من امرنا رشدا)) . وقال : ((قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم)) ، فابراهيم عليه السلام ، بعد تامله فى ملكوت الله وآياته فى الكون اهتدى الى وحدانيـة اللـه ، فقلب الاوضاع بما له من قوة ، وفتـوة ، وحـرر العقول ، وكسر الاصنام ، التى كانت تعبد من دون الله ، وقد اقتضت حكمة الله ان تكون غالب الرسالات بين الثلاثين والاربعين ، وقد عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم بقيادة جيش فيه كبار الصحابة ، اسامة بن زيد ، وهو دون سن العشرين .

وقد نجد فى تاريخ الامم كثيرا من العظماء ، وصلوا الى قمة العظمة والبطولة والعبقرية ، فى سن الشباب ، فما هو السر فى هذه الظاهرة يا ترى ؟ ان الشباب قلب الامة النابض ، وأمل الوطن الباسم ، ولست اعنى بالشباب ، ذلك الفتى سنا فحسب ، وانما اعنى بالشباب ذلك الكائن الحى، القوى الساعد ، المفتول الذراع، الفتى عزما وحزما ، الفتى جدا ونشاطا، الفتى روحا وعقلا ، الفتى علما وعملا ، والذيـن يزنون الامور بالقسطاس المستقيم ، وينهجون المنهج القويم ، لا يستغنون بطموح الشبـاب وحماسهم طبعا عن تجربة الشيوخ وحكمتهم .

ايها الاخوة ، ايتها الاخوات :

ان الشباب كالعود الطرى ، ميال مع الريح فان لم يسق بماء الحياة ذبل ، واذا كانت الريح عاصفة هائجة قصفته فانكسر ، ماء الحيـاة لهذا العود ، مصدره الاهل الذيـن انبتـوه والمجتمع الذى يتلقفه ، والمدرسة التى تربيه وتثقفه ، والدولة التى تركز حاضره وتخطط لمستقبلـه .

اولا : على الاسرة ان تحبه حبا ، لا تنتظر من ورائه جزاء ولا شكورا ، وان تراقب حركاته وسكناته ، فانها مسؤولة بالدرجة الاولى على تهذيبه وتاديبه ، وتوجيهه الوجهة الصالحة ،

التى ينفع بها امته ووطنه ، وينتفع بها هـو واسرته فى مستقبل الايام ، اما اذا اهملت تربيته وبخلت عنه فى صغره ، فانه ينشأ نشأة سيئة تتجرع الاسرة مرارتها ، وتتحمل عارها واوزارها ، ويؤاخذها المجتمع بهذه الجريمة ، واى جريمة اعظم من عدم القيام بالواجب ، وعدم الشعور بالمسؤولية ؟ فهى عوض ان تهىء للامة وتقدم لها من يزيد فى الفضائل ، قدمت اليها من يقترف الاثام والرذائل .

ثانيا : على المجتمع الا يسىء اليه بالمنظر والمسمع ، وان يجعل له مثلا عليا ، تسمو عن الكسب المادى والترف ، لان الكسب المادى قدر مشترك بين الانسان والحيوان ، والمولى تبارك وتعالى كرم الانسان بالعقل ، وقد جاء فى القرآن الكريم : ((ولقد كرمنا بنى آدم)) ، فاذا كان الانسان يعيش فى مجتمع ، لا يرى فيه من المناظر ، الا ما يحرك الغرائز ، ويوقض نار الشهوات ، ولا يسمع من الكلام الا الباطل والزور من القول ، او مـا يبعث الاحقاد والخصومات ، فانه بحكم الجوار يصبح فردا من ذلك المجتمع الفاسد ، وان كان قبل ذلك صالحا فى نفسه ، واذا كان المجتمع يتكون منا جميعا لا فرق بين عالم وجاهل ، وغنى وفقير ، بل وحاكم ومحكوم ، فان المسؤولية على ما يقع فيه من فقر ، وجهل ومرض ، وجور وفسوق وشرور ، تقع على كاهلنا جميعا ، اذ كل واحد منا مسؤول امام الله وامام الوطن عن نفسه ، وعن زوجه ، وعن ولده ، وعن ابنته ، وقد جاء فى الحديث : ((كلكم راع وكل راع مسؤول عن رعيته)) ، فليقم كل منا بواجبه ولا يلـق التبعة على غيره .

ثالثا : على المدرسة الا تعتنى بحشو ذاكرته دون تحريك الذهن ، وبتحصيل الشهادة ، دون اعداده للحياة العامة ، فنحن نريد من شبابنا ان يكونوا ممن يتعلم العلم للعلم لا للشهادة ، وان يشتغلوا بالبحوث الهامة ، والابتكارات التى لها قيمتها فى هذا العصر ، حتى يرفعوا راس امتهم عاليا ، فى المجامع العلمية ، فتسترد الجزائر مجدها العلمى ، الذى قضى عليه عصر الاستعمار والانحطاط .

رابعا : على الدولة ان توجه هذه الطاقات الهائلة للخير والبناء وترعاها ، وتحميها ، وتيسر لها اسباب العيش والرخاء ، والراحة والهناء ، لان الدولة تستمد قوتها من قـوة شعبها ، ولا غرابة اذا رايناها تسعى جاهدة بكل امكانياتها لتحقيق هذه الاسباب والوصول الى هذه الامنية الغالية

ايها الاخوة :

بعد ان استعرضت ما يرتجى لشبابنـا ، اتوجه الى شباب الجزائر لاعبر لهم عن بعض ما نرجو منهم :

اولا : ان يدركوا ان الجزائـر ، جزائـر الاستقلال ، هى فى طور الشباب مثلهم ، بل فى طور الطفولة ، فوطنهم لم يرتـق الى عهـد السيادة والحرية ، الا منـذ سنـوات ، وفى الواقع انه منذ ان اصبح سيد مصيره قد خطا خطوات واسعة نحو الاستقـرار والتنظيم فللرجاء من شبابنا الا يتسرعوا والا يقنطوا او ييأسوا ، فنحن على الطريق سائرون، والنجاح آت لا محالة ، ولعل من باب فخرهم ان يعيشوا فى العهد ويراقبوه ، ويسهموا فيه ، ليستعيد وطنهم صفحات مشرقة من مجـده التليـد ، وتاريخه الخالـد .

ورجاؤنا الثانى : على شبابنا ان يدركـوا ايضا ، ان العالم قد اجتاز فى السنوات الاخيرة وسيجتاز فى السنوات القليلة المقبلة مراحـل ومسافـات لم يقطعها طوال قرون عديـدة مضت ، فهذا الغليان وهذه القفزات الجبارة علما ، وتقنية ، وفلسفة ، تولد هزات عنيفـة فى النفوس ، قد تؤثر فى المقومات والمعتقدات والمعطيات ، وهنا يجب مع مواكبة السيـر الحفاظ على القيم الاساسية ولا سيما القيـم الخلقية والروحية منها ، نريد من الشبـاب الجزائرى ان يحب الحياة ، الحياة الصاعدة التى توجهه الى ادراك كل ما يستلزمه ووجود امته من دواعى البقاء ، ودعاوى الخلـود ، وفهم كل ما يجمع كيانه من اجل التعبير عـن الارادة القوية المنبثقة من ابعد مطاوى نفسه وخبايا ضميره ، نريد من الشباب الجزائـرى

ان يجدد فى نفسه تعشق القوة ، القوة التى تجعله يحقق فى لحظة واحدة ملايين الاحلام والآمال ، نريد له بكلمة مختصرة الفتوة ، فتوة الروح والجسم ، فتوة المشاعر والخواطر نريد انّ تكون الفتوة شارته فى العصر الحاضر ولا يلعب دوره كاملا الا اذا كانت النزاهة غايته ، والاخلاص رائده ، لان كل عمل فى الحياة لا يقوم على الاخلاص ، فهو فاشل ، ولابد أن ينهـار .

ان الشباب الذى نريده، ونتمناه لهذا الوطن العزيز ، شباب يقضى اوقاته ، بين المسجد والمخبر ، والبحث والتنقيب فى الارض والتنظيم والتدريب فى الثكنة ، فهذه الدعائم الاربع ، لا يقوم بناء أمة الا عليها ، وليس لها بدونها فى الحياة نصيب .

اولا : فى المسجد اتصال الضمير الانسانى بالله جل جلاله ، وهذا يقضى ان تتخذ العقيدة الدينية قاعدة اساسية للتربيـة الفرديـة او الاجتماعية ، وهو يحقق غاية الانسانية ، تتسم بالرغبة فى ارضاء الله وحده ، والتضحية بكل شىء ابتغاء وجهه الكريم ، فيصبح القلب عامرا بالايمان ، وتصبح النفس راضية مرضية ثانيا فى المخبر تجرى التجارب العلمية ، وتستطيع الامة بشبابها الذين يدخلون المخابر ، مجاراة الامم الحية ، وتلتحق بركب العلم ، ومن تخلف عن الركب خسر الدنيا والآخرة ، فما لـه فى الدنيا من نصيب ، وما له فى الآخرة من خلاص وقد جاء فى القرآن : « ولا تنس نصيبك مـن الدنيا واحسن كما احسن الله اليك ، ولا تبغ الفساد فى الارض ، ان الله لا يحب المفسدين » صدق الله العظيم .

ثالثا : فى البحث والتنقيب فى خبايا الارض اصلاح وعمران لها ، وقد جـاء فى القـرآن الكريم : « ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر ، ان الارض يرثها عبادى الصالحون » ، هـذه سنة من سنن الكون ، ان البقاء للاصلـح ، ارشدنا اليها القرآن ، منذ قرون ، فالصالحون لعمارة الارض ، هم الذين كتب اللـه لهـم السيادة فيها ، اما الذين يعيشون فيها لهوا وعبثا وفسادا ، ليس لهم من السيادة فيهـا نصيب ، فالصالحون اذا هم البناة ، التقـاة العاملون العاملون .

رابعا : فى الثكنة مدرسة لرعاية الوطن واذا تسلح شبابنا بالعلم والاخلاق ، والقوة والايمان لا ينطبق عليه قول الشاعر :

عجبـا لقومـى والعـدو ببابهـم
كيف أستطابـوا اللهـو والالعـاب

هذه ايها الاخوة ، ايتها الاخوات ، بعض الخواطر حول الشباب ، وفى الازمة التـى يعانيها العالم اليوم ، لابد أن نقول كلمة عن الجامعة ، لان الجامعة تلعب دورا فى اعداد الاطارات لتطوير البلاد . يدخل اليها الشباب ، بعد تحصيلهم الثانوى ، ليتوزعوا على فنون العلم المختلفة فيكون منهم الاستاذ ، والطبيب والمحامى ، والمهندس ، والعالم ، والباحث ، والادارى ، ورجل الاقتصاد ، وغير ذلك .. هؤلاء الشباب بعلمهم ، وايمانهم القوى يسدون الثغرات الموجودة فى هذا الوطن ، ويدفعون به الى الامام ، فى طريق العزة والكرامـة ، والحضارة التقنية الحديثة ليكون فى مصاف الامم الراقيـة ، ولقـد توجهت الى اخوانى الاساتذة والطلبة منذ سنوات ، بكلمـة قلت فيهـا :

ان الرسالة الاولى للجامعة الجزائرية ، هى مكافحة التخلف ، والمهمة فى دقتها لا يمكن أن تضطلع بهاالا الاطارات الوطنية ،التى تجمع الى جانب الكفاءة الشعور بالحاجة اليومية للعمل والنضال لتوفير وسائل الحياة الكريمة لجماهير الشعب الذى انبتها ، وبالرغم من الخطوات الكبيرة التى قطعناها الى اليـوم ، فى هـذا الاتجاه ، فاننا كلما تقدمنا فى الزمـن ، ازداد شعورنا باننا ما نزال بعيدين عن الهدف وبانه يجب على هذه المبالـغ الا تبقى سجينـة فى الخطب الرسمية ، بل هى مدعـوة بفضـل الجامعة ، والجامعة فى الدرجة الاولى ، الى ان تكون كالبذرة متصلة بالحيـاة ، والنمـاء نراقب تطورها فنشذبها حينا ، ونطعمهـا احيانا حتى يصبح اصلها ثابتا وفرعهـا فى

السماء واننا سنظل حريصين على تحقيقهـا مهما قلت وسائلنا لان الوسـائل قد تتعدد ولكنها تبقى وكلها راجعة الى وسيلة واحدة هي ارادة الانسان .

قلنا ان حقيقة الرسالة الـتي يجـب ان تضطلع بها الجامعة هي مكافحـة التخلف في المجتمع ، ويبدو انه اذا كان كل الناس،عندنا متفقين على هذه التسمية ، فانهم فيما يتعلق بمضمونها يذهبون مذاهب بعيدة عن الاتفاق واكثريتهم ترى أن مقاومة التخلف بالنسبـة للجامعة هي الاكتفاء بتكوين اطارات علمية نقارن بها خريج الجامعات في اوروبا ، وفي العالم المتقدم ، الـذى يسبقنا بمراحل بقطع النظر عن مستوانا الاجتماعي ، والحضارى المتخلف ، وبقطـع النظر عما نستطيـع ان نهضمه ، او لا نهضمـه من الثقافـة ، وما نستطيع أن نستفيد منه ، أو لا نستفيد،فتكون النتيجة في هذه الحالة ان تخرج الجامعة عندنا اطارات قد تصلح للعالم المتقدم ، الذى قلدناه ولكنها لا تصلح للمجتمع المتخلف الذى نعيش فيه ، والذى نتحمل مسؤولية رفع مستواه ، فمثلا ، الطبيـب الذى لا يقـرن ثقـافته الطبية الحديثة ، بحالة شعبه الصحية ، ولا يعمل على تسليط اضوائها على الهوة المظلمة التى تفصل بين مجتمعه ، وبين تلك الثقافات الحديثة في مجـال الصحة ، ليكتشـف اقرب السبل ، واقصر الوسائل لسد تلك الهوة ، ولا يبحث ما عند شعبه من أدويـة واعشاب صالحة وغير صالحة ، ولا يلتفت الى ما في تراثه الطبى من تجارب صحيحة او خاطئة،هو طبيب لا يستطيع ان يؤدى رسالته العلمية ، ومسؤوليته نحو مجتمعه .

والاديب او اللغوى الذى يبقى مكتفيـا في مجال اختصاصه بالقواعد والاساليب الرفيعة المعقدة ، التى تعلمها دون ان يهتدى بها الى الطرق التى يسهل بها ايصال هـذه الثروة الثقافية الى مجتمعه المتخلف ، ويشركه معه في مستواه الادبى ، ولا يبحث لغة شعبه ، وما فيها من صحيح وخاطىء ، حتـى يصـير هذه اللغة ، لغة علم متطورة نامية ، هـو اديب ولغوى ، لا يستطيع ان يؤدى رسالته الثقافية ، ومسؤوليته نحو مجتمعه .

ورجل القانون الذى يتبحر في الفقه الدولى، او القانون الجنائى المسطر في الكتـب ، ولا يسلط معـارفه القانونيـة عـلى المشاكل الاجتماعية في مجتمعه ، ولا يدرس بها عادات بلاده وتقاليدها ، فيستخـرج منها الامراض التى يعانيها مجتمعه ، ويجد لهـا اقـرب العلاجات واسهلها تناولا ، هو رجل لا ينتظر منه ان يكون مصلحا اجتماعيا ، او مشرعا ، لما تفتقـر اليـه البلاد من انظمـة سياسية واجتماعيـة وادارية ، تتمشـى مع وضعه المتخلف وترقى به نحو الخروج من ظلمتـه القاتلة ، عن مستوى شعبها ، دون ان تعمل على الحاقه بمستواها ، هي جامعة لا تؤدى رسالتها نحو شعبها .

ان كل هذا ، ايها السادة ، يطلق عليـه كلمة « الازدواجية » كل مثقف عندنا يعيش هذه المأساة الازدواجية ، دون أن يشعر بها شعورا ايجابيا واعيا ، فيعيش ثقافته في عالم وحياتـه العلميـة في عالم آخر ، فاذا بقينا مكتفين بهذه الطرق في حياتنا الثقافية ، فان الهوة بين المثقفين وبين مجتمعنا لن تزداد الا اتساعا ، لان ما تخرجه المؤسسات الثقافية عندنا من اطارات ، من هذا الطراز ، سيبقى دائما اقلية سلبية ، بالنسبة للاعداد الهائلة، التى تتكون سنويا مع ازدياد المواليد وانتشار الامية ، ولكن من اين جاءتنا هذه الازدواجية؟ لا شك ان هناك اسبابا تاريخية لعبت دورهـا الرئيسى وجعلتنا ناتى الى العـالم المتحضر متاخرين عن القافلة ، الا أن هنـاك سببا آخر هو استسلامنا العقلى امام هذا الوضع المتناقض ، الذى وجدنا انفسنا فيه ، اننـا استسلمنا من ناحية للتيارات الثقافية الحديثة واساليبها المعقدة ، وادواتها الالكترونية ، ولم نحاول تسخيرها وتبسيطها لفائدة مجتمعنا ، واستسلمنا من ناحية اخرى لتخـلف هذا

المجتمع ، لاننا عجزنا بروحنا الاستسلامية وبوسائلنا القليلة ، عن الحاقه بالقافلة المتحضرة ، لقد وجدنا انفسنا بين امرين ، اما أن نبقى مع مجتمعنا في تخلفه وعجزه الحضارى ، واما ان نبنى حضارة جاهزة ، غزتنا في بلادنا فقبلناها كما هي لانفسنا فقط في حين ان هناك طريقا ثالثا لم ناخذ به ، وهو تسخير ثقافتنا لخدمة شعبنا ، اى تسخير روح البحث العلمى الذى تعلمناه في دراسة اوضاعنا الاجتماعية والحضارية . اننا حتى الان ، ولا اقصد هنا الجزائر وحدها ، لم نقيم تراثنا الثقافى والحضارى ولم ندرس ما هو صالح منه للحياة والتطور ، وما حكم عليه الزمان بالاعدام والزوال ، وبعد هذا كله ، فلم نستطع المحافظة على حريتنا واستقلالنا، الا بالمحافظة على تقاليدنا ودیننا ، واستعمال لغتنا العربية في مخاطباتنا ، وكتاباتنا ، سواء كان ذلك في المنزل ، او السوق ، او في الادارة والدواوين ، بل في سائر الميادين ، وهذه هي الاسس التي قامت من اجلها ثورتنا وبها نجحت وما زالت تعمل في سبيلها رغم كل العراقيل والاباطيل ، وهي المميزات الوحيدة التي تميز هذه الامة عن غيرها من الامم ، فليس بجزائرى من لا يحاول التكلم بالعربية، سواء اكانت فصيحة ام دارجة ، ومن يهجر تقاليد الجزائر ، ودين الجزائر ويتقمص تقاليد اجنبية ، فهو اجنبى عن الجزائر ، وان كان مولودا من اب جزائرى وام جزائرية ويعيش تحت سماء الجزائر ، ويتمتع بالجنسية الجزائرية ، وهذا واقع لا يقبل الجدل ، هذه هي الرسالة المقدسة الملقاة على عاتق شبابنا زيادة على دوره الطلائعي في مكافحة ثالوث التخلف : الفقر ، والجهل ، والمرض .

فعلى شبابنا ، ايها الاخوة ، ايتها الاخوات ان يكونوا في مستوى الامال المعقودة عليهم ، وان يكونوا مواطنين مؤمنين بوطنهم وشعبهم وهذا يتطلب منهم الايجابية في العمل ، فالمواطن الصالح هو الذى يدرك مسؤولياته الكبيرة التي يتحملها ، ويعمل لانجازها ، بوحى من ضمير حى ، اساسه العلم والخلق ، متعاونا متكافلا مع ابناء الوطن جميعا ، وان يشعر بانه جزء من المجتمع ، ويضع مصالح الجماعة قبل مصلحته الفردية .

يا شباب الجزائر : كونوا اصحاب عقائد، تعيشون لها ، لا اصحاب عقائد تعيشون بها ، فان الذى يعيش للعقيدة يبقى حيا خالدا ، ولو اخذته المنية منذ قرون ، اما الذى يعيش بالعقيدة فهو يمشى فوق الارض كمن دفن تحتها :

هذه كلمتى اليكم ، وفي الختام اسال الله تعالى ان يجعل اجتماعنا هذا خالصا لوجهه الكريم ، وأن يجعلنا من جنوده الصالحين المصلحين ، وأن يمدنا بروح منه حتى تنتصر قضية الاسلام في جميع الميادين .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

* الحرية فى مستوى الاخلاق الراكدة ، تعنى توكيدا مباشرا للذات بحيث لا تعد المسؤولية الا نتيجة لاحقة بها .

* ان حرية الافراد فى جـدل الاخلاق الثائرة ، لا تكسـب معناها وقدسيتهـا الا مـن خلال الاعباء التى يقوم بهـا هؤلاء الافراد .

* الثورات الكبرى التى تعبر عن انتفاضـات حضـارية ، تمثلها على صعيد الفكر ثورة فى المفاهيم والافكار ، اى ثورة فى الفلسفة .

* ان الثورة الروحية التى نمر بها تجعلنا نثق ان الوجـدان العربى الذى عاش تجربة الألم والتمـرد والتضحيـة سوف يتمخض عن فكر خلاق يتحرق الى الارتقاء بالانسان فى سلـم الوجـود .

من خصائص الثورة العربية

دكتور بديع الكسم

عندما تألق وجودنا العربى بنور من ذاته، وأنوار فاضت عليه ، اضاء الزمان قرونا موصولة ، وحرر المكان من الظلم والظلام ، فتوهجت الحياة، ثم نمت كاشفة عن امكاناتها، ثم أزهرت ثم اثمرت ، فكان لقاء المشرق بالمغرب ، وكان لقـــاء العقل بالحرية ، واخذنا نتسلق القمم ونبلور الارادة واقعا صلبا ، وننشر فى الآفاق ما كان مطويا فى الاعمـــاق .

ولكن المعجزة العربية لم تتحقق مثل فعل بسيط ، أو مثل حركة اليد فى الفضاء . لا ، ولم تسلك طريقا لا عوج فيه كانه خط مستقيم أو شعـــاع من ضوء . وانما كانت تجربـــة ابداع . فكان لا بد لها اذن من ان تخضـــع لمنطق الواقع الحى بكل ما يضج فيه من قوى متحركـــة ، تتعــــارض او تتكامــــل . وكان لابد لها من ان تخضـــع لمنطق المـــادة المقـــاومة ، ومنطق العقل المنظم ، ومنطق الارادة التى ترسم الاهداف ثم تتجاوزها هدفا بعد هدف .

ولهذا كانت التجربة العربية تشق طريقها بالمجـــاهدة والمكـــابرة ، تصطدم بالعقبـــة فتصارعها ، أو تلتف حولها أو تمتصها بقدرة عجيبة كأنها السحر . لقد انطلقت تهـــدم وتبنى ، تساير وتداور ، تأخذ وتعطى ، تكر وتفـــر ، تقبل وتدبر معا كأنها فرس امرىء القيس . فليس عجيبا اذن ان تجفل مـــرة قرب منحدر ، أو تكبو عند صخرة عاتية . ولكن الشوق الذى كان يحدوها ، كان يطيب جراحها ، ويفتح امامها الافق ، ويدفعها الى ان تبلغ مداه .

نقول بعبارة اخرى . ان بنيـــة المجتمع العربى فى الجاهلية كانت تتكون من دوائـــر ضيقة ، مغلقة ، متناثرة ، متباعدة ، ترتكز الى عصبية قبلية وتستهلك طاقاتها دون ان تستولدها . وجاء الاسلام يهدم أسوار هذه العصبية ويقوض بنيـــة معوجة ، يحكمهـــا تناقض يمزق القـــوى الكامنة فيها . ولمـــا انهارت الاصنام تحرر الكيان العربى ، وتجمع حول نفسه ، فتشكلت بنية جديدة يربط بين عناصرها تماسك باطن قوى ، ويوجهها هدف موحد . ثم كانت الفتوحات ، فانفتح الوجدان العربى على عوالم جديدة ، وكان الفعل ورد الفعل ، وكانت التحديات والمجابهات ، ثم كانت من ذلك كله حضـــارة ذات الـــوان ، حضارة واحدة متصلة ، يغذيها التنافس كما يغذيها التآزر . ومعنى ذلك كله ان الامـــة العربية عبر الزمان والمكان كل موحد ، أو متحد طبيعى يصوغ نفسه فى صور متجددة ، وهو فى كل صيغة مجسدة يتألف من عناصر ثابتة متحركة ، ثابتـــة فى وجـــودها متحـــركة فى تطلعاتهـــا .

وهكذا تبلور المجتمع الاسلامى فى بنيـــة جديدة كان الوجود العربى بمثابة النواة أو المركز .

ثـــم حلت الفاجعـــة ، فقـــد انزلـــق الوجود العربى من المركز الى المحيط . لم نعد نذكر كيف تم ذلك . كل ما نذكره أن دوامة ملعونة كانت تلفنا وتدور بنا بعنف وحشـــى لتسلمنا الى امواج مجنونة ، ونذكر اننا كنا نقاوم عبثا حتى ارتمينا على شاطىء مهجور . وغفونا ، ثم افقنا على أوجاعنا ، وتحسسنا قوانا فوجدنا أن الانهاك لم يستنفدها كلها ، وان عزيمة فينا مخـــزونة كانت اقـــوى من الفاجعة . وسار التاريخ بنا الى بدء الثورة التى نعيشها اليوم . ونعتقد اننا فى اطار هذه الثورة وحدها ، بل بوحى منها ، انما نفكر جميعا ، ونعمل .

ان ثورتنا المعاصرة امتداد حـــى للثـــورة العربية التاريخية . ونحب أن نؤكد اليوم على بعض الخصائص التى تميز انطلاقتنا ، والتى تستند الى حـــدس عميق لما بين المبـــادىء الكبيرة من علائق خفيـــة .

فمن ذلك مثلا ان الحق والواجب يمثلان فى مستوى الاخلاق الراكـــدة طرفين متقـــابلين بحيث يعتقد الفرد أنه حر التصرف بحقوقه ، بمعنى أنه يستطيع ان يطالب بها كما يستطيع ان يتنازل عنها ، وأن واجباته مفروضة عليه

من خارج بمعنى انه لا يخضع الا بمقدار ما نلزمه ، وان اعفاءه منها يرضيه ولا يسىء اليه، فالحق بهذا المعنى ملك للفرد، والواجب ضريبة يدفعها ثمنا لهذا الحق . ولكن توتر الحياة الاخلاقية الذى يستلزمــه كل جهــد لتحقيق قيمة عليا يلغى هذا الفاصل بين الحق والواجب ، من حيث هما فكرتان متقابلتان ، ويجعــل كلا منهــا عنصرا مقومــا للاخر .
وعندها لا يحس الفرد بأنه حر التصرف بحقوقه وانما يحس بأنه ملزم بالمطالبة بهــا ، وبأن واجبه بالمعنى الكامل لكلمــة الواجب ، ان يعمل على استردادها فى كل مرة تسلب منه . ان التفريط فى حق من الحقوق ، فى مستوى الاخلاق الثائرة ليس تنازلا مشروعا ولكنــه اهمال لواجب . أما الواجب فانه يصبح بدوره حقــا من الحقوق ، بمعنى أن الاعفــاء منه ووضع العقبات التى تحول دون تحقيقه يعدان فى اخلاق الثورة اهدارا لحق أصيل .

ومن خصائص هذا التفتح الاخلاقى ايضا انه يعمق معنى كل من الحرية والمسؤولية ويكشف عن الرابطة الحقيقيــة بينهمــا . **فالحرية فى مستوى الاخلاق الراكدة فى حدود المفهوم الفــردى للحياة تعنى توكيدا مباشرا للذات بحيث لا تعد المســؤولية الا نتيجــة لاحقة بهــا .** فشعار الفرد هنا : انا مسؤول بمقدار ما اعطى من حرية . ولكن الايمان بهدف كبير يقلب هذه العلاقة راسا على عقب ويجعل من المسؤولية مبدا اوليا ومن الحرية ثمرة حمل المسؤوليات . ان حرية الافــراد فى جدل الاخلاق الثائرة لا تكسب معناهــــا وقدسيتها الا من خلال الاعباء التى يقومون بها ، والانتصارات التى تحققها جهودهــم . وهكذا ينقلب الشعار ويصبح : انا حــر لانى مسؤول ، بمعنى انى لا اطبع بطابع الحرية الا بمقدار ما اكافح .

ومن خصائص التفتح الاخــلاقى انه يرتد بمفهوم العدالة الى اصــولها فى الطبيعــة والضمير بدلا من أن تظل رهينة الاصطلاح الموقوت . ذلك أن الاخلاق الراكدة تفهــم العدالة مــن زاويــة التشريــع الوضعــى والعادات المستقرة . فبؤس المواطن المحروم



فى نظر هذه الاخلاق ليس انتهاكــا للعدالــة او ظلما ، وذلك لاستحالة تعيين الظالم ، انه بؤس فحسب قد يثير المواطن الشفقــة والاحسان دون أن يجرح حس العــدالة فى الضمير . ولكن الاخلاق الثائرة ، لكونهــا ترتبط بروح النضال المشترك فى سبيل هدف مشترك ، تستطيع ان تكشف فى بؤس المواطن المحروم ظلما يناقض العــدالة فى اصولهــا الطبيعية ، كما تستطيع ان تكشف عن الظالم فى مجموعة النظم الاجتمــاعية . وعند ذلك يتسامى معنى الاحســـان الى معنى تحقيق العدالة . وهنا يكمن منبع اصيل من منابــع الاتجــاه الاشتراكى .

ومن خصائص الوعى الجديد انه قد ادرك أن الفرد لا يستطيع تحقيق ذاته الا خلال عمل مشترك مع الاخرين . فالمجتمع هو الجــو الطبيعى الذى يتنفس فيه . ولكل مجتمــع انسانى شخصية حيــة دائمــة تميــزه عن المجتمعات الاخرى وتجعله يتصف بمجموعــة من الشروط المادية والروحية التى من شانها ان تطبع تقاليده وتطلعاته بطابع الاستمرار . واذا كانت هناك روابط كثيرة تربط الفــرد بالمجتمع ، فان المحبة اكثر هذه الروابط عمقا وشمولا . وذلك لان كل فرد يقدم عن طريق عمله وجهده ، شيئا من ذاته الى مواطنيه . ولا شك ان هذا العطاء المتبادل هو الاساس الاول للمحبه القوميــة .

ومن خصائص الوعي الجديد ايضا انه ادرك العلاقة العضوية بين الفكر والثورة . واذا فهمنا من الفكر ههنا نظرة متماسكة الى الحياة فى جميع ابعادها ، اى فلسفة ، فهمنا لماذا يرافق النهضة الاجتماعية فكر فلسفى يعكسها وينعكس عليها . **فالثورات الكبرى التى تعبر عن انتفاضات حضارية ، تمثلها على صعيد الفكر ثورة فى المفاهيم والافكار ، اى ثورة فى الفلسفة . قد يقال هنا ان بين الثورة والفلسفة ضربا من التنافر يرجع الى البنية الذاتية لكل منهما . فمفهوم الفلسفة قد ينحل فى الذهن الى معنى العقل او التعقل ويوحى اليه بفكرة الحركة البطيئة ، بل بفكرة الحركة الدائرية التى تنتقل على ذاتها وتنفصل عن تيار الزمن . اما الثورة فقد تعنى اول ما تعنى تجاوز العقل والمعقول وتحطيم الحركة المتصلة بوثبة فى قلب الزمن ، زمن الناس والحوادث والاشياء . الفلسفة فى هذه النظرة تساؤل طويل وتامل اطول وتحفظ مستمر ، بينما الثورة جواب قاطع فاصل ، وفعل بات ، واطاحة عنيفة بمنطق الوسوسات .**

ولكن يكفى ان نقف عند المعنى الحركى لكل من الفلسفة والثورة ، اى عند المعنى الذى يفصح عن نزوع كل منهما الى ان تتكامل وفق بنيانها العميق ، حتى نكشف التشابه الواضح بينهما . فالفلسفة تفكير . والفكر لا يعمل الا اذا احس بالعقبة وتمرد عليها . ان اخص خصائصه روح نقدية ترتكز الى مثل اعلى لتفضح كل خلل ينحرف بالوجود الانسانى او امكانياته عن دروب النمو المتصل . وبما ان اشكال الانحراف لا تتبدد وتزول كلها الا حين يزول الوجود نفسه ، فقد قدر للفلسفة ان تحمل ، فى كل وقت ، علم الثورة المستمر .

ولكن الثورة بدورها لا تحقق معناها الا اذا انطلقت من شعور حاد بالفارق الذى يفصل الواقع عن نموذجه فى العقل . ان اول شرط فيها هو هذا الوعى المتقد وهذا التمرد الروحى على ما يشوه حقيقة الانسان . فلابد للثورة اذن من ان ترتوى جذورها بماء الفكر ، ولابد لها ان تنفتح حيث يتطلع الفكر . والثورة بعد ذلك ليست مجرد انتفاضة لا تعرف كيف تملك زمام نفسها ، ولا تدرى كيف تحدد وسائلها وخطواتها . انها على النقيض من ذلك لا تكون ثورة حقة الا بمقدار ما تعرف اين تتجه ، اى بمقدار ما تتأمل .

بقى ان نقول اذا كان منطق الفلسفة لا ينقض منطق الثورة فذلك لان روح هذه من روح تلك ، او لان الواحدة والاخرى تعبيران متكاملان عن نشاط واحد . فالفلسفة لا تقنع بان تحب الحق وانما يدفعها هذا الحب الى ان تبشر بالحق والى ان تحققه فى الوجود . وعند ذلك تستحيل الى ثورة . وهذا يعنى ان الفلسفة تمهيد للثورة ، وان الثورة تجسيد للفلسفة .

واخيرا فلعل اكبر كسب حققناه خلال الخطوات الاولى فى ثورتنا المعاصرة اننا عدنا الى ذاتنا عودة واعية خصبة . فمنذ عهد ليس بالبعيد كانت لفظة « العرب » رغم كل ايحاءاتها العاطفية ورغم ما تولده فى النفس من رعشة الحنين والامل ترمز اول ما ترمز الى اجدادنا العرب فى انطلاقتهم الكبير . لقد كان هؤلاء يملؤون فسحتها ويستنفدون شمولها بحيث لا تصدق علينا نحن الاحياء سكان الوطن العربى ، الا بمقدار ارتباطنا التاريخى بماضينا . فكان شعورنا بالذاتية قد تقلص حتى غدا مشتقا لا اصيلا . ونشأ عن ذلك احساس بما يشبه الضياع . ولكن تفجر الوعى قد رد الينا هويتنا واصبحت لفظة العرب تعنى اولا نحن العرب لا هم العرب . ان هذه الوثبة نحو الشعور المليء بالوجود قد جعلتنا اكثر قدرة على مجابهة التحديات والصعوبات واكثر وعيا لحقائق الواقع وقواعد الحركة الصاعدة .

ان الثورة الروحية التى نمر بها تجعلنا نثق منذ اليوم ان الوجود العربى الذى عاش تجربة الالم والتمرد والتضحية سوف يتمخض عن فكر خلاق يتحرق اكثر من اى فكر آخر الى الارتقاء بالانسان فى سلم الوجود . وذلك لان الروح العربية تؤمن بان للذات الانسانية زيادة على ابعادها الافقية ، بعدا رأسيا يصلها باللانهاية .

بديع الكسم أستاذ الفلسفة بجامعة الجزائر

الافلاطونية

فى فلسفة الجمال عند المسلمين

عمار طالبى

اتجه الباحثون فى مجال الفلسفة الاسلامية الى ان المشائية او الارسطية هى التى هيمنت على فلاسفة الاسلام ، ابتداء من الكندى (ت ٢٥٢ هـ — ٨٦٤ م) الى ابن رشد (ت ٥٩٥ هـ — ١١٩٨ م) ولكن الدراسات الاخيرة انتهت الى ان الافلاطونية لا تقل اهمية عن المشائية فى تيارات الفلسفة الاسلامية ، وخاصة تيار التصوف ، الذى نفذ اليه افلاطون ، واحتل منه مكان الصدارة ، الا انه لم ينفذ الى المتصوفة صافيا ، بل شابته عناصر افلاطونية محدثة ، وغنوصية فارسية ، وعناصر اخرى هندية . وقد درس هذا التيار الافلاطونى فى الفلسفة الاسلامية أستاذنا الدكتور على سامى النشار وابان عنه واثبته من خلال النصوص ، والوثائق الصريحة .

ونحن نريد ان نتعرض فى هذه العجالة الى مجال معين ، وهو الفلسفة الجمالية ، وخاصة تصوف ابن الدباغ القيروانى (+٦٩٦هـ — ١٢٩٦ م) .

شغل الحب والجمال طائفتين من المفكرين فى تاريخ **الادب الاسلامى** : طائفة الادباء ، وطائفة المتصوفة ، غير ان الادباء اعتبروا الحب ظاهرة انسانية ، تنشأ عن مشاهدة الجمال المخلوق فى مجاليه الطبيعي والانسانى ، فعبروا عن عواطفهم الجمالية فى صور شعرية خلابة ، سواء فى صيغتها الحسية الواقعية او فى شكلها الخيالى الخلاق ، او فى صورة تحليلية حية فى التعبير النثرى .

والغريب ان الذين تولوا تحليل هذا اللون من الحب ، ونفذوا الى حقائقه الداخلية ، ومنازعه النفسية ، انما هم الادباء من الفقهاء ، الآخذين بالظاهر ، فى مذاهبهم الفقهية ، ابتداء من مؤسس المذهب الظاهرى ، أبي بكر محمد بن داود (ت ٢٩٧ هـ — ٩٠٩) الى ابن حزم (ت ٤٥٦ هـ — ١٠٦٤ م) ، الى ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١ هـ — ١٣٥١ م) السلفى . ولقد نفذ العنصر الافلاطونى فى كتاب ابن داود المسمى بـ « الزهرة » وهو عبارة عن مختارات من الآثار الادبية الرفيعة من شعر ونثر ، مجدة للحب العذرى ، وطافحة بمعانى الجوى ، والوجد ، والهوى ، والبث ، والشكوى ، والحرقة ، والنوى . اذ ذكر فى كتابه هذا افلاطون ، ونقل نصا من « المائدة » Banquet لافلاطون .

وتسرب من خلال ذلك ، الاثر الافلاطونى الى فيلسوف الجمال والحب ، واديب الظاهر الاكبر ، ابن حزم الذى يبدو انه اطلع على كتاب « الزهرة » لشيخه وامامه ابن داود ، وافاد منه ، ويستطيع القارىء ان يلمح العنصر الافلاطونى من خلال مطالعته لكتاب ابن **حزم** الرائع الموسوم بـ **« طوق الحمامة »** وقد ورد فى ثنايا هذا الكتاب الفريد من نوعه فى تاريخ الاداب الاسلامية ، نص يعود الى كتاب « المائدة » ايضا ، قال ابن حزم : (قد اعتقد بعض اهل الفلسفة ان الله قد اعطى لكل من العقول التى خلقها شكلا كرويا ، ثم جعله قسمين ، ووضع كلا منهما فى جسد) . ان ما ذهب اليه ابن حزم من ان الشبيه ينجذب لشبيهه ، ويسعى اليه ، وأن النفس بما فيها من جمال تشتاق ، وتتوق الى كل ما هو جميل وتهفو الى الاتحاد به ، ليذكرنا بمحاورة افلاطون « فادر » Le phèdre وبما ورد فى المادبة ايضا من المناسبة ، والمشاكلة او المشاركة ، بل يمكن القول بأن نظرية ابن حزم فى الحب قد انتقلت الى اوربا اذ توجد اوجه من التشابه بينه وبين Guillaume d'Aquitaine IX فى كتابه « العلم المرح » Gaie science.

وبين الشعراء الفرنسيين المتجولين ايضا كما لاحظ نيكل المستشرق الانجليزى ، وهنرى كوربان المستشرق الفرنسى .

اما الطائفة الثانية فهم المتصوفة الذين اعتبروا الجمال المخلوق الحسى فى شتى مظاهره ، مجلى للجمال الالهى المطلق ، وان المحب الوامق او العاشق الولهان ، انما ينتقل من الجمال المفرد المنظور ، الى الجمال الكلى اللامرئى .

وان كان افلاطون قد تحدث لاول مرة عن الانسان الجميل الذى يتجلى فيه الجمال المطلق ، فان فلسفة المتصوفة فى الجمال والحب قد اكتست صبغة افلاطونية تكاد تكون محضة ، اذ من الجميل بالذات يستمد كل جميل جماله عند افلاطون ، وعند المتصوفة على السواء .

وقد وقع امام المتصوفة السنيين نفسه ، الا وهو الامام الغزالى (ت ٥٠٥ هـ — ١١١١ م) تحت تأثير افلاطون فى هذا الجانب من فلسفته الصوفية ، وما حبره قلمه الساحر فى كتابه الغنى بالتأملات الفلسفية والتحليلات النفسية وهو كتاب **« احياء علوم الدين »** الذى احتوى على قطعة نفيسة فى تحليل الجمال ، والمحبة والعشق ، اكبر دليل ، واوضح شاهد على ما نقول . اذ طبق فى ذلك كله الجدل الافلاطونى ، تطبيقا كاملا ، واذا كانت مراحل الجدل الافلاطونى متمثلة فى اربع درجات : الجمال الجسمانى ، فالاخلاقى ، فالعقلى ، فالمطلق ، فاننا نجد ما يناظر هذه المراحل لدى الغزالى ولدى ابن الدباغ .

لا نريد ان نتحدث عن جميع المتصوفة ، وانما قصدنا الحديث عن احد الافلاطونيين المغاربة من المتصوفة ، الا وهو ابن الدباغ ابو زيد عبد الرحمن بن محمد الانصارى القيروانى (ت ٦٩٦ هـ — ١٢٩٦ م) صاحب كتاب

« مشارق انوار القلـوب ومفاتـح اسرار الغيوب » الذى حققه المستشرق الكبير ه . ريتـر حينما عثـر عليه ضمن مجمـوعة من الرسائل فى مكتبة ولى الدين فى استانبول يرجع تاريخ نسخها الى ١٧ ذى القعدة سنة ٨٠٦ ه وهى تقع من ورقة ١ — ٣٩ من المجمـوعة المذكورة وقد وصلنا من آثـار هذا الصوفى ايضا كتاب فى تاريخ القيروان يسمى **« معالـم الايمان فى معرفة أهل القيروان »** وهو الذى اضاف اليه القاسم بن عيسى الناجى (ت ٨٣٧ه — ١٤٣٤ م) تعليقاته المعروفة .

ان **« مشارق أنوار القلـوب ، ومفاتـح أسرار الغيوب »** رسالة موجزة فى تحليل المحبة والجمال ، تحليلا عليـه مسحـة أفلاطونية واضحة لا تدع مجالا للشك ، كما يبدو فيها اثر الغزالى ، والحسين بن منصور الحلاج (ت ٣٠٩ ه / ٩٢٢) الغنـوصى الاسماعيلى ، الذى ذكره ابن الدبـاغ فى رسـالته غير ما مـرة ، ونقل عنه تعريفه للمحبـة وقطعـا شعرية عديدة وترحم عليه .

ان معنى الجمال مرتبط فى تصور ابن الدباغ **بمعنى الكمال ، لان معـنى الكمـال هو سر الجمال ، والكمـال هو : « حضـور جميـع الصفات المحمودة للشىء » غير انه ينقسم الى كمال ظاهر ، وكمال باطن ، فالظاهر يتبـدى فى المحسوسات المشـاهدة باجتمـاع محاسن صفاتها ، وهو يختـلف باختـلاف الاشياء ،** فكمال عالم النبات غير كمال عالم الحيوان ، وكمال الاخير غير كمال عالم الانسان اى ان « كمال كل شىء بحسب ما يليـق به » وقد اوضح لنا أوجها من الكمال الظاهر فى شـتى الموجودات الحسية فقال : « فكمال صـورة الانسان الظاهرة،فى تناسب اعضائها واعتدال مزاجها ، وامتزاج البياض والحمرة فى لونها ورقة بشرتها .... وكمال الفرس فى قبوله لما يراد منه ، من الكر والفر ، وحسن تأديبه لكى يتم المقصود منه ، وكمال النبات ،غضارته ونضارته ، وبدائع ازهاره ، واختلاف الـوان انواره » ولم ينس أن ينتبه أيضا الى كمـال الصوت وموسيقاه ، فبـين لنـا ان « كمال الصوت فى رخامته وعذوبته » .

وهذه الكمالات الظاهرة الحسية هى مجلى الجمال ، ومظهره ، وبه تعلق النفس بالطبع، وتميل بالغريزة ، وتنجـذب بالمشاكلـة أو المشاركـة .

اما الكمال البـاطن فهـو كمال اخلاقى فى حقيقته ، وحاول ابن الدباغ أن يعرفه بقوله : « اجتماع الصفات الفاضلة فى الانسان على اعتدالها ، وتطبعه بها » وحصر الصفـات الاخلاقية فى أمهـات أربـع ، **ألا وهى الحكمة والعفة والشجاعة والعدالة ، وكمـال هذه الصفات هو اعتدالها ، وكمال الانسـان أن تجتمع فيه معتدلة ، غير أنه فسر الاعتدال هذا تفسيرا اسلاميا فقال : « واعتدالهـا بكـونها تجرى على قوانين الشرع المؤيد لقضايا العقل»** ولم يمر صاحبنـا دون أن يوفـق بين الحقيقة الشرعية والحقيقة العقلية فى ثنايا كلامه على حقيقة الحقائق كلهـا وهذه النزعة فى بيان الفضائل الخلقية نزعة افلاطونية بدون ادنى شك ، وبها قال الغـزالى فى كتـابه « ميزان العمل » وغيره من الفلاسفة الاسلاميين، وهى النظرية التى انتقدها ابو بكـر بـن العربى (ت ٥٤٣ ه / ١١٤٩) نقدا لاذعا ، ثم جاء من بعده ابن تيمية (ت ٧٢٧ ه / ١٣٢٧) فبين انها يونانية . وان الغـزالى لم يـزد على أن جاء بميزان يونانى ، والبسـه لبـاسا اسـلاميا مكشوفا ، كما فعل بالمنطق اليونانى حيث عبر عنه بمصطلحات عربيـة اسلاميـة وزعم أنه استمده من موازين القرآن . واكبر دليل على ذلك كتابه « القسطاس المستقيم » . وجملة القول أن الكمال الباطنى أو الصفات الخلقية النفسية ، ترجع فى النهاية الى كمال العلم بهذه الاخلاق ، والى كمال القدرة على استخدامها ، والاتصاف بها .

يبنى الدباغ معنى الجمال على معنى الكمال، فيقسم الجمال الى قسمـين : جمـال مطلق وجمال مقيد ، ويوجد هذا التقسيم عنـد ابن الفارض ، فى شعره الصوفى ، وفى شعر غيره

من المتصوفين ، فالجمال المطلق هو الجمال الالهى ، واما الجمال المقيد فهو : « نور قدسى فائض من جمال الحضرة الالهية ، سرى فى سائر الموجودات علوا وسفلا ، باطنا وظاهرا . » وهذا الفيض يذكرنا بفيض افلوطين ، اذ أن هذا الجمال المقيد قد سرى فى اوصال جميع الموجودات عن طريق الاشراق او الفيض وصرح بذلك ابن الدباغ فقال : « فأول اشراق على عالم الملكوت ثم على عالم الجبروت وهو عالم النفوس الانسانية ، ثم على النفوس الحيوانية ، ثم النباتية ، ثم على سائر اجسام العالم السفلى على اختلاف انواعها ، وتباين اجناسها ، فما من ذرة من العالم الا وقد اشرق عليها من هذا النور الالهى ، والجمال القدسى بقدر احتمالها « ولكن هذا الجمال المقيد ينقسم عنده بدوره الى كلى وجزئى ، فالكلى هو ما فاض ، واشرق على سائر الموجودات كما سبق أن اشرنا ، اما الجزئى فهو « نور علوى يسنح للنفس الانسانية ، عند ادراك الصورة الجميلة الحاصلة فى لوح الخيال . المنتقش بقلم الحس البصرى . » فهو جزئى بسبب انه متعلق بصورة جميلة واحدة ، مدركة عن طريق الحس .

ومن جهة أخرى فانه قسم الجمال المقيد الى ظاهر وباطن ، فالظاهر هو جمال الموجودات الحسية ، والباطن هو الجمال العقلى المجرد، وبما أن الجمال نور ، والعقل نور ، فانه لا يدرك النور الا النور ، فالحواس لا تدرك شيئا من الجمال الا مع اشكال الاجسام واوضاعها ، ولذلك فانها لا تدرك الا مظهر الجمال .

اما ذات الجمال فانها ممتنعة عنها ، ولكن الحواس حين تؤدى ما ادركته الى الخيال ، فان النفس تدرك من ذلك روح الجمال مجردا عن اوضاعه ، وعلائقه ، واشكاله ، ولا يدرك الجمال الحسى الا فى صورة أجسام فى غاية الكمال ، فاذا ما وجد لها كمالها وجد الجمال، وان عدم عدم . وانتهى ابن الدباغ الى تعريف للجمال الظاهر فقال : « هو المعنى اللائح على الهياكل الانسانية التى فى غاية كمال الشكل ، وتمام الهيئة » ويتمثل الجمال الباطن فى المعرفة الربانية التى تؤدى الى المحبة الحقيقية ، انه ما تشرق به الانوار الالهية على العقول ، وهذا الوجه من الجمال لا يدرك بالحواس،وانما يدرك بالعقل الصافى فهو جمال يتجلى فى القلب المصقول ، المطهر ، البرىء ، ولا يمكن انكار الجمال المعقول ، كما لا يمكن انكار الجمال المحسوس «ومن انكر اللذات العقلية فقد عدم البصيرة الباطنية كما أن من انكر جمال الصور الحسية فقد عدم البصر » وقد عبر ابن الدباغ عن صور الجمال بتعبيرات أخرى ، وباصطلاحات مغايرة فالجمال الجزئى سماه « عالم حسن الصورة » والجمال المجرد عن عوارض الاجسام عبر عنه « بعالم صورة الحسن » وعبر عن الجمال المطلق بمصطلح آخر هو « الجمال القدسى » . هو الجمال الذى لا يستحقه الا واجب الوجود وبحسب اقسام الجمال انقسم الناس فى ادراكه ، وبذلك ربط بين المعرفة والجمال ، وبين الاخلاق والخير ، فقسم الناس الى عوام ، وهم المرتبطون بالجمال الحسى ، وخصوص وهم الذين ادركوا الجمال الحقيقى، ووصلوا الى الله ، وبين ذلك ، من ادركوا الجمال الظاهر ، المبدد فى سائر الموجودات، ولم يقتصروا على جمال موجود دون موجود ، وهم الذين ادركوا الجمال الكلى ، ولكن ينبغى أن نلاحظ أن ادراك الجمال الحقيقى المطلق ليس مكتسبا للانسان ، ولذلك قال ابن الدباغ: « وهذا عسير جدا لانه ليس من كسب الانسان اذ النفس لا تدرك بمجرد ذاتها شيئا حتى يمدهاالحق بنوره » ان الله هوالذى يهب المعرفة والوجود ، كما أن مثل افلاطون مبدأ للمعرفة والوجود معا ونرى هنا وجه التشابه الواضح بين ابن الدباغ وافلوطين ايضا ، وذلك فى قول ابن الدباغ : « وانما مثلها (النفس) فى ذلك مثل العين التى هى آلة الابصار لا يمكنها الابصار حتى يتصل بها الروح الحيوانى المستمد من القلب ، ثم لا تتبين لها الاشياء حتى يشرق على تلك الاشياء نور الشمس ، فتظهر فى نفسها فيدركها اذ ذاك البصر ، كذلك النفس لا تدرك الامور الروحانية حتى يمدها العالم

العلوى ولا تظهر لها الحقائق حتى يشرق عليها نورالحق القدسى الواجب لذاته، وهذا امر لا يتوصل اليه الا بالتأييد الالهى » ، ولكن يختلف ابن الدباغ عن افلاطون اليونانى الوثنى فى انه يعتبر الجمال صفة من صفات اللـه ، ويبدو انه يرد على افلاطون حين قال : « وأما من احب الجمال واعتقد انه غاية الطلب ، وان لا شىء فوقه اكمل منه ، ولا اشرف ، وجحد رب الجمال الذى الجمال خلق من خلقه — كما يحكى عن طائفة من الكفار — فهذا كافر بالله عابد وثن » فطائفة لكفار عنده يبدو انها افلاطون واتباعه ممن جعل من الجمال موجودا من موجودات عالم المعقولات ، ومثالا من المثل قائما بنفسه **وهو ما انتهى اليه النظر الفلسفى المحض ، فلم يؤله هذا المتصوف المسلم الجمال ولم يجعله ربا من الارباب ، والها من الالهة كما فعلت اساطير اليونان ، ويمكن لمن يهمه ان يقارن بين الاداب ان يلمح من هذا النص ان المسلمين امكن لهم الاطلاع على اساطير اليونان ولكنهم لم ياخذوا بها لتنافيها معالتوحيد الاسلامى .**

فرق ابن الدباغ بين مصطلحات ثلاثة من اهم المصطلحات الجمالية عنده ، وهى الجمال ، والجلال ، والكمال ، وذلك انه اذا تجلى المحبوب بصفات الرحمة ، والعطف والاحسان، مما يدعو للانبساط ، والانس ، فذلك هو الجمال . واذا تجلى بصفات العز ، والقهر ، والعظمة ، مما من شأنه ان يجعل المحب يشعر بالدهشة والذهول ، والضعف حتى تكاد تطمس معالم ذاته ، وتذوب انيته فان ذلك هو الجلال ، اما اذا تجلى له بصفاته الواجبة له من العلم ، والارادة ، والانفراد بالخلق،والغنى المطلق ، فان ذلك هو معنى الكمال .

ومن المعانى الافلاطونية التى اخذ بها ابن الدباغ القيروانى معنى المناسبة ، او المشاركة اذ قال : « وبقدر هذه المناسبة يكون عشق احدى النفسين للاخرى ، اذ تتصور نفس العاشق انها هى المحبوب ، وان ادراكها لمحبوبها هو نفس ادراكها لذاتها ، وهذا معنى الاتحاد » واخذ بنظريه المثل ايضا ، رغم نقد المشائين الاسلاميين لها ، تبعا لشيخهم ارسطو ، كما فعل ابن سينا (ت ٤٢٨ هـ / ١٠٣٧) فى « الشفاء » قال ابن الدباغ : « واعلم ان اصل التآلف ، التعارف الازلى فى عالم الغيب ، فمن تحققت نسبته هنالك ، ظهرت هنا ، اذ العالم الاسفل ظل للعالم الاعلى ، وهذه الاشباح امثلة لتلك الارواح ، فما من صورة فى عالم الشهادة ، الا وهى مثال لذات روحانية ، من عالم الغيب ، فاذا تحركت تلك الحقيقة هنالك ، لزم أن يتحرك مثالها هنا ، كما ان الظل تابع للشخص فى حركته وسكونه ، فالتعارف هنا ثمرة ما هنالك :

بينى وبينك ذمة مرعية . :
بدات هناك وآخرها هنا »

ان الجمال يؤدى الى التآلف ، والى الحب والعشق ، لان الحب متوقف على المعرفة ، معرفة الجمال والكمال ، ان العشق عند ابن الدباغ عنصر كونى يحكم الكون كله ، حتى عالم الجماد ، « حتى نجد هذا التعاشق بين الجمادات ، مثل الحديد ينجذب للمغناطيس ، وعيون الافاعى تنسلب لحجر الزمرد ، والتبر ينجذب للقهربا ، والزئبق لبرادة الذهب»
وهذا اللون من العشق ، نجده لدى المشائين، لان عالم المادة يتحرك شوقا الى عالم الصورة المحضة ، والعقل المحض ، وهو اللـه عند ارسطو ، ولابن سينا رسالة فى العشق ، كما ان ابن الدباغ اشار الى اقوال بعض الحكماء القدماء ونقل نصامنمأدبة افلاطون، وهو الذى سبق ان اشار اليه ابن داود الظاهرى، وابن حزم قال ابن الدباغ : « ان النفوس خلقت شبه دوائر ، وقسمت كل دائرة منها بين شخصين ، فكل واحد فى العالم يطلب الشخص الذى بهتكمل دائرة نفسه » ونجد فى كتابه ايضا ما يشبه ما ورد فى محاورة « فيدر » لافلاطون « ولهذا قالوا : « الاشكال لاحقة بأشكالها » وقالوا : « القلوب تألف من تجانس وشكل الشىء منجذب اليه » كما قيل .

الى الملا الاعلى سموت بهمتى
كذلك شان الشكل للشكل يجنح

بل نجده ينقل قولا لافلاطون ذكر انه قول لبعض المتقدمين وهو :
« العشق جنون الهى » .

ومن جهة اخرى فانه ورد فى كتابه نص ذو مسحة ارسطية وهو قوله : « قال بعضهم : « كل جوهر فى العالم العلوى والسفلى ، اما عاشق واما معشوق » يعنى : عاشق لمن فوقه ومعشوق لمن تحته ، حتى ان حركة الفلك عند هؤلاء عشقية ، فان كل متلازمين فى العالم انما تلازما بأمر عشقى ، كان ذلك ظاهرا ، أو باطنا .

ان المتصوفين امثال ابن الدباغ ينقدون الاتجاه الذى يقتصر على الادراك الحسى ، والادراك الخيالى للجمال ، ذلك ان الادراك عند ابن الدباغ ثلاث درجات : الادراك الحسى والادراك الخيالى ، والادراك العقلى ،فالادراك الحسى أخذ الصورة بحاسة البصر دون تشكل فى الخيال الا بقدر زمان الرؤية ، والادراك الخيالى هو ارتسام صورة المحبوب الذى هو الجميل فى الخيال ، ارتساما ذا نوع من الثبات غير انه لا يلبث ان ينصرم ، ويفنى أو يختفى ، واما الادراك العقلى فهو انتقال صورة المحبوب الى ذات النفس ، مجردة عن العوارض

لذلك أخذ ابن الدباغ فى نقد الادباء الحسيين ، الذين حبسوا انفسهم فى عالم صور الاجسام واشكالها ، وفتنوا بتناسب هيئاتها ، وبجمال المرئيات ورونقها وبدائعها ، فهم عنده عوام المحبين ، قال : « فلذلك نجد ارباب هذه المحبة قد افنوا اعمارهم فى ندب الربوع الدارسة ، والبكاء على الاطلال الطامسة ، والحنين الى عرصات الديار ، والتلهف على الكثبان ، والاحجار ، شوقا الى ربات الحجال ، ووجدا على ذات الخال والخلخال ، فقلوبهم بنار الوجد على المغانى محترقة ، ودموعهم ، اثر الظاعنين مستبقة ، يتزايد وجدهم عند رؤية الهوادج تحملها الجمال ، ويتجدد غرامهم لمعاينة الآثار بين احجار ورمال ، كل هذا من غلبة الوهم والخيال ، فان الوهم يخيل لهم ان عين الجمال المطلوب هو حسن الهيئة الحالة فى الاجسام ، ليس وراء ذلك شىء ، فاستحوذ هذا الوهم عليهم حتى عشقوها ، واتلفوا نفائس نفوسهم فيها ، فأعماهم عشقهم عما وراءها من الجمال الحقيقى ، المتجلى عليها ، الذى هو رسول عالم القدس الى النفوس الزكية . »

ولعل الشعراء الذين طردهم افلاطون من جمهوريته كانوا على شاكلة هؤلاء الشعراء ، الذين نقدهم صاحبنا ابن الدباغ ، لانهم تعلقوا بالخيال ، وتمسكوا بالظلال ، والاوهام ، ولم يستطع الجواد الذى قاد عربتهم من أن ينال جمال الحقيقة الابدية الثابتة ، الذى لا تندرس معالمه ، ولا يغيض ماؤه على مر الزمن .

واذا كان لنا أن نربط مفهوم الجمال عند المتصوفة بمفهومه عند المعاصرين فاننا نجد أن ابن الدباغ يذهب الى أن الجمال ليست له صلة بالنفع بل هو أمر زائد على النفع ، يتمثل فى الانس به ، وفى الاستمتاع او اللذة الروحية قال ابن الدباغ : « ولهذا نأنس بالحيوان ، ونلتذ بأصوات الطيور الرخيمة ، ونستحسن أجياد الظبا ، والحاظ المها ، اكثر من عيون النوار ، وأغصان الاشجار ، ولذلك نجد كثيرا من الناس يحب شيات الخيل ، وتناسب اعضائها ، وهو زائد على المنفعة المرادة منها » بل يذكر لنا أن طائفة من الامم القديمة عشقوا بعض الحيوانات لجمالها فعبدوها ، واتخذوها آلهة « ولهذا نجد طائفة من الامم منشدة افراط عشقهم لجمال الحيوان البهيمى عبدوه ، كما يحكى ذلك عن طائفة من الكفار من جهال الامم ، اذ لم يكن لهم نظر الى صانعها الذى وهبها ذلك الجمال . » بل ان جماعة اخرى عبدت النار وهم المجوس ، وآخرون أحبوا الحجارة وعبدوها وهم الهنود ومن تابعهم على ذلك من الروم والعرب ، وعبد بعض الاعراب الشجر ، ومعنى ذلك ان البدائيين هم الذين يتعلقون بالجمال النافع ويعبدونه ، اما من ترقى ادراكه فانه لا يتعلق الا بالجمال ، من حيث هو جمال .

عمار الطالبى
استاذ الفلسفة بجامعة الجزائر

محمد العربي ولد خليفة

ملاحظات نحو تعريف

الفكر الذاتى

- ١ -

على الرغم من غيوم اليأس والشك التى لفت سماءنا غداة الخامس من جوان ١٩٦٧ وفى زحمة الاعترافات وما تلاها من مراثى «وعكاظيات» يلاحظ المترصد للواقع العربى الراهن خيطا رقيقا من الامل يلوح فى الافق البعيد ... انه مطالع الفكر الذاتى الذى يؤذن بانبلاج ليلنا عن صبح جديد وينبئ باننا على وشك الخلاص من متاهة الخيبة والضياع التى هوم تفكيرنا التقليدى فى مساربها طويلا فما هو يا ترى هذا الفكر الذاتى الذى سوف يصقل أنيتنا ويوقد جذوة الاصالة فيها ؟

لقد عودنا المنطق التقليدى قبل الشروع فى تناول موضوع أن نبادر الى تعريفه وتحديد ماهيته وتصنيفه الى اضرب ثنائيه تتقابل بالتضاد وهى سنة « مدرسية » شغف بها العقل منذ امد طويل ولم يشذ عن هذه القاعدة حتى المحدثون وبعض المعاصرين فنحن لا نكاد نفتح كتابا او نطالع بحثا فى موضوع ذى صلة بشؤون الفكر وشجونه حتى يواجهنا فى الصدارة تعريف جامع مانع يسطر الحدود ويشرع البنود . غير اننا لن نسارع الى صياغة تعريف يحدد المقصود بالفكر الذاتى بقدر ما نعنى بتعرف مواقعه وتتبع مسيرته وتحسس بواكيره ، ولعل مما يسوغ ذلك ان حد الشىء يكون تاليا لمعرفته والالمام بأطرافه وضبط مجال انتشاره .

واذا تفاضينا الآن عن المشاكل التى يواجهها مثل هذا البحث على المستوى النظرى وارتأينا مع كـ . ليفين بأن **النظرية الصائبة هى خير ما يمكن التقدم به الى الحياة العملية وان العلم ليس أكثر من فعل صناعة العلم** » اقول اذا تغاضينا عن ذلك لاحظنا ان السمة الاساسية التى تستثنى الانسان من عالمى الالة الصماء والحيوانات العجماء ، هى الشعور بالذاتية او التفرد فان الانسان كما يقول اريك فروم هو الحيوان الوحيد الذى يستطيع أن يقول انا والذى يستطيع أن يكون مدركا لنفسه بأعتبارها وحدة مستقلة فالحيوان جزء من الطبيعة وداخل فيها وليس له وعى بنفسه وليست به حاجة الى الاحساس بذاتيته اما الانسان فلانه ينفصل عن الطبيعة ولانه يتمتع بالعقل والخيال فهو بحاجة الى تكوين فكرة عن نفسه وبحاجة الى ان يحس بذاتيته .

وادراك المرء لانيته لا يتم بالطفرة اوالقفزة الفجائية بل هو يمر بمراحل يكون — الانا — فى أولاها مندمجا فى النحن غير متميز عنه فلا يتبين الرضيع حدود جسمه والفواصل القائمة بينه وبين ما حوله من اشياء ثم تعقبها مباشرة مرحلة ثانية تتحدد فيها معالم الانا وتصبح الذات وسيلة وغاية فى آن واحد. فكل شىء يدرك من خلالها ويتجه فى النهاية اليها . الا أن انتفاء الذات مثل التمركز حولها لا يحل المشكلة بل يضعها فى صورة اخرى ، فلابد اذن من العودة مرة ثانية الى النحن . ويبدو ، كم وكيف المسافة التى ينبغى ان يقطعها الانا فى اتجاه النحن وكأنها محور الاهتمام وقطب النزاع فى الفلسفة ومختلف العلوم الاجتماعية .

وبدون أن نوغل فى فحص اشكال هذا النزاع ومضامينه التى افتتحها سقراط بمقولته المشهورة ((**أعرف نفسك**)) فان الفكر الفلسفى ما فتئ منذ ذلك الحين يتردد فى التوفيق بين طرفى المشكلة يغريه القالب المثالى الواحد والصورة الثابتة فوق كل تغير ويقلقه التنوع والتفرد الذى تكشف عنه منابع الحياة وتكسوه برونق الجدة والثراء . فلا رضى هذا الفكر بالوجود المجرد فى الاذهان ولا هو قنع بالوجود المشخص فى الاعيان وقد بقيت المشكلة معلقة طوال العصور الوسطى المسيحية فكان السؤال الذى يتردد هو : من نحن ؟ وعند الاجابة يدخل الفرد نفسه فى اطار الطبقة التى ينتمى اليها او الدور الذى يؤديه فىنطاق نظام اجتماعى سرمدى ، وهى كما يظهر نظرة سكونية (ستاتيك) تهيم بالمطلق والثابت وراء العارض والجائز ، فالانسان أكرم المخلوقات وسيدها بيده زمام الكون الذى استخلف عليه ودنياه فى يد ملك قويم واخراه فىحصن الكنيسة الحصين والسبيل الوحيد لنجاحه اليوم وخلاصة غدا هو ان يسلم امره الى سيد يسوسه وينسلخ عن أنيته لتحقيق غاية اعظم هى الخير الاسمى والحقيقة الثابتة .

غير أن هذه النظرة السكونية ومحاولة الالتحام بالنحن تبدو فى تاريخها أسبق من ظهور المجتمع **الاقطاعى** ، فان الانثروبولوجيين يشيرون الى هذه النزعة عند البدائيين الذين يعرفون أنفسهم بالانتماء الى قبيلة او بالولاء الى احد بطونها أو بالاندماج فى فئة من فئات السن فيها وكل خروج عن ذلك يستتبع اللعنة والنبذ ويستحق مقترفه العقاب .



رسل

ولم يكن عجبا والحالة هذه أن يستيقظ الفكر الحديث على صيحة لم يألفها من قبل تقلب النسق التقليدى رأسا على عقب ويصبح الانا فيها مفتاح الطمأنينة وجسر الامان الى الحقيقة ، تلك الصيحة هى المقولة الديكارتية التى رجمت شيطان الشك وفاضت باليقينات من مجرد الوعى بالانية والعودة الى تأمل باطن الذات .

غير أن الانقلاب الديكارتى على الواقعية الارسطية السائجة لم يلبث أن أذعن الى تصورية اعتقادية تسير فى خط مواز لفلسفات الماهية أو النحن ويمكن تعليل هذه الردة بجملة أسباب :

١ — ان التصور الديكارتى للانية لم يكن الا تعبيرا منظما عن المزاج الفكرى السائد فى عصره عندما بدات البرجوازية الاوربية تقتحم الميدان تحمل بيمناها اليسر والثروة وتحمل بشمالها الكفاءة ولم تكن بحاجة الى حذف التصور القديم للانيه بقدر ما هى فى حاجة الى تعديله لتفسح لنفسها مكانا بين صفوف الارستوقراطية المتراجعة على اعقابها فقد اخذ نجم « الدم الازرق » فى الافول . وقد فسر **« كارل مانهايم »** هذه الظاهرة فى مؤلفه الذائع الصيت — **الانسان والمجتمع** — فهو يقول ما مؤداه : اذا استرجعنا الاشكال الجوهرية لانتخاب الصفوات التى ظهرت على مسرح التاريخ الى الوقت الحاضر امكننا أن نميز ثلاثة مبادئ الانتخابات على أساس الدم والثروة والكفاءة لكان المجتمع الارستوقراطى يختار صفواته طبقا لمبدأ الدم اولا وبالتدريج اضاف المجتمع البرجوازى الى ذلك مبدأ الثروة الذى ثبت أيضا بالنسبة للصفوة المفكرة فقد كان التعليم ميسرا لابناء الاغنياء وحدهم ، حقا ان مبدأ الكفاءة قد اقترن أحيانا بالمبدأين السابقين فى عصور سابقة الا انه اليوم يوشك ان يصبح معيار النجاح الاجتماعى فى الديمقراطية الحديثة .

وبذا كتكون عند ديكارت تلوينا خادعا لنفس الصورة التقليدية اذ لم تكن فى الواقع سوى منفذا مفتعلا وحلا مؤقتا يعيد الذات الى غياب تمقمها القديم .

وكأنى به يقول فى النهاية على لسان سلفه الصالح افلاطون الحمد لله الذى جعلنى انسانا لا حيوانا واغريقيا لا متوحشا وسيدا لا عبدا ...!

٢ — يتضمن الانا عند ديكارت بعدين فحسب هما الذات والفكر فهو كلما شك أدرك أنه يفكر ولا ريب أن الذى يفكر هو حتما ذات موجودة غير أن هذا الكشف لا يعطى للذات صفة التفرد الخلاق الا اذا أضفنا اليه بعدا ثالثا هو العمق او الشعور اذ أن الاقتصار على التصور الثنائى الديكارتى يجعل الانسان كائنا وسطا بين الالات والعجماوات يشبه الاولى عند تلقيه المثيرات ويقترب من الثانية عند الاستجابة لها .

ان حذف الحد الاوسط أو العمق يلقى بنا فى غمار النزعة الميكانيكية الفجة التى طاب لها أن ترى فى الانية مجرد تلقى وارجاع آلية حقا ان المعرفة امتداد للحياة عبر الزمان والمكان امتداد يكتسب لونه ومذاقه من التنظيم الحيوى الذى يعطيه وهو الذى يسبغ عليه تلك الشحنة الذاتية التى نسميها الخلق والابداع ولذلك ينبغى القول مع بياجيه ان الذات والفكر لا يستوفيان وحدهما أبعاد المنظومة الانيه **الا اذا توسطهما** العمق وبذلك يضاف الى الصورة الثنائية للمثير والاستجابة بعدا ثالثا هو التمثيل بالشكل التالى :

مثير تمثيل — **استجابة أو (ر — ا — س)**

واذا كان ديكارت قد قرع باب الانيه دون أن يلجه فان مفكرا آخر قريب العهد به قد أحس أكثر بوطأة المشكلة فاضطرته لوقفة أطول انه فيلسوف ألمانيا جوهان جوتلب فيشته (١٧٦٢ — ١٨١٤) الذى سجل موقفه فى مؤلفه غاية الانسان (١٨٠٠) الذى صاح فيه بذاته قائلا : **تكلمى أيتها الروح العجيبة فمهما كنت سأنصت أسالى وسأجيبك**
وكان الجواب ذا حدين أولهما يمركز الانا ويعطيه القوة **الباطنية** وثانيهما ينتشل — الانا — من التمركز ويوجهه نحو المحيط بدون أن يخرج عنه أو بمعنى أوضح ان الانا يكافح سلبيته بالارادة وعندئذ تتحد الشحنة النفسية أو التجربة المباشرة للذات بصفتها المنطقية .
فيجيب فيشته عن سؤال تطرحه عليه الروح مؤداه : كيف وعن طريق اى شىء تعرف أنك متأثر ؟ قائلا : « والانا هو الذى يجيب » يصعب على أن أجد تعبيرات استعين بها فى اجابتى لان وعيى باعتبار أنه ذاتى وباعتبار أنه تعين للانا فى حدود كونى كائنا عاقلا على العموم يقع مباشرة على هذا التأثير كما لو كان يقع على شىء يعيه أصلا ويتحد به بطريقة لا تقبل الفصم والحقيقة أنه لا يحدث فى الوعى بصفة عامة الا اذا وصل الى هذا التأثير ومعرفتى لهذا مماثلة لمعرفتى للانا .
لقد تصور فيشته الانية على أنها احتكاك بين الانا واللاانا يحدث جزء منه فى الباطن لكن أثره لا يرى الا فى الاطراف وهو بذلك قد « ابتلع » أناه وسار بطريقته الخاصة فى ركب الديكارتية وغمرته الكانطية ، فأخذت بلبه النزعة التوفيقية فى الفلسفة النقدية ، فسجد فى محرابها ولم يجد بدا من اعطاء الانا دور التركيب القبلى لكل ما يدرك فى نطاق الزمان والمكان غير أنه **لم يال جهدا فى اطلاق العنان الذات لتعطى أكثر مما تأخذ وتبذل أكثر مما تتلقى ولعل هذا ما جعله ينكر على معاصره العملاق عما نويل كانط تصوره للواجب على انه تقبل الامر الواقع والسير فى ركابه اذ ليس فى الامكان أحسن مما كان ، فلا يكون الانا عند فيشته حقيقيا الا اذا كان فعالا مناضلا ، كما أوضح ذلك فى خطبه النارية الى الشعب الالمانى .**
وعلى أى حال كان لا بد من مضى زهاء قرن يطوف فيه الفكر بهذه المشكلة ويتصورها فى أوضاع مختلفة لا تخرج فى مجموعها عن حلقة مفرغة يتجه الفكر نحو الانا بقدر ما يتراجع عنه فكان أشبه براكب الارجوحة يندفع الى الامام بقدر ما يتقهقر الى الوراء ولا يمكن تفسير هذه الظاهرة خارج التنظيم الاجتماعى الذى ساد فى أوربا منذ القرن السابع عشر حتى مستهل القرن العشرين الذى دار فيه صراع مرير لا هوادة فيه بين مبادئى الدم والثروة والكفاءة بين الارستوقراطية والبرجوازية « والقطيع » بين الفردية والتفرد والتجانس والفجوات الكامنة بينها .

وقد حدد **هارولد لاسكى** معالم هذا الصراع فى حديثه عن نشأته التحررية الاروبية : ان البرجوازية التى أخذت معها وهى تتقدم أفكارا ومبادىء لم تكن تقصد تشجيعها أنها فى حاجة الى دولة زمنية متسامحة ولكى تصل الى هذا النوع من الدولة كان عليها أن تهدم بناء الوحدة اللاهوتية الذى كانت تقوم عليه . والذى انبعث من زواله البطيئى الدولة العلمانية ولكى يحقق البرجوازيون هذه الازالة كان عليهم أن يقبلوا فلسفة جديدة تقضى فى النهاية على المبادئى الدينية التى يعتنقونها والتناقض بين (باكستر) و (هوبز) وبين (ديكارت) و (بوسويه) حاسم فى هذا المجال . ان البورتيانى والكاثوليكى يتلهفان مثل رجل العصور الوسطى لوضع حدود لبحث العقل ولامبراطورية الاشياء الارضية ان كلا منهما يدرك نصف ادراك أنهما يقومان بمهمة مستحيلة فالفيلسوف الكاثوليكى والانكليزى المؤمن بالله دون الوحى قد يقبلان الواجب التقليدى لزمنهما ، وقد يكونان حذرين او حتى خائفين فى طريقة تعبيرهما ولكن كلا منهما ذاك واجهة نصف تقليدية مفتون فى الواقع بالشعور بأمبراطورية لا حد لها للعقل تصنع من الفرد سيدا لهذا العالم ، بالبحث لا بالوحى وببحث النفس لا بالايمان . وكان

فيلسوف العصر لا يقل عن رجل الاعمال ادراكا للقوة التى يمكن أن يصل اليها وهو يعرف ايضا أن شرط الوصول اليها هو أن يترك وشأنه ان الفردية الاقتصادية لاحدهما تناظر الفردية العقلية للاخر .

وفى ظل هذا الوضع بلغ التفاؤل أقصى مداه ورضيت مختلف الفلسفات بما غنمته فى هذه الجولة التى أصبحت فيها المعرفة خادما للثروة والثروة حامية للذات وبذلك قدم التفرد قربانا على مذبح الفردية .

وما ان لاحت تباشير هذا القرن حتى اتضح أن هذه النزعة قد ضلت سواء السبيل وان أملها لم يكن أكثر من وهم باطل يحمل فى طياته الخيبة والضياع وكان عليها ان تختار أحد اتجاهين فهى اما أن تضرب عن الفردية صفحا وتولى وجهها شطر طريق آخر واما أن تغرق فيها وتتعلق بأهدابها طلبا للانية وهو ما حاولته الوجودية بمختلف اتجاهاتها التى رفضت علم النفس التقليدى الذى يضحى بالفرد فى سبيل النوع ويتلهف لصياغة قوانين عامة تذوب فيها الذاتية وتتلاشى الانية ولتحقيق ذلك لا بد من الانكباب على المشخص والفردى فى انفسنا اى أن نبدأ بالفينومونولوجى فيها فنصف الوقائع الوجدانية التى تكابدها الذات والخلجات الباطنية التى لا تنالها مناهج علم النفس ووسائله العتيقة يقول — لويس لوفيل — فى تقرير هذا المبدأ الذى يتفحص الانية من الداخل ما مؤداه : **ان الفلسفة لا تخترع شيئا وهى فى كل واحد منا ذلك الوعى بالوجود وبالحياة هى ذلك المجهود الفكرى الذى نحاول به أن نصل فى أعماقنا الى منبع وجود يبدو أنه فرض علينا فرضا دون أن نستشار فيه والذى نقبل رغم ذلك أن نتحمل أعباءه** ، ان هذا الوجود الذى قد يعرف كل آلام الوحدة والعزلة هو فى حاجة الى العالم كله لكى يستند اليه ويدعم به انه فى علاقة مع كثير من الموجودات الاخرى هى علاقة تبادل لا ينقطع من اللذات والجروح تحاول أن تقبض على ناصية الواقع من الداخل بواسطة فعل من افعال المشاركة الوجدانية الحية بدلا من أن تعطينا عن الواقع منظرا خارجيا نكون نحن انفسنا عنه غائبين .

فالانية اذن ليست اكثر من فعل يتقدم يضمنه دوا م الاختيار ويجذبه سراب الحرية التى يشيدها ذلك الفعل بالانخراط فلا تذعن الذات لمسلمات العقل ولا للقيم المفروضة عليها بل عليها ان تسير فى ليل حالك وتكتشف طريقها خطوة خطوة وتتحمل فى سبيل ذلك وحشة الوحدة ومغبة العثرات وفى نهاية المطاف لا تجد الذات ضالتها لان الطريق طويل يستغرق العمر كله وقد تصادف فى احد منعرجاته الموت فيطويها العدم لقد جعلت هذه النزعة الانية مطلبا يتحقق بالموت أى لكى يتحقق ينبغى ان ينعدم ويزول فكان الانسان هنا اشبه بدابة علق علفها امام انفها فهى تشم رائحته ولكنها لا تزال تطلبه حتى تهلك جوعا .

ان الانية الوجودية وليدة الازمة التى اناخت على اوربا غداة الحروب الطاحنة التى شهدت ضراوتها وويلاتها لاول مرة فقد كانت الحروب السابقة كما يقول سترنبرغ ما عدا الحرب السبعينية (١٨٧٠ — ١٨٧١) قد نشبت كلها « خارج حدود العالم الاوربى المتحضر » وكانت الفكرة السائدة أن الحرب بين القوى الصناعية الكبرى امر مستحيل ومن هنا كانت الحرب العالمية الاولى مفاجأة مؤلمة للملايين من الاوربيين واتضح للمفكرين بالدرجة الاولى انهم يعيشون فى عالم هش سريع الانهيار ولا سبيل لاصلاح شأنه الا بالالتفات الى الوجود الذاتى والمجاهدة فى سبيل تحقيقه وراء القيود وعبر السدود .

ان فكرة الخلاص المسيحية تعود مرة أخرى وتجد أصداءها العميقة فى الانية الوجودية ولكنها فى الواقع فكرة جوفاء ترمى الانا فى صحراء قاحلة لا مسالك فيها ولا دروب لا يجد فيها واحة الامان الا بعد أن يخر صريعا وتحرقه الرمضاء .

ولعل هذا الطريق المظلم المسدود هو الذى جعل راسل فى حديثه عن المجتمع القادم يرسم صورة أخرى فيها ومضة أمل تخترق سحابة الياس وشعاع يتلوى خلف حجب الحيرة فالعالم الذى نعيش فيه فى رأيه — عالم تبرز امكانياته أكبر الامال وأبشع المخاوف بدرجة



متساوية والاحساس بالمخاوف منتشر جدا ويعمل على خلق عالم كئيب غير مطمئن أمـا الامال فلانها تحتاج الى خيال وشجاعة فهى أقل وضوحا فى عقول معظم الرجال ، وهى تبدو خيالية لا لشىء الا لانها غير واضحـة وليس هناك ما يعترض الطريق سوى نوع من الكسل العقلى فاذا تغلبنا عليه فان الجنس البشرى لديه السعادة فى متناول يديـه .

لقد اشتبك الفكر الاروبى مع ذاته فى مواقع كثيرة خرج منها فى كل مرة وهو يجرر أذيال الخيبة لقد كان يبتعد عن فهم الطبيعة الانسانية كلما امعن فى الغوص فيها ، ولا يمكن فهم هذا الفشل الذى جعل عضلاته تتضخم وقلبـه يضمر خارج الشروط النفسية والاجتماعيـة التى نما فى ظلها وترعرع .

وهذا التأويل لا يخل بالموضوعية فالعقـل نعمة ونقمة فى آن واحد تمتد بدرجة متساوية الى العالم المادى والانسانى فهو يتعامل مع جزئيات الاشياء مثلما يتعامل مـع المـوقف الايكولوجى بأجمعه ولكى يدخـل فى علاقـة مع التنظيم الاجتماعى لابد ان يدخـل بادئ ذى بدء فى علاقة مع نفسه اى أن يعى ذاتـه وبالتالى فان الفكر وحدة تتعمق مع الاشياء والاشخاص والعلاقات بمنظور واحد تختلف عدساته ولا يتغير جوهره الا ان كل ذلك لا يمنعنا من القول مع — مانهايم — بأن ادراك العلاقة بين الفكر ومحيطه الاجتماعى وبؤرته النفسية ، « لا ينقص مطلقا من قيمة الفكر أو المعرفة فى حد ذاتها » ولا يقلل مـن فاعليـة الافكار أو يحد من وظيفتها اذ أن اعتبار الافكار حقائق مجردة ومعلقة مستقلة عن معطيات الزمان والمكان قد يؤدى بنـا الى مخاطـرة تعيدنا مرة أخرى الى المفهوم السكونى وتجعل الفكر أشبه بشجرة برزت عروقها من الثرى فانقطع عنها الغذاء وحرمت أسباب الحيـاة والنمـاء .

* * *

لقد أسالت هذه القضية الكثير من المـداد وتقارعت فى معمعتها الاقلام وليست هـذه الجولة الخاطفة أكثر من قفز حثيث بين القمم والان يمكن أن نستعيد السؤال الذى صدرنا به هذا الحديث ولكى نتمكن من الاجابة لا بد أن نتفحص على ضوء ما سبـق محتويـات الواجهة التى طالما عرضها فكرنا التقليـدى لنتبين ما تعج به خليفتها من وهج الاصالـة أو بهرج التبعية والاستلاب لقد أتى على هذا الفكر حين من الدهر استمد فيه حقائقه مـن مالا مآخر غريب من ذاتيته يكن له فى أعماقه حنينا ممزوجا بالرهبة والاستسلام . فـاذا نطق جاك بيرك فذلك هو الحق المبـين واذا صرح سارتر أو كتب ماركوز فذلك هو القول الفصل ولم يبق سوى الشرح والتأويل والتهليل والتكبير ، لقد بقى ابن خلدون نشازا فى عصره مغمورا فى العصور التى تلته حتى قيض الله له رجالا من الغرب وعندئذ فقط أنكب عليـه القوم نهشا ومضغا فأصبح بـين عشيـة وضحاها شيخ المؤرخين وامـام المفكـرين الاجتماعيين فان كارل فينشر وكومت ودور — كايم ومن لف لفهم ليسوا أكثر من حجاب على بابه **ألم يكن تراثنا الحضارى كله بالامس القريب نسيا منسيا يزدريه البعض ويعتكف البعض الاخر فى صومعته حتى بعثه مـن سباته ونفض رفوفه سدنة العلم الاشداء ! لقد غرق هذا الفكر التقليدى فى التبعية الـى الاذقان فالهاه الانبهار عن ذاته فاخذ يضرب فى كل اتجاه ويغير الاقنعة والمساحيق وبعـد أن أعياه التوهيم وجد نفسه لا هو هو ، ولا هو غـيره .**

محمد العربى ولد خليفة
استاذ علم النفس بجامعة الجزائر

ان مبدا الاجتهاد يحث عليه الواقع الانسانى فى الحياة ، وهو مبدا مقــرر فى الشريعــة الاسلامية السمحة .

نشأة المدارس الفقهية في الإسلام

د : عبد القادر زبادية

تنصرف كلمــة (**الفقــه**) فى اللغة للدلالة على معنيين ، يوجزهما الشريف الجرجانى فى كتاب (التعريفات) بقوله : الاول : ــ مطلق الفهم ، يقال فلان ، يفقه الخير والشر ، اى يفهمه . والثانى : ــ فهم غرض المتكلم من كلامه ، وهو اخص من المعنى الاول .

ويذكر الباحثون أن كلمــة (فقــه) قد ورد ذكرها فى القرآن الكريم عشرين مرة ، أما فى مصــادر التشريع الاخرى ، فقد ورد ذكرها كثيرا ، وفى كل ذلك كانت الدلالة منها تنصرف الى مصطلح اخص ، يعنى به مــادة الاحكام الدينية والاحاطة بها ، ســواء ما تعلق منها بالعبادات أو المعاملات او السلوك الخلقى المنسجم مع روح الاســلام .

ويتفق الباحثون فى تاريخ الفقه الاسلامى على أن الفقه بهذا المعنى نشا من الحاجة الى حل المشاكل التى تعترض الناس ، سواء فى حياتهم العملية او فى أمور ممارستهم لفروض العبــادة . وكانت نشأته تستند الى اعتبار

مبدئى يتعلق بحقيقة الاسلام ، من حيث كونه دين شمول ، لا يقتصر على أمور العبادات وحدها ، وانما يتسع للمعـــاملات وضروب السلوك التى لا مندوحة للفرد عنها أثنـــاء احتكـــاكه بالآخـــرين من أبناء مجتمعـــه أو الغربـــاء عنه .

والنقطة التى ينطلق منها وجود الفقـــه الاسلامى منذ البداية ، كانت تجد مظنة لها فى أن مصادر التشريع الاساسية لا يمكن أن تحتوى من التفاصيل ما يغطى كل القضايا ، وانما تحتوى منها فى الغالب الادلة العـــامة فقط . ومن هنا فان لفظ (الشريعة) هو أعم من لفظ (الفقـــه) ، والفقه ما هو الا جزء متعلق بهـــا .

وبالنظر الى أن الفقه ينصرف مدلوله العام الى القضايا التفصيلية المتعلقة بالشريعة ، فانه كان قد وجـــد منذ البداية ، وفى أيـــام الرســـول صلى اللـــه عليه وسلم بالذات . ومع نشوء الفقه ، ظهرت الملامح الاولى لما يسمى بـــ (المـــدارس الفقهيـــة) فى تاريخ التشريع الاســـلامى ، ولا يعنى بالمـــدارس الفقهية الاختلاف أو التباعد بينها ، وانما يعنى بها الطرق المتبعة من قبل الفقهـــاء فى تفريع المسائل واستخراج الاحكام لها .

ويذهب جل الباحثين فى هذا الموضوع الى حصر جميع المدارس الفقهية فى فئتين اثنتين ، همـــا :

١ ـــ مدرســـة أهل الحديث ،

٢ ـــ مدرســـة أهل الراى .

أما مدرســـة أهل الحديث ، فطريقـــة أصحابها فى العمل ، هى أنهم يلتزمون بمنطوق النصوص الى حد كبير ، ولا يجيزون لانفسهم الاجتهـــاد فى توسيع مدلولهـــا الا فى نطاق ضيق جـــدا .

وأما مدرسة أهل الراى ، فان أصحابهـــا يلتزمون أيضا بالنصوص ، ولكنهم أكثر من غيرهم اقتناعا بفـــائدة التوسع فى مدلـــول النصوص وتفريع المسائل عنها .

واذا كان الفرق دقيقا كما نرى بين طريقتى أصحاب المدرستين ، فان مما يجب أن نلاحظه فى هذا الصدد ، هو أن أصحاب المدرســـة الاولى ، قد ظل وجودهم مرتبطا بالحجاز أكثر وبيئة الحجاز بقى نظام العيش فيها يتســـم بالبساطة ، ومعظم المشـــاكل التى تعترض حياة الناس بها كانت قد وجدت لها الحلول المناسبة فى الغالب منذ أيام الرسول صلى الله عليه وسلم . أما أصحاب الـــرأى ، فان مدرستهم قد ارتكز وجـــود رجالها غالبا فى الامصـــار أى خـــارج اقليم الحجاز ، حيث ملتقى الحضارات القديمة واحتكاك الشعوب التى كانت تختلف مشاربها فى الماضى .

ومن هنا ، فان البيئة كا لها دور هـــام فى طريقة كل من المدرستين ، وأن الاساس لكل منهما كان قد وجد منذ أيـــام التشريع الاولى ، بكل تأكيد . ففى أيام الرسول صلى الله عليه وسلم ، كان التنزيل هو المعول عليه بالدرجة الاولى ، فى حل المشاكل التى تعترض حيـــاة المسلمين ، وكان المسلمون كلما أعوزهم الامر الى معرفة حكم اللـــه فى شىء ، هرعوا الى الرسول صلى الله عليه وسلم ، فكان اما أن يلبى حاجتهم فى الحال ، أو يستشير أصحابه ويأخذ برأيهم ، ثم ينتظر التنـــزيل ، أو أنه يجتهد رأيه وينتظر التنزيل .

وبما أن الرسول صلى اللـــه عليه وسلم قد عمل بكل هذا ، فان فى عمله ذلك ، البذرة المثمرة الاولى ، لكل من تينك المدرستـــين الكبيرتين فى الفقـــه الاســـلامى .

وتتمثل أمامنا تلك الاسس التى اختطهـــا الرسول بنفسه ، فى أن النصوص هى المعول عليها بالدرجـــة الاولى ، غير أنه فى حـــالة وجودها بشكل شديد الاختصار مثلا ، أو عدم وجودها بالمرة ، فان على المتفقهين فى الدين أن يبذلوا جهـــدهم فى تفـــريع الاحكـــام من النصوص بشكل تكون فيه الاسبـــاب والعلل واضحـــة فيما يتعلق باستنادها الى حكـــم شرعى عـــام .

والثابت أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يعمد الى تشجيع أصحابه على مثل هذا الاجتهاد ، وقد فعل ذلك فى عديد من المرات ، وكان هدفه من ذلك ، أن يعودهم على حـــل المشاكل التى قد تبدوا أمامهم ، وما أكثرها ، على ضوء الاحكام العـــامة فى الاســـلام

ومن امثلة ذلك ، ما روى، من ان الرسول صلى الله عليه وسلم حين هم بارسال معـــاذ بن جبل الى اليمن ،، قال له : كيف تفعل ان عرض لك قضاء ؟ قال : اقضى بما في كتاب اللـــه . قال له : فان لم يكن في كتاب اللـــه ؟ قال : فبسنة رسول الله . قال له : فان لم يكن في سنة رسول الله ؟ قال اجتهد رايي ، لا آلو . ثم ذكر معاذ بعد هذا ، أن الرسول صلى الله عليه وسلم ضرب على صدره قائلا : « الحمد للـــه الذي وفـــق رســـول اللـــه ، لمـــا يرضى رسول اللـــه » .

وفي مناسبة اخرى ، دفع الرسول صلى اللـــه عليه وسلم عمرو بن العاص ليفتـــي بحضرته في نزاع كان قد رفع امره الى الرسول بحضـــور ابن العـــاص . وقد استنكف ابن العاص على ان يقضى بين الناس في حضرة الرسول قائلا : اجتهد وانت حاضر ؟! فقال له الرسول : « نعم ، ان اصبت فلك اجران ، وان اخطأت فلك اجر » . وكان سعد بن معاذ الصحابي المعروف ، قد اجتهد رايه في قضية بني قريظة ، فقال له الرسول : لقد حكمت فيهم بحكم اللـــه . اما على بن ابي طالب رضي الله عنه فقد روى عنه وكيع في (اخبار القضاة) أنه قال : بعثني النبي صلى الله عليه وسلم الى اليمن ، فأزبى قبائل الناس زبية الاسد ، فأصبحوا ينظرون اليه وقد وقـــع فيها ، فتدافعوا حول الزبية ، فخر فيها رجل فتعلق بالذي يليه وتعلق آخر بآخر ، حتى خر فيها أربعة ، فجرحهم الاسد ، فتناوله رجل برمح فطعنه ، وأخرج القوم منهـــا ، فمنهم من مات ومنهم من جرح وهو حي ، فماتوا كلـــهم ، فقالت قبائل الثلاثة لقبيلـــة الاول : هاتوا دية الثلاثة ، فانه لولا صاحبكم لم يسقطوا في البئر ، فقـــالوا : انما تعلق صاحبنا بواحد ، فنحن نؤدي دية واحد ، فاختلفوا حتى أرادوا القتال بينهم .. فأتيتهم ، فقلت : اتريدون ان تقتلوا انفسكم ورسول الله صلى الله عليه وسلم حـــي ، وانا الى جانبكم ؟! انـــي قاض بينكم بقضـــاء ، فان رضيتموه فهو نافذ بينكم ، وان لم ترضوه ، فهو حاجز بينكم ، فمن جاوزه فلا حق له ، حتى نأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهو اعلـــم بالقضاء منـــي ، فرضوا بذلك ، فأمرتهم أن يجعلوا دية من الذين شهدوا البئر ونصف دية وثلث دية وربع دية ، فقضيت أن يعطى للاسفل ربع دية ، من اجل أنه هلك فوقه ثلاثة ، ويعطى الذي يليه الثلث من اجل أنه هلك فوقه اثنـــان ، ويعطى الذي يليـــه النصف ، من اجل انه هلك فوقه واحد ، ويعطى الاعلى الذي لم يهلك فوقه احد الدية ، فمنهم من رضي ، ومنهم من كره ، فقلت : تمسكوا بقضائي ، حتى تأتوا رسول اللـــه صلى الله عليه وسلم .. فوافوه بالموسم ، فلما قضى الصلاة ، جلس عند مقام ابراهيم فســـاروا اليه ، فحدثوه بحديثهم ، فاحتبى ببرد عليه وقال : انى اقضى بينكم ان شاء الله فقصوا عليه القصة، فأجاز رسول الله القضاء كما قضيت بينهم . اهـ .

ومن كل ما سبق ذكره ، فلعلنا نستطيع أن ننتهـــي الى عـــدد من النقاط التي كانت بمثابة الاسس الاولى التي ارتكز عليها وجود المدارس الفقهية الاولى وهي :

١ — ان النصوص لا يمكن أن تتوفر بشكل يحتوي التفاصيل لحـــل جميع القضايا التي يتعرض لها الفرد والمجتمع في الحياة ، ولكنها تحتوي على المبادىء العامة ، وهذه المبادىء يستطيع المتفقهـــون أن يفرعـــوا عنهـــا ويستخرجوا منها حلولا للقضايا الجزئية ، وهو ما يسمى بالاجتهـــاد .

٢ — ان مبدأ الاجتهاد يحث عليه الواقع الانســـاني في الحياة ، وهو مبدا مقـــرر في الشريعة الاســـلامية السمحة .

٣ — وبالنظر لما سبق ، فقد بدأ الاجتهاد لاستنباط الحلول المناسبة لمشاكل الناس في أيام الرسول صلى اللـــه عليه وسلم ، وكان في ذلك البـــذرة الاولى ، لنشـــأة الفقـــه ، ولنشأة المدارس الفقهية الاولى . أما عن تطور تلك المدارس ، فذلك مما سنتعرض له في مقال قادم بحول اللـــه .

ــ د . عبد القادر زبادية
استاذ التاريخ بجامعة الجزائر

طرق تكييفها ومناهج تعليمها

لقد اثار منذ زمان بعيد جماعة غير قليلة من المربين والادباء مشكلة تبسيط النحو العربى على الخصوص ، وتكييف اللغة على وجه عام ، ثم اصلاح تعليمها من جهة اخرى. وتعددت المحاولات للحصول على اللغة المثالية والمناهج التربوية الناجحة رغم النية الطيبة التى كانت تحفز هؤلاء المجددين ورغم جهودهم المحمودة لحل هذه المشاكل الخطيرة كانت النتيجة ضعيفة المفعول قليلة الفائدة . والذى يبدو لنا ان هذه الجماعة من المصلحين كانوا يعملون بغير عقيدة تماما او عقيدة غير منبثقة من الواقع وبدون علم سابق بما يرجع الى نواميس التطور اللغوى واسرار النظام الذى بنيت عليه الالسنة البشرية .

عبدالرحمن حاج صالح

واكثرهم ذهب مذهب المقلد غير المتروى . فمنهم من يظن مثلا ان النحـو الـذى اتخذه الاوربيون لتدريس لغاتهم صالح ايضا للغـة العربية لا لشىء الا لانه يدرس فى بلدان راقية ولانهم وجدوا بعض الشبه بين المفاهيم النحوية والحال ان هذا النحو الذى وضعه اليونانيون للغتهم وقد اقتبسته روما وانتشر بعد ذلك فى اوربا كلها ــ قد عابه كل العلماء الغربيين فى زماننا وما راوا فيه كبيـر فائدة بالنسبة الى اللغات الاوربية الحديثة وخصوصا بعـد ما حصلوا على هـذه الحصيلـة العظيمـة من المعلومات اللغوية الدقيقة بفضل تقدم العلوم اللسانية فى القرن العشرين . ورغم ذلـك فان المجددين العرب اخذوا يستوحـون من كتب النحو المدرسية الجارية استعمالها فى الغرب (١) بعض المفاهيم ظنا منهـم ان هـذا احدث ما توصل اليه العلم الحديث فراحوا يستبدلون اصطلاحا بآخر كاستبدالهم كلمة « مفعـول » بكلمة « تكملة » وتركوا المشاكل الحقيقية على ما كانت عليه فبقيت الى ايامنا هـذه بدون حل .

وهذا الذى قلناه من التقليد نقوله ايضا عما اتسمت به حركة التاليف والترجمة فى موضوع اللغة من نزعـة غربيـة . فـقد روج بعض المؤلفين العرب فى زماننا هذا آراء ونظريات ومعلومات شتى تخص قضايا اللغـة والشىء الغريب ان هذه المعلومات النظرية ترجع كلها الى ما لا يقل عن نصف قرن ، راجت فى أوساط اللغويين الغربيين ثم تعداها العلماء وتداركوا ما فيها من نقصان او فساد منهجى او غير ذلك من النقائص وما كانت الا مرحلة من مراحـل التطور العلمى فاتخذها العرب فى زمـاننا هذا ــ اى فى النصـف الثـانى مـن القرن العشرين ــ على ما كانت عليه ابان ظهورها وشيوعها وقدموها لجمهور الدارسين على ان ان هذا ايضا احدث ما توصل اليـه العلـم الحـديث (٢)

وزاد الطين بلة ان الهيجان العاطفى الذى تصطبغ به غالبا الاعمال العشوائية صار كانه مشروع بمبداين : الدعوة العامة الى التعريب وقضية استعجال الحلول وايجاد الوسائل . فهذان المبدآن لا ينازع فى صحتهما احد مـن الناس . الاول مبدأ شريف الغاية بل هو ما يصبو اليه جميع العرب والثـانى معقول لان موكب الحضارة والعلم لا ينتظر المتخلفين . الا ان الغاية والوسائل شيئان مختلفان . فاننا بالنسبة الى اللغة العربية فى حاجة مسيسة الى عقيدة علمية سليمةومؤاتية لعصر الرحلات الفضائية والالات الالكترونية . فان هذه العقيدة ينبغى ان تعتمد على الواقع المشاهد، المعنوى والمادى منه ، اعنى بذلك نزعـات الشعوب العربية العميقة من جهـة ومن جهـة اخرى الامكانيات الجبارة التى تكسبهـا فى الوقت الراهن العلوم الحديثة وتكنولوجية هذا النصف الثانى من القرن العشرين .

فاما النزعات وما تصير اليه الشعوب اثناء تحولها الذى نشاهده الان فهذا حقيق بالدراسة

---

(١) نخص بالذكر النزعـة التاريخية التطويرية التى اتسمت بها العلوم الانسانية فى القرن التاسع عشر فى اوربا ، فقد كان علمـاء فى ذلك العصر يرجعـون كل موقف العلماء اليوم وبين اولائك الباحثين من النظرة غير التاريخيه من هى صانحة للبحث العلمى . وهيهات بين العلماء اليوم وبين اولائك الباحثين من النظرة التاريخية البحتة .

(٢) ونعنى بذلك العلم الذى ماله العمل والانجاز وهويسبق بالضرورة كل عمل مفيد او يقترن به ، ولا نعنى العلم كما يتخيله بعض العلماء « الشعراء » الذين دعوا الى العلم من اجل العلـم . فهذا من تركـة الثقـافة اليونانية الارستوقراطية .

لانه يمكننا من ان نستنبط من ملاحظاتنا لهعددا من الثوابت او كما يسميه قدامى علمائنا بعض ((الاصول المستمرة)) تشبه شيئا ما القوانين الطبيعية وعليها نستطيع أن نعتمد فى تخطيط عمليات التعريب لان جهلها يؤدينا الى التعارض والتناقض معا فالاليق بنا أن نكشف عنها ثم نسخرها طبقا لاهدافنا .

اما العلم الحديث فلا يمكن ابدا ان يتجاهله اى واحد فقد غـزت الفكـرة العلمية جميع المفكرين وجميع الميادين وتبوأت مكانها فى جميع المشاريع الاجتماعية والاقتصادية فلا سبيل ابدا لردها . واعنى بذلك فكرة الباحث المعاين المستنبط القائس الذى لايترك اية جهة مـن جهات نشاطه عرضة لخطر الحكم الـذاتى ولا يسمح ابدا لنفسه ولا لغـيره بالتسـاهل فى احكامه ومقاييسه . هو الذى يتشدد فى تطبيق مبدا الاجتهاد المتواصل كما فهمـه العرب فى القديم . هو الذى يتحرج من المجازفة فى القول ولا يتحرج من قلب الاوضاع النظرية اذا اقتضى الحال وايقن بالدلائل القاطعة انه لابد من ذلك . هو الذى يرى انه قد يضطر الانسان الى هدم ما كان قد ابتناه غيره ولكن يرى مع ذلـك ان الهدم اسهل بكثير من البناء وان كانت العمليات الهدامة قد تحتاج الى ايمان راسخ واعمـال جدية فان البناء يحتاج الى علم ومهارة وفطانة وكفاءة زيادة على الايمان والعمل الجدى

فخلاصة القول أن ما يجب اعتقاده برسوخ هو ان الوسائل لبلوغ اهدافنا لابد وأن تكون علمية بحتة (٣) لا عاطفية ديماغوجية لانه اذا جاز للاهداف ان تصطبغ بالعاطفة فهـذا لا يضرها لانها الدافع والمحرك . اما الـوسائل واساليب العمل فانها لا تنجح ولا تبلغ غايتها الا اذا كانت موضوعية لا خيالية رومانتكية .

ان الغاية التى ينشدها كـل عربى هى ان تكون اللغة العربية مثل اللغات الاوربيةالراقية على الاقل او مثل ما كـانت عليـه فى زمان ازدهار الحضارة العربية ومعنى ذلك انه لابد من أن تكون :

— فى **متناول الكافة :** من خواص وعوام والا تخص طبقة دون طبقة وهذا يقتضى قـابليتها للنشر فى المصانع والمعامل الكبرى .

— **أداة تعبير عن جميع الاشياء وفى جميع الميادين** والا تكون لغة أدبية فقط أو لغة عادات فقط أو لغة فن خـاص . وهذا يستلـزم من الناطقين بها أن ينزلوا بها الى ميدان المعاملة اليومية والتخاطب الادارى وغيره .

اما من الناحية العلمية فانه ينبغى أن ننظر الى مشاكل اللغة من زاويتين مختلفتين :

— الاولى تخص مادة اللغة وجوهرها .

— الثانية تنظر الى طرق تلقينها .

ولا شك أن هذين المظهرين وان كـانا مختلفين الا انهما مرتبطـان أشد الارتباط فى مضاعفة المردود التربوى وذلك لسببين :

الاول هو أن تعليم اللغة لا يتم بوسـائل تربوية فحسب بل بعلاج سابق للمادة الملقنة فليس كل ما فى اللغة يصلح لان يلقن المتعلم المبتدىء وخصوصا الصبية فان فى اللغـة — وفى النصوص المحررة التى يستعملها المعلم — شواذ وشـوارد لغوية كثـيرة كشواذ المفردات والتراكيب التى كان يقل استعمالها

حتى فى عهد الفصاحة (اى فى عهد الفطـرة اللغوية) وفى اللـغة متـرادفـات كثيرة تعـوق المتعلـم فى تحصيلـه الاكتسابى للمفـردات وفى اللغـة كلمـات وصيـغ قديمة مماتة يجهلها المثقفون انفسهم (٤) وهى

(٣) كما انه ليس كل ما فى علم الجبر مثلا — يصلح لانيلقن متعلموه — فان هناك من يحتاج الى مفاهيم أخرى تمهد له السبيل الى ذلك ، وهناك من لا يحتاج منه الاعلى قدر ينتفع به فى حل بعض المشاكل الخاصة ، وهناك أيضا مفاهيم جبرية قدمت بحيث تعداها العلم الحديث الىما هو ارقى منها او على الاقل ما هو أفيد بالنسبة الى المشاكل الحيوية الكبرى ، وذلك مثل ما تجده بين الجبر التقليدى والجبر الحديث ، فهذا الاخير قد أصبح اداة لا مثيل لها فى يد الباحث .

(٤) اما دراسة هذه الشوارد والاطلاع على اسرارهافهذا يهم المختصين وهو مفيد جدا اذا اعتبرناها ظاهرة كسائر الظواهر الطبيعية . اما المتعلم فاهتمـامه يتجهنحو شىء آخر غير هذا ، لانه يريد أن يكسب فى أقرب وقت ممكن ومن اخصر الطرق وانجعها اداة للتعبير واداةلاكتساب المعارف التى تنقصه .

آثار بالية يوجد ما يقوم مقامها وما يغنى عنها فى الكلام الفصيح الشائع المشهور . ولو كانت كل هذه الاشياء مما يحتاج اليه المتكلم ولم يوجد على الاطلاق ما يقوم مقامها من الالفاظ الشائعة لما كانت عائقا للمبتدىء بل كانت تكون حينئذ من الادوات البيانية التى لا يستغنى عنها الناطق وتحصيلها أمر ضرورى لانه سد لفراغ فكرى لغوى والاهتمام الذى نلاحظه عند المتعلمين بتحصيل هذا النوع من الالفاظ ناتج عن الحاجة وليس من الاعمال الترفية فى شىء

والسبب الثانى هو أن الدراسة العلمية للغة تفضى بالمعنيين بها الى اصلاح النظرية التربوية وتوجيه المعلمين فى استعمال أساليب التلقين اللغوى . لان دراسة الكيفية التى يتم اجراء المتكلم لاليات اللغة بما فيها المظهر الفيزيولوجى والمظهر الوضعى البنائى وغيرها من وجهات نظر البحث العلمى قد توحى للغوى منهاجا خاصا فى اكساب المتعلم هذه الاليات وهذا السلوك اللسانى . فيستفيد معلم اللغة من دراسة اللغوى لظاهرة التخاطب فوائد نظرية هامة ترشده وتوجهه فى نشاطه التعليمى

ان العلاج « ٥ » الذى نريده يمس كما قلنا المادة اللغوية ونحن نشاهد أن التغييرات الاجتماعية والسياسية قد جعلت الامة العربية — من قرون طوال — تختلف لهجاتها احيانا اختلافا شديدا وذلك لانعزالها ، بعضها عن بعض وتطور كل لهجة على حدة . لا شك ان الاختلاف اللهجى كان موجودا يوم انتشرت القبائل العربية فى خارج شبه الجزيرة (٦) الا ان هذا التطور الذى يصيب كل لغة قد زادها تفاوتا وهذا الذى يجعل كل لهجة فى زماننا غير صالحة لان تكون لغة التفاهم بين الشعوب العربية ومن ثم استحال أن تكون اية واحدة منها لغة الدراسة لان ذلك يؤدى — طبعا — الى انعزال كل دولة عربية عن الاخرى وقطع الصلة الروحية والثقافية والاجتماعية بينها بصفة نهائية ثم قطع كل صلة بالماضى وبالتراث العربى العظيم . ومهما كان من أمر فان اختيار لهجة معينة حتى فى داخل بلد واحد سيكون مجرد تحكم بل ظلما واقترافا على الامة العربية .

بالنسبة الى اللهجات الاخرى لانه ليس لاية لهجة عربية فضل على غيرها لا من حيث التأثير والنفوذ المعنوى ولا من حيث الغلبة السياسية أو الاجتماعية . فكلها فى ذلك سواء

غير أن هذه اللهجات التى يتخاطب بها أصحابها فى معاملاتهم اليومية والتى ابتعدت عن اللغة الفصحى المشتركة ابتعادا ملحوظا ما هى الا امتداد للهجات الفصيحة القديمة التى أتت بها القبائل النازحة وعلى هذا فان جل مفرداتها وكثيرا من تراكيبها فصيحة فى جوهرها واحيانا حتى فى صيغتها ولولا التغيير الصوتى العميق (٧) الذى طرأ عليها لما رأينا فيها الا اختلافا يسيرا ينحصر فى استعمال بعض الالفاظ فى غير ما وضع لها من مدلول . الا ان هذا التنويع فى أداء العربية لم يمنع من أن يكون مجرد تنويع لمادة واحدة وجوهر واحد ولذلك لا ينبغى ان يستهان بالمادة اللغوية التى تشترك فيها جميع اللهجات الحالية لكونها محولة فى صورتها عن الاصل الفصيح . لان كل ما هو مشترك وأصيل فى نفس الوقت فهو من التراث اللغوى

---

(٥) نعنى بهذه اللفظة : العملية التحويرية والانتزاعيةذات المقاييس العلمية كمعالجة الاختصاصى فى علم الافادة لمجموعة من المعلومات المخرومة فى البطاقات يتعرض لها بالتركيب والتصنيف والاحصاء وغير ذلك من العمليات المعقدة . وكمعالجة النحاة العرب لماكانوا يأخذونه من فصحاء العرب فيحللونه ويرتبونه ويحصون مفرداته وتراكيبه .

(٦) اختلاف فى الفروع لا فى الاصول كما يقول ابن جنى انظر الخصائص : ١ — ١٤٤ .

(٧) وقد سبب هذا التغيير الصوتى سقوط الحركات الاعرابية وكثيرا من الحركات الضعفية المختلسة ومن ثم اختزلت الكلمات من حيث مبناها وتغيرت الصيغ الفعلية بخصوص . وسبب سقوط الاعراب جمود الترتيب فى داخل الجملة وغير ذلك .

الذى يجب الاحتفاظ به بل الحث على استعماله قبل غيره بشرط واحـــد فقط وهو ان يوافق النطق الفصيح ويتفق مع مقاييس اللغة (٨)

والواقع ان هنـــاك لهجـــات محليـــة ولغة مشتركة — ولا نعنى بها لغة التحرير والكتابة بل لغة المشافهة — يخاطب بها كـــل عربى عربيا آخر من قطر آخر شقيق يحاول فيها — ما استطاع الـــى ذلك سبيـــلا — أن يتجنب المفردة او التركيب المحلى الذى ربما لا يفهمه مخاطبه وهذا يتفاوت بين الاشخاص .

وقد نمت وترعرعت هذه اللغة الفصيحة منذ ان ازدادت الاتصالات المباشرة بين الناطقين بالضاد كثرة وخصوصا بعد استقـــلال الدول العربية . وبما انها وليدة الاحتياج الاجتماعى المسمى بالتفاهم والتخاطب والاتصال اللغوى فكأنها بعث للتخاطب الشفاهى الفصيح الذى تقلص ظله منذ ان انزوت الشعوب العـــربية وتقوقعت . ونحن لا ننكر أن تكون هذه اللغة المشتركة قد تأثرت باللهجات المحلية والحق ان التفاوت كبير جدا بين المتكلمين والمتخاطبين المنتمين الى دول مختلفة فمن محسن لا يعـــثر لسانه الا قليلا ومن مقصر تتغلب عليه لهجته المحلية وهذا يرجع الى عدم نضوج الـــوضع اللغوى واذا صح لنا أن نتنبأ فانه يمكننـــا ان نقول انه لا يبعد الزمان الذى سنرى فيه ظاهرة التوارد اللغوى تتحـــقق دفعـــة واحدة بفضل انتشـــار الثقافة وذيوع المناهج العلمية .

فهذه اللغة الفصيحة المشفـــوه بها الحية النشيطة هى الاداة التى نريد تدوينها وتقنينها ما دامـــت هـــى العربيـــة الفصحى فى أنشط عناصرها وأشدها حيوية بما فيها من صـــيغ سليمة اقتصادية ونطق سليم واعراب خفيف غير ثقيل (٩) .

ونستطيع بناء على ما سبق أن نستخلص مبدأين رئيسيين هما غاية النظرية العامة التى سيبنى عليها عملنا التحويرى :

(١) مبدأ استمرار اللغة العربية وبقاء كيانها

ان اللغة الاساسية — او الرصيد اللغوى الاساسى — التى سوف يبنى عليها التعليم فى البلدان المغربية يجب أن يستوفى شرطين حتى تحقق وتستمر الصلة بين الناطقين بالضاد زمانا ومكانا وهذان الشرطان هما :

— ثبوت هذه اللغة فى العربية الفصحى القديمة ،
— الاشتـــراك فى الاستعمـــال بين كل الشعوب العربية او اكثرها .

٢) مبدأ حيوية اللغـــة العربيـــة

لا يمكن بحـــال من الاحـــوال أن يسهل تلقين هذه اللغة للمتعلم — **وخصوصا الصبية** — الا اذا كانت حية شائعة مشهورة او على الاقل قابلة للذيوع لاجل علاقة لفظية تـــوجد بينها وبين لغة التخاطب اليـــومى الناتج عن احتياج حيوى .

ولربما صعب او تعذر التوفيق بين المبدأين فحينئذ يلجأ الى اثبـــات الكلمـــة او التركيب الأكثر شيوعا وان لم يثبت فى اللغة القديمة لعدم وجود المدلول او المفهـــوم المـــوضوع له اللفظ فى ذلك الزمان عـــلى شريطـــة ان يكون اللفظ المحدث او المولد يجرى على قياس كلام العرب . وفى عكس هذه الحالة اى اذا لم يتم الاتفاق عند اكثر المتكلمين فى كلمة او تركيب ، اعتمد على اقرب الالفاظ الفصيحة الى الافهام او اكثرها دورانا فى لغة التحرير وان لم تكن

---

(٨)أثرت كتب البلاغة فى عهد الانحطاط ايما تأثير فى نفوس المعلمين وكان لها اسوأ تأثير مع الاسف،اذ ظن اكثر المعلمين بعد ذلك أن الكلمة او التركيب الذى هو مبتذل فى ألسنة العامة — حتى ولو كان عربيا فصيحا — يجب اجتنابه وطرحه من التعبير البليغ لا لشىء الا انه تكثر العوام من استعماله .

(٩) ليس من المعقول أن يعتقد ان فصحاء العرب كانوا ينطقون كما ينطق اليوم المعلمون وكثير من المثقفين عند تشدقهم ومط حركات الاعراب وعدم الوقف ابدا عـــلى متحراك واشباع الحركات التى كانت تختلس (كما يفعله أكثر المعلمين فى المدارس فى تعليم النحو وعذرهم فى ذلك — وهل لهم عذر فى تمقيم وتوعير العربية ؟ — انهم يحاولون دائما تنبيه المبتدئين على نوعية الحركة الاعرابية من ضم وفتح وكسر) .

جارية على الالسنة فى التخاطب اليومى لعدم وجود لفظ فصيح مشترك . ولا تثبت من الالفاظ الكتابية الا ما يتبادر الى السامع لاجل علاقة بين الصيغة والمعنى يسهل ادراكها لوجودها فى لغة التخاطب .

هذا ويجدر بنا أن نتساءل كيف يتم علاج المادة اللغوية المراد تلقينها للمبتدئين؟أو بعبارة أخرى ما هى الوسائل العملية التى تساعدنا على التدوين والتحوير(١٠)واستخراج العناصر اللغوية المفيدة فى تعليم اللغة فى ابتداء الامر ؟

لقد شاهدنا ان اللغويين العرب كانوا قديما يقيسون على الكثير الشائع ورأينا ان أقيستهم وقوانينهم قد بنيت على كثرة الاستعمال كما رايناهم ايضا يجوبون الافاق فى داخل الجزيرة العربيــة وفى أرض الفصــاحة لجمــع اللغة وشاهدنا أيضا الغربيين — وهم شديدو الاعتناء بلغاتهم — قد اعتمدوا فى استخراج النمــاذج اللغـــويـــة الصــالحـــة للتلقـــين علـــى هذه المفــاهيم والمنــاهج بعينهــا فــذهبوا يلاحظون المتخاطبين اثناء اتصالاتهم ويأخذون من افواه الناطقين اللغة الحية النشيطة ثم احصوا — كما فعل اسلافنا — مفردات وتراكيب لغاتهم . فوضعوا رصيــدا اســاسيا للتعليم واستمروا فى ذلك منذ بداية القرن العشرين الى ايامنا هذه ولم يتم بعد هذا العمل بالنسبة الى بعض اللغات الاوربية القليلة الذيوع .

اما فيما يخص اللغــة العــربية ورصيدها التعليمى فاننا نرى استخراجها بالكيفية الآتية :

تقوم فى كل بلد جماعات من الاختصاصيين بتحريات لغوية (يتوزعون على مختلف الاقاليم والنواحى فى ذلك البلد) وذلك بحسب التوزع اللغوى الاجتماعى وبالاعتماد على مخطط سابق لهذا النوع من العمليــات ومناهج البحث فى ذلك ، هى المناهج الحديثة وهى عبارة عن تسجيلات صوتية لمحاورات وخطب وكل كلام عفوى لا تكلف فيه . ويضاف الى هذا تحر آخر على شكل قوائم من الاسئلة يجيب عنها المتكلمون الموثوق بعربيتهم ونعنى بذلك من عرف بصحة استعمالهم للعربية على اختلاف طبقاتهم واجناسهم . ولابد من اختيار دقيق لهؤلاء واختيار البيئات . كما تجرى تحريــات أخرى فى أوساط مختلفة لا تشترط فيها صحة الاستعمال للغة الفصحى وذلك للحصول على القدر المشترك الفصيح بين اللهجات العربية ويجرى ذلك بنفس الطريقة .

وعندما يتم هذا البحث ويتوفر لدينا عدد معين من العينات (تعد فيها الالفاظ المكررة المسجلة بعشرات الملايين) ، تجرى عملية الصياغة الاصطلاحية لهذه المعطيات الكثيفة ومعنى ذلك أن كل القول المسجل ينقل رموزا يصطلح عليها اللغويون وتخرم فى بطاقات خاصة ثم تبرمج برمجة تمكن الباحث الرياضى من اجراء عملية الاحصاء عليها وهذا الاحصاء يخص مختلف الاقاليم ثم نحصل بعد ذلك على قوائم تواترية تبين مدى انتشار المفردة او التركيب او درجة شيوعها بصفة موضوعية اى بواسطة الاعــداد والارقــام . وبما ان المعطيات تبلــغ عشرات الملايــين فلابد من استعمال الآلات الحاسبة الالكترونية العظمى لان احصاء مثل هذا العدد الهائل اذا كلفنــا الانسان بالقيام به يحتاج الى استعمال المئات من الافراد ولا يتم الا فى عشرين او ثلاثين سنة ! (هذا بقطع النظر عن الاغلاط) .

---

(١٠) ربما يظن البعض ان عملية التحوير تؤدى الى افتقار اللغة . ان هذا التأويل فاسد بالمرة لان افتقار المادة اللغوية التى نريد تلقينها للمبتدىء ليست افتقارا فى الحقيقة انما هى حذف للحشو واللغو الذى لا يحتاج اليه المتعلم فى بدء أمره (ونحن لا نقصد الا المتعلم) فهو بالعكس اغناء اذ حذف الفضول هو فى الحقيقة تقوية للجــانب الكسبى الايجابى ثم لا ننسى ان الصعوبات التى يلاقيها المتعلم لا تنحصر فقط فى المفردات بل فى الصيغ والتركيب أيضا ، فاذا استعملت مفردة غريبة او غير مأنوسة تماما فى تركيب غير معروف فى لغة التخاطب كانت أشق على المبتدىء من ان تنحصر الصعوبة فى شىء واحد كان تريد ان تعمل مثل(الليس) وتستعمل جملة فيها مفردات غير مفهومة لدى الطفل مثلا) . وقد يقال ان العربية ليس فيها حشو ولافضول . هذه سفسطة لان هذا يقال — وهو صحيح — بالنسبة الى الكلام البليغ الذى يحدثه العربى الفصيح ،فالعربية بهذا المعنى هى هذا الكلام الرائع واللغة من هذه الحيثية هى اشتغال هؤلاء البلغاء وانتقاؤهم العنــاصر اللغوية المناسبة . اما المادة اللغوية فى ذاتها ففيها الغث والسمين ولا ينكر احد ان فى جميع اللغات حوشى وغريب ونادر ومهجور وممات وغير ذلك من العناصر الهامشية .

ولربما يبدو هذا العمل للبعض بسيطا متئتيا وليس ببسيط اذ تدخل فيه عمليات رياضية معقدة (١١) كما ان محصول هذه العمليات ليس بسيطا ايضا اذ يمكن ان نعرف على شكل رياضي العلاقات والنسب التي تربط بين درجة شيوع العنصر اللغوي وبين عدد المعاني التي يتضمنها وموضوعية هذه النتائج ضمن صحة التطبيق ونحن بذلك نلاقي كل حكم ذاتي اذ كثير من الناس يقطعون بأن هذه اكثر استعمالا من تلك وليس الامر كذلك في الواقع .

اما ما نستلهمه من العلاج للمادة اللغوية ومن الدراسة العلمية لاوضاع القوانين التي تجرى عليها الالسنة من قوانين عامة يمكن ان تطبق على الاساليب التربوية . فمن ذلك القانون المسمى بمبدأ الاقتصاد اللغوي وهو ان المتكلم يحاول دائما وبدون ما يشعر ابلاغ اكبر كمية ممكنة من الفوائد (المعلومات) . بأقل ما يمكنه من الجهود العضلية او الذهنية فهو سر توازن النظام اللغوي فاذا فقد النظام هذا التوازن انتقضت بعض أوضاعه ، فاما أن تجمد اللغة جمودا يجعلها تموت شيئا فشيئا فتصبح لغة تحرير فحسب ، اولغة ادب يكثر فيه التصنع والتكلف ، واما ان تتغير تغيرا ملموسا يجعلها تتطور الى لغة اخرى ليس لها شبه كبير باللغة الاصلية وهذا ما حصل للغة اللاتينية اذ اضمحلت كلغة تخاطب الى لغة كنائس أو لغة اثرية وتفرعت عن الشافهة باللاتينية لغات مغايرة لها تمام المغايرة . وهذا ما كنا نخشى على اللغة العربية لولا ان الله بلطفه ورحمته رعاها وما شاء الا ان تنبعث من سباتها الى حياة جديدة تحتفظ بكيانها بخلاف ما أصاب اللغات العتيقة الاخرى .

فنستنتج من ذلك ان المتعلم ايضا – وهذا قد شاهده علماء النفس – يختار (بدون وعي واضح) من مقاييس اللغة ومادتها ما لا يستغنى عنه ليستطيع التفاهم مع غيره . فتعلم اللغة يكون اذا افيد اذا بني كما قلنا على العناصر الاساسية الشائعة التي لابد منها وهو اقل ما يمكن ان يكسبه المتعلم لكي يؤدي مايحتاج الى تبليغه من مقاصد واغراض . هذا الرصيد اللغوي يمتاز عن بقية العناصر اللغوية بكثرة دورانه على الالسنة ، والملاحظ في المخابر اللغوية هو ان اكثر العناصر جريانا وتواترا هي ايضا أسهلها تلقنا .

والقانون الثاني هو ان اللغة نظام منسجم الاطراف مترابط الاجزاء لانه آلة وجهاز كسائر الآلات والاجهزة التي يسخرها الانسان لقضاء اغراضه الا انها جهاز شديد التعقيد ، تتداخل وتتراكب اجزاؤه ، تداخلا وتراكبا عجيبا ، لا يكاد يوجد له مثيل ولا يمكن استعمال هذه الآلة الا اذا كانت دواليبها متكاملة متكافلة يؤدي كل دولاب منها وظيفته التي وضع من اجلها ، في موضعه الخاص لغرض خاص . ويكفل بذلك لجميع الدواليب الاخرى مجراها وسيرها لانها منوطة بوجوده كما ان مجراه منوط بوجودها وحسن مجراها . فينبغي ان ينظر الى كل جزء من اجزاء اللغة والى كل مستوى من مستوياتها على انه لا يتم مفعوله الا مع غيره وفي داخل المجموع .

نستنتج من ذلك شيئين ، الاول : هو ما تفطن اليه منذ زمان المربون وهو ان تعليم

---

(١١) منذ أن دعونا الى هذا العمل الجبار فقد تحققت أمنيتنا بفضل التفاهم التام الذي حصل في لقاءات آخرى وتم التحرى بالنسبة الى صبيان المدارس الابتدائية (السنة الاولى والثانية) وستتلوها تحريات أخرى . وتم أيضا خرم الاوراق وعملية الاحصاء في هذه المرحلة .

القراءة والمحادثة وغير ذلك من احوال التربية اللغوية لا تنجح الا عن شكل اجمالى وأن النظرة الى الجملة تسبق النظرة الى المفرد . ثم ما هو ادنى من ذلك المستوى اى الحروف . الا ان كل ذلك يحتاج الى تلطف من الصنعة لان واقع اللغة اشد تعقدا من اى واقع آخر . ولابد من ربط التجارب التربوية اللغوية بما توصل اليه علماء النفس ، فى هذا الميدان اخص بالذكر تلك الابحاث القيمة التى خرجت الى نظرية تعليمية جديدة اساسها برمجة التعليم التى تمكن التلميذ من أن يتابع الدراسة دون ان يرتبط بالتلاميذ الاخرين الذين ربما يعوقونه فى تخطيه وتقدمه اذ منهم من هو بطيء التحصيل ومنهم من لا يحتاج فى كسب المعارف الى وقت طويل . وزد على ذلك ان التعليم المبرمج لا يترك للطالب اى فرصة للاهمال أو التهاون لانه تخطيط شامل للمادة الملقنة ومن ثم لنشاطه .

والثانى وهو مهم جدا : هو ان اكثر مجارى اللغة (ونعنى بذلك العمليات الذهنية العظيمة التى يقوم بها المتكلم عند استعماله لاوضاع اللغة) هى مجار آلية لا شعورية فمن ثم يحتاج المكتسب لها الى اجراء عمليات خاصة مبرمجة مخططة اشد التخطيط . وليست هذه العمليات من قبيل التلقين العقلى التعليلى لاننا قد لاحظنا ان الفصيح من الناس هو الذى اكتسب اولا وقبل كل شيء ذلك القوام اللغوى اللاشعورى الذى أشرنا اليه فعمله التحصيلى كان من جنس العمل الالى الذى تقوم عليه اللغة فى مجاريها العادية . ولا ننسى ان الحصول على آليات اللغة هو اول المراحل الطبيعية التى يمر عليها الطفل وكذلك كل من عاش مدة طويلة فى بلد اجنبى . ولا نعنى بذلك أن التلميذ ينبغى له ان يستمع الى معلمه وان يقلده بصفة عفوية . انما المقصود هو ابقاء الصفة العفوية فى التحصيل فقط . اما العمليات التحصيلية فى ذاتها فانها يجب ان لا تكون مجرد تقليد عشوائى بل تكون على مثيرات واستجابات تعتمد على مادة لغوية مرتبة ترتيبا علميا جامعا مانعا . وبهذا ان اللغة انظومة من المثل والانحاء (نماذج) ترسخ فى الذهن شيئا فشيئا فينبغى أن يتخير الملقن هذه المثل حتى تكون مستودعة فى ذاكرته وتحت تصرفه وكل ذلك يصير لا شعوريا فى مدة قليلة . هذا سر كسب اللغات . فطريقة التعليم الناجعة اذا هى طريقة اقامة النماذج الاساسية للغة وتلقينها للطالب بكيفية آلية ايضا . وفى نفس الوقت منطقية من حيث ترتيب المادة اللغوية . اما النحو والصرف والبلاغة فهذا فى نطاق التحليل العلمى للغة لان هناك فرقا بين تحصيل آليات اللغة والبحث التحليلى لهذه الاليات . فلابد ان يأتى التحليل بعد المرحلة الاولى اى بعد اثبات القوالب النطقية الافرادية التركيبية بدون ما تعليل لان تفسير القواعد هو من العمليات العقلية الشعورية التى ربما تعوق المتعلم فى كسب مبادىء اللسان . ولا نريد بذلك أن القواعد النحوية غير نافعة اذ اننا نوقن أن القواعد هى أكثر اللغة . انما مقصودنا أن تقدم هذه القواعد على شكل نماذج تحصل فى الاستعمال ، تستخدم فيها طريقة خاصة فى ترسيخها فى الذهن وهو أن يجرى على هذه النماذج تحويلات وتبديلات لفظية يتغير فيه المعنى بتغير اللفظ وبالعكس (١٢) وبذلك التحويل يحصل المتعلم بدون ما

---

(١٢) وهناك مناهج كثيرة متنوعة كطريقة استبدال مفردات الجملة بأخرى (على شكل منبه يرسله الملقن) فستلزم من التلميذ جهدا عقليا — لا ذاكريا عضليا فقط — للتوفيق بين احلال هذه المفردات محلها من الجملة ثم محلها من الاعراب وكل ما يقتضيل الاستبدال من تغيير . وكذلك طريقة توسيع الجملة وما يستلزم ذلك من تكييف حتى يسلم الكلام من الاستحالة ومن اللحن .

يشعر على الشىء الثابت المستمر فى الاستعمالات وعلى العلاقات التى توجد بين المعنى المراد وطرق ادائه ثم على كل ما يجوز وما يمتنع . وكل ذلك قد يدركه الالمعى بنفوذ ذهنه الا أن ادراكه على شكل تعليمى تقليدى غير ضرورى بل غير نافع ابدا اثناء هذه المرحلة .

ويستعين المعلم بقدر الامكان بالوسائل السمعية البصرية على شرط أن يتفهم مهمة الادوات على مفهومها الصحيح اى على انها مجرد وسائل عملية ومجرد معينات لانها ليست كل الوسائل وليست غاية يرمى اليها . فمعمل اللغة أو مخبرها هو عبارة عن بيوت صغيرة منعزلة صوتيا يجلس فيها التلميذ امام مغناط (مسجلة مغناطسية) فيستجيب للمنبهات المسجلة على الشكل المشار اليه وليس هذا العمل الا وسيلة للتمرين والتدريب اللغوى ولا يستغنى التلميذ ابدا عن الدرس .

ولا ننسى ايضا ان هذه المناهج التربوية فى تعليم اللغات لا تزال فى طور التحسن ولا يحق لنا ان نرميها بأى شىء أو أن نغلو فى اطرائها غلوا غير معقول قبل ان تتم الابحاث القائمة الان بهذا الشأن وان كانت قد قطعت اشواطا عجيبة فى بضع سنين . اذ البحث العلمى محاولة متواصلة تتفاوت قيمة انتاجه واكتشافاته على ممر الايام ، الا انه لابد من الايمان الوثيق العميق بصلاحيته ونفعه بل لابد من الايمان بأنه الطريق الوحيد الذى يؤدى الى نتيجة ملموسة ..

وحاصل الامر هو أنه لابد من ان نوجه انظارنا الى ما يقوم به علماء اللسانيات فى زماننا هذا حتى لا يفوتنا الوقت وحتى لا تضيع جهودنا ونحن فى عالم منعزل ، وأن نثق بما تثبته العلوم الدقيقة ونعتمد فى محاولاتنا على المشاهدة والاستقراء والتجربة العلمية ولا نتسرع فى الحكم قبل الاختيار .

عبد الرحمن حاج صالح
أستاذ فقه اللغة بجامعة الجزائر

في الذكرى المئوية الثانية لميلاد

بيتهوفن

"احبب الحرية
فوق كل شيء
ولا تنكر الحقيقة
حتى أمام التيجان"



مولود قاسم

احتفلت الجزائر ، مثل بلدان العالم ، في آخر سنة ١٩٧٠ بالذكرى المئوية الثانية لميلاد الفنان العبقري الخالد لودفيغ فان بيتهوفن (١٧٧٠ — ١٨٢٧ م) .

ولقد ظلت اذاعات وتلفزات العالم المتقدم تعرض طوال السنة الماضية ، سنة بيتهوفن كما سميت هناك ، موسيقى هذا الرجل العظيم ، من اول يناير حتى آخر ديسامبر ، حيث ان ميلاده وقع في اول المنتصف الثاني من شهر ديسامبر .

والجزائر ، اذ اقامت له حفلة ذكرى ، انما تحى فيه لأ الفنان العبقرى فحسب ، وانما تمجد فيه ايضا الانسان بكامل ابعاد الانسانية الحقة ، الرجل الاخلاقى ، الذى كرس موسيقاه للتعبير عن الجوانب العليا للانسان ، والذى لم يؤلف من ذلك النوع الخفيف ، الاوبرا ، الا واحدا ، وفى موضوع هام جدا فى نظره ، وهو تقديس الوفاءالزوجى وهو ما جعله عنوانا للاوبرا .

وتحى فيه الجزائر ايضا الثائر العظيم الذى لم يخضع لضغط ولا استبداد ، بل قاومهما حيث لقيهما ، معبراً فى ذلك عن روحه العظيمة ، ومتأثرا ايضا باستاذه الروحى كنط وصديقه الروحى ايضا شيللر .

ولقد كان يكرر طوال حياته تلك العبارة المشهورة لاستاذه الروحى كنط : ((**هناك شيئان هما اعظم ما فى الوجود : السماء المتلالئة بنجومها فوقى ، والقانون الاخلاقى فى نفسى !**)) وهنا ينبغى لنا ان نذكر ان بيتهوفن درس فلسفة كنط فى جامعة بون ، مسقط راسه .

وبقدر ما كان بيتهوفن يحب شيللر الثورى المتأثر بفلسفة كنط هو ايضا ، والذى عانى السجن والتشرد لافكاره السياسية الجمهورية ، كانت خيبته من لقاء غوتهمريرة لموقف هذا الاخير من كل من الارستقراطية المحلية والمحتلين الاجانب لبلاده ، وهو موقف يناقض كل المناقضة موقف بيتهوفن .

ويكفى هنا ان نذكر حادثتين تعبران عن موقف كل من الرجلين :

فبينما كان غوته يمجد القوة والعبقرية فى



كنط

نابليون حتى بعد ان احتل بلاده ، تغير موقف بيتهوفن من القائد الفرنسى راسا على عقب اثر حوادث سياسية معروفة :

لقد اعجب فى اول الامر بنابليون عندمابدأ يحطم الاستبدادات فى اوروبا ، من اقطاعيات ودوقيات ، وامارات ، وملكيات وقيصريات وكان بيتهوفن يظن ان نابليون سيحرر اوروبا من كل ذلك ، ولهذا اهدى له سيمفونيته الثالثة وسماها ((نابليون)) .

ولكن عندما توج نابليون نفسه قيصرا ، غضب بيتهوفن ، ومزق ذلك الاهداء مزمجر وقائلا : ((**انما انت دكتاتور مثل الاخرين ، تدوس حريات الشعوب**)) ، واعطى سيمفونيته هذه اسما جديدا هو : ((**البطلة**)) اى بعد إن كانت باسم نابليون اصبحتضده!

وبخصوص موقف بيتهوفن من غوته والارستوقراطية الالمانية فيحكى انه بينما كان هو وغوته يتفسحان قرب كارلوففارى

(كارلسباد) ، وكان ذلك لقاءهمـــا الاول ، ، وبرغبة ملحة من بيتهوفن الذى كان معجبــا بغوته الشاعر ، واذا بامبراطور وامبراطورة النمسا يقبلان عليهما ، وكان غوته قد وضع ذراعه مشبوكا بذراع بيتهوفن ، ولدى منظر العائلة القيصريـــة ارتبك غوتـــه ، وسحب ذراعه من ذراع بيتهوفن ، ونـــزع قبعتـــه ، وانحنى انحناءة عميقة !

وماذا فعل بيتهوفن ؟ فعـــوض ان ينـــزع قبعته ، خفظها على جبينه حتى نزلت علـــى عينيه ، واستمر فى مشيه عالى الراس ، ولم يقف ... واذا بالامبراطور والامبراطورة هما اللذان يحييانه ، والجمهور يتفرج معجبـــا ومندهشـــا !

وبعد ان التحق غوته ببيتهوفن قـــال لـــه هذا الاخير : ((**هو انت غـــوتـــه الذى كنت معجبـــا بـــه**)) ؟ فقـــال لـــه غـــوتـــه : ((**لاتنس ياصديقى انى موظف**)) !

وكذلك كانت جميع مواقف بيتهوفن ، فلقد كان يعانى الادقاع الفاحش ، ومع ذلك يرفض ان يكون تابعا لقصر هذا او ذاك من الامراء والملوك والاباطرة ، وكان يعلق على عروضهم ((**امراء ، وملوك ، وقيـــاصرة ، وجـــدوا ، وموجـــودون الان ، وسيوجـــدون ، امـــا بيتهوفن ، فليس هناك الا واحد !**))

وكان مؤمنا كل الايمان بتفوق الموسيقـــى على كل وسيلة اخـــرى للتعبير ، ويقـــول : ((**ان الموسيقى هى وحى اعلى من كل فلسفة واعمق من كل حكمة ! والـــذى تنفتح لـــه موسيقاى ، يتحرر من كل المحن التى تثقـــل كـــواهل الاخرين !**))

وفى آخر عمره ، بعد ان اشاحت عنـــه فيينا ، فى تعلقها بموسيـــقى شتـــــــراوس (النعامة) ، ولانر ، وروسينى ، وغيرهامن انواع الموسيقى الخفيفـــة ، كتب بطلنـــا فى مذكراته وهو يؤلف فى السيمفونية التاسعة الرائعة ، سيمفونية الامـــل ، والسرور ،



غوته ينحنى محييا ، وبيتهوفن يواصل سيره

والاخوة الانسانية : ((**آه يالها من تعاسة ! انى اتضور جوعا ، ولم اذق طعم الخبز منذ ستـــة ايام**)) !

ويوم وفاته خرجت فيينا بكاملها ، تشيع جثمان العبقرى الخالد الى مثواه الاخير !

ومما كان يردده بيتهوفن طيلة حياتـــه : ((**احب الحرية فوق كـــل شىء ! ولا تنكـــر الحقيقة حتـــى امام التيجـــان !**))

ونكتـــة اخـــيرة :

فى آخر احدى مؤلفاته التى كلف بيتهوفن ناسخه بنسخها ، كتب هذا الاخير :

(تم بعـــون اللـــه)

ولما اطلع بيتهوفن عليها ، ضحك واضاف ((**ايها الانسان المسكين اعن نفسك بنفسك!**))

مـــولود قـــاسم

لمركب النقص علاج ، اما مركب الكمال فلا التئام له . العالم الاول منفتح قد تتسرب اليه أشعة من الخارج ، تعين على تبدده ، اما الشعور بمركب الكمال ، فيغلق النوافذ ولا يعرف اليه النقد الذاتى سبيلا .

الشرق كما يراه الغرب

محمد عزيز الحبابى



الخوارزمى



ابن رشد



ابن سينا

المعاصرة ليست فى متناول جميع المثقفين ، ولو كانوا غربيين من دم آرى صرف . فالقضية قضية اطلاع وتعلم ، لا علاقة لها بالجنس او الدين او اللغة .

آمن مفكر والاسلام بالحتمية العلمية ، ومارسوا التحليل والتركيب ، اذ ليس فى هذا ما يناقض دينهم ، بل ان الاسلام يحضهم على ذلك .

ـ التفكير افعال تتجسد فى اختراعات ، واكتشافات ، او آثار مكتوبة وغير ذلك . وليس من وظيفة الفيلسوف أن يقوم بعملية تاريخية ، فلذلك اختصاصيون يقومون به .

نقصد بالعقل هنا ، الجهاز الذى يباشر التفكير وللعقل البشرى تاريخ يتصل بتطور النوع الانسانى . وفى مراحل التطور المختلفة حصل شىء من التباين فى كيفيات استعمال العقل ، وهو تباين اقتضته انماط الحياة ، فالعقل جهاز ذهنى تركيبى ، ينمو ويتحسن بالاستعمال الملائم ، ويتعطب او يسوء بالاستعمال ، فالذين ينعتون بالبدائيين لهم نفس العقل الذى للعقلانيين ، ولكن سيطرة السحرة والكهنة ، والمشعوذين ، والفكر الكبشى تقف دون انطلاقة العقل الخلاقة ، فاذا كان العقل معطى من المعطيات الطبيعية الاصلية النوعية ، فكيفيات استعماله تكتسب بالممارسة ، وهذه الممارسة تتطلب قواعد اساسية ، هى المنطق ، لكن الانسانية لم تعرف منطقا واحدا احدا ، فهناك « مناطق » (ولا اقصد بمناطق المعنى الجغرافى اى جمع منطقة بل جمع منطق) . كثير هم الغربيون الذين يعتقدون ان المنطق واحد ومطلق ، وهو منطقهم هم طبعا ، وبمقتضاه يحكمون على سواهم . فكيف يرون العقل العربى ، او العقل السامى بصفة عامة ؟

هذا ما سنجيب عنه فى الصفحات الاتية ، فنعطى بعض الامثلة ونحللها ، لنبرز ان كثيرا من المفكرين والجامعيين بالغرب كانوا ، ومازالوا ضحية لذهنية ميثولوجية معادية للمنطق ، بل للمناطق ، الغربى منها والشرقى .

الشعوب « النامية » (اى المتخلفة اقتصاديا وثقافيا) مصابة بانحراف شنيع : يعدمها مركب النقص الثقة فى قدراتها العقلية ، وفى ذوقها ، وقيمها ، ومقاييسها ، فيتغلغل فيها الشعور بالعجز من الاقتباس من الاخرين ، ما يمكن اقتباسه من المفاهيم الحضرية .

ولكن ، رغم الشعور بالنقص والتفاهة والهوان ، هناك مركب الكمال الذى هو أكبر وافظع اذ عنه يتولد اخطر انحراف اخلاقى ومجتمعى وسيكولوجى يصاب به فرد او شعب . لمركب النقصان علاج ، اما مركب الكمال فلا التآم له . العالم الاول متفتح قد تتسرب اليه اشعة من الخارج تعين على تبدده ، اما الشعور بمركب الكمال فيغلق المنافذ . ولا يعرف اليه النقد الذاتى سبيلا .

هناك طبائع مخضرمة من المركبين ، وتلك هى الكارثة الكبرى ، والانحراف الاقصى . فالذى يود ، عن صدق ، السير الى الامام ، يلزمه ، مسبقا ، أن يتفحص اجهزته المادية والمعنوية ، ماضيا وحاضرا ، لان ذلك زاده فى الموعد مع المستقبل . سنخصص هذا البحث لمناقشة بعض الاساطير التى راجت عن ماضى العالم العربى الاسلامى حتى ترعرعت بذور مركب النقص عند البعض منا .

* * *

التمايز بين الشعوب ، كالتباين بين الثقافات الوطنية ، ليس الا « فترات » فى الجدل الدياليكتيكى الذى يسير عليه التداخل بين الجماعات البشرية ، فى الميادين

المادية والمعنوية . فعلى هذا التمايز تتأسس حركات النمو التاريخى والرقى الحضارى .

بيد انه ، ويا للاسف ، مازال ، الى اليوم، الجانب الخرافى من الذهنية البشرية يحدث خللا فى ذلك التداخل ، فيغير من وجهته الديالكتيكية الطبيعية ، الى اتجاه عدائى عدوانى . وهذا ما حصل بالنسبة لموقف الثقافات الاوروبية من الثقافتين العبرانية والاسلامية . وسنضرب على ذلك امثلة محسوسة تظهر ان الكثير من المفكرين والاساتذة الجامعيين ، يقعون ضحية لصور ميثولوجية .

من هؤلاء الكتاب (جورج دوهاميل عضو الاكاديمية الفرنسية الذى يؤكد فى كتيب سماه « حضارة فرنسا » (١) ان الذهنية الشرقية عاجزة ، تمام العجز ، عن التفكير التركيبى وعن تجاوز الذات . هذا تصريح خطير جدا ، لانه اقرار لادعاء يروج منذ القرن الماضى ، يمكن تلخيصه كما يأتى :

الفكر الشرقى ناقص ، وما ينقصه هو القدرة على عملية التركيب .

ان التركيب شىء اساسى للعقل البشرى .

اذن : الفكر الشرقى ليس بفكر انسانى ، او على الاقل ليس فكرا سويا ، وتنتج عن هذا نتيجة ثانية :

بما ان الفكر الشرقى ناقص وغير سوى ، لا يجوز ان نعامل الرجل الشرقى معاملة العاقل الرشيد .

ومن ثمة يجب اعتباره دون مستوى الانسان مما يبيح ، منطقا واخلاقا ، استعباده واستعمار اراضيه .

ان أول من « لاحظ » وروج عدم كفاءة الفكر الشرقى هم (ارنيست رونان) و (لويز بيرطران) واتباع (دوغوبينو) (٢)

يبدأ (رونان) بفرض عام : « .. أما الفكر العتيق السامى ، فانه ، بطبيعة تكوينه . معاد للفلسفة ومعاد للعلم » . ويتحدث ، فى الصفحة التالية عن :

« احتقار الساميين للعلم » ، مبررا ذلك بما « فى الفكر السامى من سذاجة مهولة تضيق الدماغ الانسانى ، وتغلقه امام كل معنى لطيف ، وكل غاطفة رقيقة ، وكل بحث معقول . ولا تفتحه الا على تكرار سرمدى تلخصه العبارة : **الله هو الله** التى انما هى تحصيل الحاصل كما يقول الاصوليون والمناطقة .

يختم (رونان) حديثه ، وقد غمرته نشوة النصر ، متوجها الى مستمعيه :

« ان المستقبل أيها السادة ، لاوروبا اذن . ولاوروبا وحدها ! »·(مقتطف من الدرس الافتتاحى بكوليج دوفرانس سنة ١٨٦٢ ، ص ١٨) .

فما هى « البساطة » التى أعطت الفكر السامى ؟

❊ ❊ ❊

الميتافيزيقا الدينية ، عند الاسرائليين وعند المسلمين ، ترتكز على « لا الاه الا الله » . وهذه العبارة خلافا لما أدعاه (رونان) . ليست « بسيطة » ، وليست « تكرارا » . على اننا ، ولو فرضنا انها عبارة « طوطولوجية » (محصول حاصل) . فالمناطقة لم يقولوا بأن التعبير الطوطولوجى علامة على عقم فى الذهن .

ان حصول حاصل (الطوطولوجيا) من طرق البحث والتفكير المستعملة (باحترام) عند الاغريق وعند مفكرى العصر الوسيط . بل انها لا تزال تستعمل حتى اليوم ، عند المحدثين الاوروبيين . ليس ضروريا أن يعتبر حصول حاصل مرادفا للغلط المنطقى الذى تحتوى عليه اية اعادة بالفاظ مختلفة . دونما تقدم للتفكير . فعندما يصرح الساميون :

---

(١) ظهر كتاب (دوهاميل) بباريز ، عند هاشيط ، عام ١٩٤٤ .

(٢) ان أفكار هؤلاء لم تمت بموتهم ، فالى اليوم يرجع اليها بعض الكتاب . فقد صدر كتاب « أحاديث مع السيد رونان » (باريز جوليار ، ١٩٦٢ . نجد صفحات كثيرة فى هذا الكتاب عن الساميين ، خصوصا من ٦٥ الى ٧٢ (الفصل الثالث) ومن ٧٣ الى ٧٧ (الفصل الرابع) .

« الله هو الله » يستعملون عبارة تعد نموذج الهوية الكاملة : فالمقصود من « الله هو الله» اقرار وحدانية الله . فلنستمع لما يقوله السيد (مـــانترى Mentré) فى قامـــوس (لالاند Lalande) : « ان كل تعريف ليس فى الحقيقة الا حصول حاصل ، لانه يعبر عـــن معادلة بين مفهومين ... (ص ١١٠٣ ، طبعة ١٩٥٩) .

يظهر أن (رونان) تغافل عن المـــعنى الحقيقى لـ « لا اله الا الله » : انها شهادة ، أى اقرار واقع ارتفع الى درجة الوعى : انها انعكاس لايمان واع . فالمؤمن عندما "يشهد" لا يعيد كلمات الشهادة تعبدا بالتكرار ، بـــل يعلن عن يقينه ، بشىء أصبح عنده مـــن « البـديهيـات » وكـــل الـعـلمـاء ، عـــلى اختـلاف ميـادين اختصاصهـم ، يبدأون باقرار « بديهيات » و « مسلمات » ؛ لولا تسليمهم ببداهتها ما أمكنهم أن يقوموا بأى بحث ، وأن يصدروا أى حكم علمى «منطقى». فالاسرائيلى أو المسلم ، عندمـا يشهـد أن « لا اله الا الله » ، لا يذكر المحمول مرتين . اذ المبتدأ ، فى تلك العبارة هو غير الخبر . أن الوحدانية لا تتحمل التكرار ، ومن هنـــا كانت لفظة « الله » لا تعادل لفظة « اله » ، بل تنفيها قطعا . فلفظة « اله » هنا لا تنفصل عن « لا » النافية للجنس ، والنفى يتسلط على فكرة الكثرة : لا آلهة ، لا تعدد ، لا نوع أو جنس الهى . فاذا تم نفى التعدد ، وآمنا بأنه لا كائن الهى ،**أتت « الا » لتستثنى «الله» فى وحدانيته** . ان المفرد والجمع ، لم يكونـا متميزين (بالنسبة للالوهية) تميزا واضحا . عند الساميين فأتت الشهادة لتأكيد الفـــرق بينهما .

فالوثنية والايمان بتعدد الآلهة اتجاهان فى الفكر الانسانى ، كما تقرره دراسات ذهنيـــة الشعوب « البدائية » ، فالوحدانية مرحلـــة « تقدمية » من مراحل تطور الانسانية ، وان تاريخ الاديان المقارن قد وصل الى نفـــس النتيجة : التوحيد حصيلة قرون من التفكير ، انه اكتساب وليس معطى .



رينـــان

سؤال آخر :

كيف يمكن أن نعتبر لفظة معرفة بـ « الـــ » ، (أى الله) « تكرارا » لـــ : لفظة نكرة (أى اله ؟) ان التكرار اعادة شىء كما هو دون زيادة ودون نقصان . « اله » ، اذن ليـــس هو « الله » ومعنى « لا اله الا الله » هو : لم يكن قط ، ولن يكون أبدا ،تعدد آلآلهة ، ، فليس هناك الا الله الاحد .

ان الشهادة تتجاوز التعبير اللفظى ، فـــ « يهوه » ، أى « الله » ليس مطلق اله ، انه الله القديم الدائم الاوحد الازلى .

فلنضرب مثلا : نأخذ (أ) وهى مفهوم ما . هل يبقى معنى ذلك المفهوم كما كان عند ما يدخل فى القضية الاتية : «أ» هى «أ»؟ طبعا لا. فالقضية «أ» هى «أ» تؤكد اولا **تماثـــل (أ) لذاتها** وتقر ، ثانيا ، شيئا آخر ، وهو أن ذلك **التماثل حقيقة ثابتة مستمرة .**

من هنا نستطيع ابراز ما بين **التكـــرار** و **« الشهادة »** من تباين عظيم :

ـــ صيغة التكرار : أ أ،أ،أ،أ،أ،أ، أو : الله . الله : الله ..

ـــ صيغة الشهادة : الله هو الله . لا اله الا الله ، ليس من اله غير الله ...

اذن :

ان « الشهادة » ؛ ليست تكرارا ؛ هذا أولا وثانيا : انها وان كانت فى شكلها تقتـــرب من الطوطولوجيا (محصـــول حاصـــل) ، فمعناها فى الواقع تماثل كامل .

تعتمد الرياضيات الى حد اليــوم عـــــلى القضايا المتماثلة ، هكذا يرى (برطان روسل) ان كل الحساب طوطولوجى لانه خلو مــــن العنصر الانسانى ، أى من الزمان .

* * *

يمكننا ان نقلص الشهادة بحذف طرفـــها الاخير ، فنقول : « لا اله » ، اليست هذه العبارة قضية تامة متكاملة بذاتها ؟ انها اقرار لعدم وجود الوهية : فالجملـــة قد قامــــت بمهمتها التعبيرية .

فلنتلفظ الان بالطرف الاخير من الشهادة، على حدة : « الله » . فهذا لفظ ومفهوم من المفاهيم قابل لان يوصف بأوصاف لا تـــعد ، ويمكنه ان يضم الى مجموعة من الكلمــــات ليكون معها جملة ، فيكتسب معنى فى التركيب الجديد ، ويسهم هو بدوره (بصفته جزءا من جملة) كيما تحصل الجملة على معنى .

ان كل اسم يدخل فى جمل تعتريه احـــدى الحالات الثلاث : الاثبـــات ، أو النـــفى ، أو الاستثناء وكل حالة منها تكون كسبا جديـــدا للجملــــة . وهـــــذا ما حصـــــــل فى :

(لا + اله + الا + الله) :

يجب الان ان نتعرض للدور الذى تلعبــه « الا » الاستثنائية . انها فى الواقـــع **اداة** لا كلمة ، فلا مفهوم لها خارج الجملة ، مثلها فى ذلك مثل و ، أو ، ان ، اذا ، حتى ...

التكرار والطوطولوجيا لا يقعان بـــــين الادوات بل بين الكلمات ، لان لكـــل كلمــــة مفهوما ودلالة خاصــــة . فوجـــود « الا » فى الطرف الثانى من الشهادة ، اضاف الى الجملة معنى جديدا . وهو المعنى الذى اكتسبته من برهان التمانع . ان معنى جديدا تبينه آيـــة قرآنية اخرى : (لو كان فيهما آلهة الا اللـــه لفسدتا) — ٢١ ، ٢٢ —

الله هو المبدأ الاول ، منشأ الابداع والتعقل « واجب بذاته » ، كما يقول ابـــن سينـــا . فالوحدانية من حيث هى وحدانية ، لا تحتوى على حيثيات ، ولا تحتاج الى غيرية ، ولا الى كثرة : تكاملها فى ذاتها . هذا التكامل الذاتى يصبح كمالا تاما عندما يثبت لدينا أن (أ) هى (أ) باطراد ، ولا تعتريها أعراض أبدا . فلو أن (أ) تحولت شوقا لاحسن مما كانت عليه لقلنا: ان (أ) كانت ناقصة فى حالتها الاولى . أما اذا تغيرت (أ) الى دون ما كانت عليه سابقا ، قلنا: ان (أ) غير مكتملة الذاتية . هكذا ، فى كلتـــا الحالتين نستنتج ان (أ) تغيرت ، وأن كل متغير ناقص ، وأن كل ما هو ناقص فحادث .

« الله » كامل لان الوحدانية كمال : « لـــم يكن له كفؤا أحد » (قرآن ، ١١ ، ٤) . وان من صفات الكمال القدم (فالاوثان حادثة لانها من مصنوعات الانسان) . فالله **تام** الوجود ، مادامت وحدانيته لا تنقسم ، **وكامل** الوجود لان الوحدانية استقلال وكمال . فالله ، اذن، وحدة كاملة مستقلة بذاتها ، وقدم : أنــــه « الاول والاخـــر ، والظاهـــر والباطـــــن » (قرآن ، ٥٧ ، ٣) . الله هو الكائن الاوحد الذى يمتزج فيه الواقع بالمثل . فالقرآن يعبر بـ : « كان الله » لا بـ : « سيكون الله » .

* * *

لقد قمنا فيما تقدم بتعليق على مزاعــــم (رونان) من ان التفكير السامى طوطولوجى محض ، لا يقدر على تجاوز التكرار (مــــع اعطاء معنى قد حى لطوطولوجيا) . اما الان فسيتوجه اهتمامنا الى نظريات غربية اخرى حول التفكير السامى .

يدعى (رينان) ، فى مؤلفه عـــن **التاريـــخ المقارن للغات السامية** ، ان الساميـــــين يجهلون ، جهلا كليا ، المنهج العلمى المجـــرد النزيه عن كل منفعة شخصية ، عند الحكـــم على الاشياء ، فالمنهج الرفيع الذى يصاحب الروح العلمى فى البحث والحكم ، ميزة خاصة بالفكر الارى (٣) .

يظهر من خلال هذا أن لـــ (رونان) تفكيرا يتالف من النرجسية ومن العنصرية الارية . وسيردد صدى هذه العقيدة ، فى عام ١٩٣٦،

---

(٣) ينطبق هذا على « الشهادة » فى الاســلام ،كما ينطبق على ما جاء فى الكتاب المقدس (سفر تثنيـة الاشتراع ، ٤ : ٣٥) : « ان الرب هو الاله ، ليس الهســواه » .

(الويزبيرطران) . وهو من العنصريين المرموقين . ان السلالة نتاج الدم » بحيث انه من الصعب جدا امتزاج الاجناس البشرية » . يذكر تصريح (بيرطران) بنظرية (دوغوبينو) الشهيرة التي تزعم ان السلالة كيان روحي وميتافيزيقي ايضا وهذه الميزة الاصلية الثابتة تجعل امتزاج الاجناس محالا .

من هذين التصريحين ، نستخلص أن بعض المفكرين الغربيين يضعفون ازاء ارستقراطية ثقافية، مما ينزلق بهم عن الموضوعية . فالسيد (جرج دوها ميل) كان ، ولا شك ، ضحية خداع مخيلته ، وهو الكاتب الروائي . لانه غير متخصص في شؤون الشرق . لكن توجد جماعة من المستشرقين ، ذوى اتجاه جامعي محترم ، لهم آراء في موضوع حديثنا ، نرى من المفيد ان نقف عندها قليلا . من هؤلاء الاساتذة (ماكدونالد Macdonald الامريكي . و (جيب Gibb) البريطاني . و (بيلا Pellat) الفرنسي . فأحكام هؤلاء الاساتذة جديرة بالعناية لما لهم من اختصاص.

* * *

حاول الاستاذ (جيب) ، في كتابه **« الاتجاهات الحديثة في الاسلام »** (٥) ان يبرز القاسم المشترك لدى مفكري الاسلام ، على اختلاف أجناسهم ، فكانت النتيجة هي أن الذهنية الاسلامية تمتاز بـ L'atomisme « الذراتية » (٦) .

فما هذه « الذراتية » ؟

يجيب الاستاذ (جيب) بأنها نزعة الفكر الاسلامي الى اعتبار المفاهيم.وظاهرات الطبيعة واحداث التاريخ ، منعزلة متفرقة يعني ان الفكر الاسلامي غير قادر على عمليات التركيب (نفس نظرية رونان ودوها ميل ... ولكن في قالب آخر !) .

ويرى (جيب) أيضا ، أن المعرفة ، بالنسبة لجمهرة طبقة المثقفين المسلمين تنقصها القوة الديناميكية لانها لا تزال (حتى أيامنا هذه ، مهلهلة وغير مجهزة ، وذراتية ، (انظر ص ٨٩) .

هل تلك هي خصائص الفكر العربي الاسلامي ؟

فلنفرض أن هناك ميلا ، في فكر انسان ما الى « الذراتية » فهل معنى هذا أن ذلك الفكر معاد بطبيعته ، لكل قابلية للتركيب ؟ هل توجد « ذراتية » محض ، مطلق ؟

اذا أجيب بنعم ، استنتجنا أن صاحب الفكر الذراتي ليس بانسانا ، وانما هو كائن ينتمي الى جنس من الحيوانات التي تفرعت عن غصن عام كان يضم ، من بين ما يضم، الجنس البشري . لقد تأنسن وتطور الجنس البشري ، لكن جنس الذراتيين وقف عن التطور . لانهم من اخوة أو ابناء عمومة الحيوانات العليا . مثل الشامبانزي ، واصناف اخرى من القردة ... وما اخالني مبالغا في استخلاص هذا النتيجة !

من المنهجية العلمية المعاصرة ، أو المنطق الحديث ، يتحقق لدى الباحث أن التحليل والتركيب عمليتان متكاملتان : فليس التحليل غاية في ذاته ، وانما هو وسيلة من وسائل البحث ، أو على الاصح ، جانب (وان كان جانبا اساسيا) من جوانب كل منهج يقصد تحليل شيء ما الى عناصره ، أو تقليص معطى من متشعب المعطيات الطبيعية أو الذاتية ، الى مكوناته البسيطة . اما التركيب فهو العملية المضادة :الذهاب من العناصر ، أى من البسيط الى المعقد . فالتركيب يستلزم التحليل ، كما أن التحليل لا يحقق أهدافه الا بتكامله مع التركيب .

ربما اعترض علينا الاستاذ (جيب) بأنه ، وان كان لا ينكر التكامل والاستلزام بين التحليل والتركيب ، يرفض شرحنا لاننا نفرض مسبقا ، قدرة الفكر العربي الاسلامي على التحليل ، في حين أن « الذراتية » لا تعني التحليل . ان الاستاذ (جيب) يذهب بعيدا في تطرفه ، اذ يرى أن « الفكر » المسلم يبني عمليات (تفكيره) على انطباعات متقطعة ، غير متصلة ، لا على معاني واضحة بينة تنسجم

(٥) اعتمدنا على الترجمة الفرنسية التي قام بها (فيرنيي) باريز ، عام ١٩٤٦ .

(٦) اخترنا هذه اللفظة ، رغم ما فيها من زيغ على الاشتقاق العربي ، احتفاظا على المعنى الحرفي الذي ارتضاه الاستاذ (جيب) ، ولان « ذرية » مصطلح علمي موقر لا يلائم هنا .

فيما بينهاداخل منظومات علمية. وهذا وضع ناتج . كما يدعيه (جيب) عن انحراف اصيل فى ملكة التخيل عند العرب : ان لها « طبيعة ذراتية تنقيطية » Pointiste — ص ٩٠ —

هذه الطبيعة اللاسوية هى التى تجعل التفكير الاسلامى ، فى مظهره الصوفى يميل ، عفويا ، الى تفضيل الجانب الذاتى ، وتعلقه بتسلسل النقط الفردية الموضوعة جنبا الى جنب ، مما يجعله عاجزا عن العمليات التركيبية وينفر دائما من استعمال التحليل (ص ٩٠) .

* * *

فلنتخذ التاريخ حكما بين المدعى (الاستاذ جيب) والمتهم (الفكر العربى الاسلامى) فهو كفيل بان يعرف الاستاذ (جيب) تاريخ الثقافة العربية والى اى حد ساهمت فى نمو الحضارة الانسانية ، بفضل فعاليات التحليل والتركيب التى قام بها المفكرون المسلمون ، من القرن التاسع (اى منذ ايام الكندى ، « فيلسوف العرب ») الى القرن الرابع عشر الميلادى (ايام عبد الرحمن ابن خلدون صاحب العمران البشرى) . كما يعرف (جيب) ان الفضل فى تقدم الجبر يرجع الى اولائك المفكرين ، فهم الذين نفخوا فيه روحا جديدة ، بعد ان كان جامدا يتماوت منذ (ديوفانتس) (٧) فانتعش ودخل فىمرحلة الاكتمال .

فكلمة Algèbre الغربية (الجبر) اصطلاح وضعه الخوارزمى ، اذ سمى كتابه الشهير بـ « الجبر والمقابلة »، وهو كتاب يعد اول محاولة ناجحة فى فصل الجبر عن الحساب واعتباره علما قائما بذاته. (٨) ونذكر، كذلك ، بأن الخوارزمى هو اول من عمل جيبا حاول ان يوفق فيه بين الطرق اليونانية والطرق الهندية فى الحسابات الفلكية (٩) .

ومفكرو الاسلام ، هم **الذين ادخلوا، ايضا،** فى الرياضيات نظام المنازل ، والسلم العشرى والصفر . اخذ الغرب الارقام التسعة عن العرب وسموها « الارقام العربية » . وان اقدم نص عربى يذكر (الصفر) ويصف الارقام هى صفحات جاءت فى كتاب اليعقوبى (سنة ٢٦٩ هـ ، ٨٧٢ م) .. « واذا خلا بيت منها يجعل فيه صفر ، ويكون الصفر دارة صغيرة » (ص ٨٤) (١٠) .

هذه وقائع تاريخية لن يستطيع نكرانها احد. فعندما نسلم بها ، يلزمنا ان نسأل : هل تعد تلك المساهمة « علما » ، والذين قاموا بها « علماء » ، ام لا ؟ فالذى يشارك فى العلم لا بد له من فكر قادر على « التحليل » (لا الذراتية). وعلى التركيب لاختيار ما يصل اليه بالتحليلات !

لقد كان من الضرورى على العلماء المسلمين ان ينقلوا الى ميادين التركيب ما وصلوا اليه بالفكر « الذراتى » لان المرا لا يصبح « عالما » الا اذا اظهر القدرة على ادماج ملاحظاته واكتشافاته فى مجموع نظرى متناسق من المعلومات ، ولا نظرية دون امكانية الانتقال من التحليل الى التركيب ، والعودة من التركيب الى التحليل .

اليس البرهان الجبرى نموذجا للبرهنة المنطقية المستوفية لكل شروط العقلانية (المعادية ، طبعا ، للذراتية) ؟

ايجوز ان يعتقد عالم معاصر ان محمد البيرونى (٣٦٢ — ٩٧٣/٤٤٠ — ١٠٤٨) الطبيب الفلكى الرياضى استطاع ان يحلل المتواليات العددية دون ان يكون ، قبل ذلك ، قد كون نظرة تركيبية عن مجموع المعارف الرياضية على عهده ؟

البيرونى اول من وضح ان نصف القطر

---

(٧) رياضى يونانى الاصل ازداد بالاسكندريه حوالى ٢٥٠ م اليه ينسب اختراع علم الجبر .

(٨) للخوارزمى كتاب آخر : « صورة الارض » يصحح فيه اخطاء بطليموس فى الجغرافية .

(٩) انظر ، فى هذا الصدد ، دراسة الاستاذ أحمد سليم سعيدان ، فى مجلة الابحاث ، بيروت ج ٤ ، سنة ١٩٦٢ ، ص (٤٧ و ٤٧٢) ، ان الاستاذ الباحث يصرح بانه يكاد يجزم « ان العرب اخذوا الترقيم الهندى فى وقت كان امر الصفر فيه غير غريب عنهم » ، ثم يضيف : « خلاصة القول ان الارقام الهندية سامية الاصل ، استعملت فى الهند واستعملت فى خط التجارة البحرية بين المحيط الهندى والبحر الابيض المتوسط » .

وحدة ، واعطى الجيوب النسب التى مازالت مستعملة الى اليوم .

يقول (كانط) : « ان كل منطوق حسابى لا يعطى الا فى صيغة تركيبية » . فلو أن الفكر الاسلامى كان « ذراتيا » محاسبا بعمى فى كل ما يتصل بالتركيب ، كما يدعيه (جيب) لما احتفظ تاريخ العلم بأسماء لامعة ، مثل الخوارزمى وأبى الوفاء ، اللذين عملا على تقدم علم المثلثات . وجابر بن افلح الذى اصلح « المجسطى » لبطليموس . أما الادريسى (٤٩٣ — ٥٦٠/ ١١٠٠ — ١١٦٥) فقد أبدع الجغرافية الرياضية ...

* * *

نحن لا نريد هنا أن نعطى عرضا لتاريخ العلم عند المسلمين ، فهذا ليس موضوعنا . وانما ضربنا امثلة عن موضوعية ومنهجية الفكر الاسلامى لنرسلها لامعة على اسطورة « الذراتية » والعجز عن عمليات التركيب .

* * *

يبدأ العلم عندما الحجة تنادى ما — ضد — الحجة . فالتركيب . كما يعرفه (كانط) . ضرورى لنتمكن من قراءة التجربة .

لكن ، اذا كانت التجربة قراءة تفهمية ، وجب أن تشمل ، فى آن واحد ، الكل والاجزاء ، فالذى لا يحسن الا تهجى الكلمات منعزلة كل واحدة عن الباقى ، لن يستطيع ، أبدا ، أن يفهم النص المكتوب . ومن جهة اخرى ، ان فهم النص المكتوب يتوقف على فهم سابق للالفاظ التى يتكون منها . فالمؤرخ يضع مشاكل ويحاول بناء وتلفيق الاحداث ثم يقدمها كمعرفة تقريبية (لانه توجد بين الواقع وما نحكى عنه ، ثغرات : من ضياع الوثائق ، او تدخل الذاتية ، والتزوير فى الشهادة ...) وعلى العكس من المؤرخ ، أن العالم لا يضع مفاهيم مكان « ما — قد — وقع » ، بل يلاحظ « ما — يقع فعليا » ، يلاحظ المعطيات الحاضرة . يشاهدها الواحدة تلو الاخرى ، فيحللها ، ثم يقارنها مع ما كانت عليه ، فى نظرة عامة ، تركيبية .

من هنا ، نرى ، الى أى حد ، أن نظريات الاستاذ (جيب) ، ونظريات بعض الغربيين غير واقعية ولا موضوعية ، خصوصا اذا تعدت ميدان الملاحظة الى ميدان احكام القيمة .

* * *

لا يكتفى الاستاذ (جيب) بمحاولة اثبات الذراتية العربية الاسلامية ، بل يضيف بأن « الطريقة التحليلية حديثة العهد فى عالم الفكر الاسلامى . فمن العسير عليه أن يتحرر من سيطرة الذراتية الالفية ... » (ص ٩١) .
فلا أمل لنا ، اذن ، فى الالتحاق بالنوع الانسانى بل سنبقى جنسا من الحيوانات ، بين الجنس البشرى وجنس القردة .. قضى الامر !

* * *

نجد شيئا يشبه « السيطرة » المذكورة كذلك فى كتاب السيد (جورج دوهاميل) ، وقد تحولت الى عدم مقدرة وعاهة من عاهات الفكر الشرقى . فلننظر الى السيد (دوهاميل) وهو يرتب أنواع الفكر البشرى :

« ان شعوب الشرق تظهر جليا ، بواسطة موسيقاها الاحدية النغمة ، عدم كفاءتها على متابعة أكثر من نغم ، فى آن واحد ، وبالتالى عدم كفاءتها على متابعة أكثر من فكرة فى آن واحد ، فى حين أن شعوب الغرب يقدرون على أن يفهموا وأن يتذوقوا أفكارا كثيرة ، وأنغاما كثيرة ، وجوانب مختلفة تجمع وتقدم طبقا لقوانين الهارمونية » (ص ٣٦) .

فما معنى هذا الحكم ؟
يدعى الاكاديمى المحترم :
اولا : ان الذوق الفنى ، فى الموسيقى على الخصوص منعدم ، او مصاب بعطب لدى الشعوب الشرقية .
ثانيا : ان هذا العطب ناجم عن عاهة ذهنية الشرقيين أو ان العطب والعاهة متصاحبتان متلازمتان .

لا شك أن السيد « دوهاميل » كان ضحية لبعض الغموض **والالتباس مما ينزلق بالقراء** الى تأويل حكمه تأويلا عنصريا (١٠) .

---

(١٠) رغم تصريحه ، فى نفس الصفحة : « ان الفرنسيين يشمئزون وينفرون ، طبيعيا ، من كل خلط يمكنه أن يؤدى الى الغموض » (ص ٣٦) .

فمجمل كلام الدكتور (دوهاميل) ان للغرب ميزة لا تقاس ، وهى الثروة الهائلة من الذوق والفكر ، ثروة خاصة بالغربيين ، دون سواهم فليس على الشرق الا أن يقنع بما قسم الله له، طبعا ، مثل هذه الاحكام تحمل فى طيها ، ضمنيا انه لا حرج على الغرب اذا استعمل السلاح دفاعا عن حضارة الذوق السليم والفكر الخصب ، التى هى ملك للغرب ، وللغرب وحده . فلنصح ، اذن ، مع (رينان) ، مرة اخرى : « ان المستقبل لاوروبا ، ولاوروبا وحدها ! » . ولنقل للباقى من الشعوب : « موتوا بغيظكم ! »

* * *

اذا قارنا بين هذه الاستنباطات العجيبة والاحكام القطعية التى يصدرها بعض المحدثين من رجالات الغرب وبين ما كتبه بعض قدماء مفكرى الاسلام عن مفكرين اجانب عنهم جنسا ، ودينا ، ولغة ، اكبرنا الانصاف والتسامح . فلنتمعن هذه السطور التى كتبها ابن رشد عن ارسطو . انها اعتراف واعجاب بـ« المعلم الاول » ، فلا نرجسية ، ولا عنصرية ، ولا صليبية ، وانما الحق فوق كل اعتبار ، يقول ابن رشد ، فى مقدمة كتاب الطبيعة :

« مؤلف هذا الكتاب هو ارسطو (...) واضع المنطق والعلم الطبيعى وما بعد الطبيعة، اقول : انه مرتب تلك العلوم ومقرر قواعدها، لانه لا قيمة لما كتب عنها قبله . فهو اول من رتب مسائلها ، واحسن بسطها ، حتى فاق من تقدمه . واقول : انه متمم هذه العلوم ، لان كل الذين جاءوا بعده اخذوا فيها غلطا . فمن العجب ان يجتمع ذلك كله لانسان واحد . فهذا الرجل العجيب جدير ، بما جمع الله فيه من الحكمة ، بأن يسمى الرجل الالهى » .

* * *

اننا لا ننكر مطلقا ، ان مناهج البحث تختلف من عصر لآخر ، ومن علم لآخر . ولكن هناك اسسا لا تتغير ، بدونها ما كان بحث ولا منهج ولا علم : مثل تلازم التحليل والتركيب فى تكاملية تامة ، والتوجيه الشمولى للبحث العلمى ... حقا ، نظرا على المنهجية تغيرات تبعا لتغيرات المفاهيم والادوات والمخابر ومختلف الوسائل التى هى فى تطور دائم ، مما يطور البحث ذاته . انه لخطأ علمى الاعتقاد بأن التفكير يسير على منهج واحد قار . بيد ان اول ما يطلب من العالم هو ان ينظر الى عناصر اى مشكل فى فردية كل عنصر ، وفى تلاحمه داخل المجموع ، وليسم هذا بـ « الذراتية » من شاء ! . فالعالم ملزم بعملية مزدوجة اساسية : فى البداية كان موضوع الرياضيات ، سواء فى الشرق أو فى الغرب ، هو الحساب والهندسة . أما اليوم فقد اتسع هذا الموضوع واصبحت الرياضيات تشمل مجموعة من البنيات ، فاضطر الحساب الى ان يغير اسلوبه عندما يريد تحديد خاصيات مجموعة رياضية ما .

فلو اتيح لكبار رياضيى العصر الوسيط ، من الشرق والغرب ان يبعثوا اليوم ، ليفتحوا اعينهم اكثر من النافذة لاندهشوا امام اسلوب الرياضيات المعاصرة ، ولاعترفوا بجهلهم لنظام البنيات الترتيبية من نوع (س — ى) مثلا ، ولبقوا مشدوهين امام نظام بنيات العلاقات التعادلية ، والبنيات الجبرية ، والبنية الطوبوغرافية . ورغم هذا « الجهل » الصريح لن يستطيع احد ان ينكر فضل اولائك الوافدين من القرون الوسطى على تقدم الرياضيات . ان الاكسيوماتيكا (١١) المعاصرة ليست فى متناول جميع المثقفين ، ولو كانوا غربيين من دم آرى صرف . **فالقضية قضية اطلاع وتعلم لا علاقة لها بالجنس ، أو الدين أو اللغة .**

* * *

فلننظر الان الى تصريح الاستاذ (جيب) عن التفكير العربى الاسلامى الذى لا يتسم بـ « التمييز والوضوح » . انه تصريح يظهر انه

---

(١١) دراسة تحليلية تسبق العرض المنطقى وهو فرع من فروع الرياضيات وترمى الى أن تحدد تحديدا دقيقا ، المسلمات والمصادرات أى كل الفروض الاولية (وهى قضايا غير بديهية ولا يبرهن عليها ، ومع ذلك يسلم بها كأساس للاستدلال فى المسائل النظرية والعلمية) .

انتقاد ، وقد قصده كذلك صاحبه ، ونحن نعتبره على العكس ، مدحا وتقديرا . ذلك ان التمييز والوضوح ليسا من لوازم النتائج العلمية الصائبة والافكار النيرة ، بل ان التجربة الوضعية الحسية هى التى تكون فى مستوى التمييز والوضوح فعندما طالب (ديكارت) بان تكون المعانى « متميزة واضحة » نظر الى القضية من جهة المنهج لا من جانب المحتوى . على أن (ديكارت) قد طالب بذلك انتقادا لاساليب البحث والتدريس المتبعة فى عصره (بأوروبا) ! . وقبل زمانه ، عند المدرسيين (الغربيين ، المسيحيين ، الآريين!) . لقد كانوا . على ما يظهر منغمسين فى « الذراتية » أو شىء من هذا القبيل كالبيزنطينيات ، فحاول (ديكارت) انقاذهم . فهو لم يفكر ، مطلقا ، فى شعوب الشرق عامة ، وشعوب العروبة والاسلام خاصة ، عندما وضع تاليفه الخالد « حديث المنهج » .

* * *

وتهمة أخرى .. الثالثة ، وليست الاخيرة :

يدعى الاستاذ (جيب) ان الفكر العربى الاسلامى يرفض الحتمية ، رفضا مطلقا .

ان الواقع هو ايضا ، « يرفض » هذه القولة رفضا باتا . للحتمية العلمية مبدأ يثبت: **ان بين الظاهرات علاقات ضرورية بحيث آن وجود اية ظاهرة مقيد بالظاهرات التى سبقتها او بالظاهرات المصاحبة لها** . اذا كان هذا هو التعريف العامى للحتمية العلمية ، يصعب ، ويستغرب ، نكران وجوده فى التفكير الاسلامى . او لم يؤسس الفكر العربى الاسلامى الادراج الرحبة التى تسلقها « علم الصناعة » كيما يصبح علم « الكيمياء » ، و « الفلك » ، و « التنجيم » ، كيما يغدو علم « الفلك » ان الكيمياء و « الفلك » يعتمدان على قوانين ، والتفكير فى « القانون » (فى القواعد المطردة) هو التفكير الضرورى فى الحتمية العلمية ! أيتهم الفكر العربى الاسلامى بـ « اللاحتمية » ، وهو الفكر الذى ساهم ، ايما اسهام ، فى نقل التفكير العلمى الانسانى من الرياضيات الفيثاغورية النظرية ، ومن الماهيات الافلاطونية، الى الجبر العلمى ؟

لقد تعرف الاطباء المسلمون على الحتمية العلمية . فالتشخيص الطبى ، يدرس الامراض ، اى **يحدد علاقات المسببات بالاسباب ،** اى بالعوامل السابقة او المصاحبة التى نشات عنها الظاهرات المرضية الحاضرة: علاقات المشروط بالشروط . فهل يتصور أن الاطباء المسلمين ، ومنهم من كانوا اساتذة الشرق والغرب فى هذا المضمار ، خلال قرون، جهلوا الحتمية ؟

فلنتامل كيف يحدد ابن سينا الطب : انه العلم الذى بواسطته نعرف حالات الجسم البشرى ، وبواسطته نحفظه فى صحة جيدة . فان كان كل علم ملزما بان يعرف أسباب المواضيع التى يهتم بها ، فان الطب ملزم ، هو كذلك ، بأن يعرف أسباب المرض والعافية .

ان كتاب « **القانون فى الطب** » لابن سينا ، ككتاب « **الكليات** » لابن رشد ، موسوعتان تعطيان نظرة عامة عن أصول الطب ، انهما نموذجان مما أحسن ابداعه الفكر الانسانى المؤمن بالحتمية (١٢) .

* * *

فى القرن الثالث عشر الميلادى قام أحد الاطباء العرب الدمشقيين (ابن النفيس) بدراسات علمية اهتدى بها الى اكتشاف الدورة الدموية الرئوية . ويوجد وصف دقيق لهذا الاكتشاف فى الشرح الذى وضعه ابن النفيس للجزء الخاص بالتشريح من كتاب ابن سينا « قانون فى الطب» .

فى ٢٣ ديسمبر سنة ١٩٥٣ تقدم الدكتور هيربان Hirpin لاكادمية الطب بباريز بمذكرة أكد فيها أن ابن النفيس قد قام باكتشافه العظيم بثلاثة قرون قبل العالم الاسبانى (**ميغيل سرفيتو** M. Servetc) **الذى**

(١٢)١٢) تقدم فى باريز ، عام ١٩٥٣ ، طالب سورىباطروحة نيل الدكتورة فى الطب ، من موضوع مهم « الدورة الدموية الرئوية » . أو « الدورة الصغرى » قبل هذا الدفاع بثلاثين سنة ، كان باحث اخر قد قدم أطروحة فى نفس الموضوع ببرلين .

احرق بجنيف سنة ١٥٣٣ .

آمن مفكرو الاسلام بالحتمية العلمية ، ومارسوا « التحليل » و « التركيب » ، اذ ليس فى ذلك ما يناقض دينهم ، بل ان الاسلام يحضهم على ذلك ، كما يوضحه ابن رشد فى صفحات نختار منها ما يلى :

« ان كان فعل الفلسفة ليس شيئا اكثر من النظر فى الموجودات واعتبارها من جهة دلالتها على الصانع ، اعنى من جهة ما هى مصنوعات ، فان الموجودات انما تدل على الصانع لمعرفة صنعتها وانه كلما كانت المعرفة بصنعتها اتم كانت المعرفة بالصانع اتم ، وكان الشرع قد ندب الى اعتبار الموجودات وحث على ذلك ، فبين ان ما يدل عليه هذا الاسم اما واجب بالشرع واما مندوب اليه .

فاما ان الشارع دعا الى اعتبار الموجودات بالعقل وتطلب معرفتها به ، فذلك بين فى غير ما آية من كتاب الله تبارك وتعالى ، مثل قوله : (فاعتبروا يا أولى الابصار) وهذا نص على وجوب استعمال القياس العقلى ، أو العقلى والشرعى معا . ومثل قوله تعالى (أو لم ينظروا فى ملكوت السماوات والارض وما خلق الله من شىء) ، وهذا نص بالحث على النظر فى جميع الموجودات ، وأعلم تعالى ان ممن خصه الله بهذا العلم وشرفه ابراهيم عليه السلام ، فقال تعالى : (وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السماوات) . وقال : (الذين يتفكرون فى خلق السماوات والارض) الى غير ذلك من الآيات التى لا تحصى كثرة .

واذا تقرر أن الشرع قد أوجب النظر بالعقل فى الموجودات واعتبارها ، وكان الاعتبار ليس شيئا اكثر من استنباط المجهول من المعلوم واستخراجه منه ، وهذا هو القياس أو بالقياس ، فواجب أن نجعل نظرنا فى الموجودات بالقياس العقلى . وبين أن هذا النحو من النظر الذى دعا اليه الشرع وحث عليه ، هو اتم أنواع النظر بأتم أنواع القياس ، وهو المسمى برهانا .

واذا كان الشرع قد حث على معرفة الله تعالى وموجوداته ، بالبرهان ، وكان من الافضل أو الامر الضرورى لمن أراد ان يعلم الله تبارك وتعالى وسائر الموجودات بالبرهان أن يتقدم أولا فيعلم أنواع البرهان وشروطها » (١٣) .

محمد عزيز الحبابى

(١٣) فصل المقال ، وتقرير ما بين الشريعة والحكمة من اتصال ، الجزائر ١٩٤٨ ، ص ١ ، ٢ .

البيئة ..

وسير التاريخ الوطني

لقبال موسى

تضافرت العوامل الطبيعية والبشرية على تهيئة بلدنا . نوميديا (المغـرب الاوسط ـ الواسطة ـ الجزائر) منذ عهد قديم ، لكي يكون مركزا من مراكز الحضارة الانسانية ، سواء فى شرق البلاد حيث مدينة (سرتـه قسنطينـة) او فى غربهـا حيث مدينـة (سيقه على مصب نهر تافنة) .

وهذه العوامل المزدوجة ، التى هيـأت لابناء الوطن ان يمثلوا منذ عهد قديم ، الدور الذى يضاهى قيمة ، واهميـة بلادهم ، هى نفسها التى فرضت عليهم أيضا مسـؤوليات محددة ، وكتبت عليهم أن يدفعوا الثمن دائما، من أجل أمن ، وراحة ، واستقلال جيرانهم ، فى بلاد المغرب ، وقارة افريقيا .

وتوسط موقع بلادنا بالنسبة لبقية أقطار المغرب العربى ، وكـونها نـافذة تطل على افريقيا ، السوداء ، ان كانت آثاره الطيبة بارزة ، فى المناخ الطبيعى ، وفى الانتاج ، وفى الاخلاق ، وفى العقليـة الخاصـة ، ثـم فى التجارب الثرية ، فان صيرورة بلادنا بحكم هذه الميزة الجغرافية ، مركز ثقل ، عرضها دائما لاشد الاخطار ، وكان الرومان من أوائل

الشعوب التى أدركت قيمة نوميديا فى هذه الناحية ، ومن ثم سارعوا الى ربط صلات ودية ، مع ملوك نوميديا ، وموريطانيا ، ومنحوهم مساعدات فنية ، وامتيازات خاصة قبل أن يبدأوا مشروع غزو قرطاجنة ، فى صميم أرضها ، وكان هدفهم فى النهاية ، الافادة من موقع نوميديا المتوسط ، لضرب النفوذ القرطاجنى وتصفيته اعتمادا على حلف ملوك المنطقة .

وعلى نفس الدرب صار الفرنسيون، حيث احتلوا الجزائر ، ومنها توسعوا سياسيا ، واقتصاديا ، وعسكريا ، فيما جاورها ، من أرض المغرب ، وافريقية . أما اشراف بلادنا عبر ساحل طويل ، على البحر الابيض المتوسط ، فانه ميزة طبيعية كبرى ، تعنى التفتح على العالم الخارجى ، والاهتمام بما يجرى فيه من أحداث ، وبالعلاقات السياسية والاقتصادية والثقافية على مستوى أوسع من اطار شمال افريقيا .

وقد افاد الملوك الوطنيون من هذه الميزة منذ عهد قديم ، حيث ربطوا صلات واسعة مع كثير من مراكز الحضارة والتجارة والثقافة فى العالم القديم . واهتموا بالبحرية ، وبناء الاساطيل بنوعيها التجارى والبحرى . وفى هذه الناحية يبرز اسم الملك ماسنيسا كأول ملك نوميدى أنشأ أسطولا قويا كانت هبون (عنابة) وصلداى (بجاية) من مراكزه . وكان الساحل الشرقى للبلاد ، يحتضن عدة مراكز ، ودور لصناعة السفن ، تحدث البكرى والادريسى ، وغيرهما من (الرحالة) على ثلاثة منها ، كانت توجد فى كل من مرسى الخرز (القالة) (بلد العناب) وبجاية

ويلاحظ أن نشأة مثل هذه الصناعة، فى تلك العصور ليس أمرا عسيرا بسبب توفر البيئة المحلية على المواد الاولية لهذه الصناعة ،

ولئن كان الموقع البحرى فيه من الميزات الطبية ما يربو على ما ذكرنا ، فانه كان ولا يزال ، نقطة ضعف بارزة ، والسبب أن جميع أنواع التسلل ، والغزو كانت تتخذ طريقها الى البلاد ، عن طريق البحر ، فالرومان ، والوندال ، والبيزنطيون ، وعنصر النورمان والاتراك العثمانيون ، والفرنسيون ، جميع هؤلاء نفذوا الى داخلية البلاد ، وسيطروا عليها حينا من الدهر ، بواسطة البحر . ولو لم تتوفر البلاد على مناطق عزلة مثل الصحراء ، ومعاقل حصينة مثل الكتل الجبلية فى أوراس ، وجرجرة (جبال الحديد) والونشريس ، وبابور وشمال قسنطينة ، وبو طالب فى الحضنة ، لكانت وجهة البلاد غير التى نراها ونعيشها الآن .

فالكتل الجبلية كانت دائما مهدا لانقى صور القومية فى مراحلها الاولى . ومنها كانت تنطلق المقاومة الوطنية ، للتيارات الاجنبية المختلفة ، منذ عصر القرطاجيين ، الى نهاية عهد الفرنسيين .

وفى ظل ما توفره من حماية ومناعة للعناصر الثورية ، كانت البلاد لا تستكين لاى طارىء جديد ، الا بمقدار ما تهيء نفسها ، وتعبىء قواها ، ومواردها لاقصائه عن حوزتها .

وهكذا نلاحظ أن انطلاق الشرارة الثورية الاولى من أوراس نوفمبر ١٩٥٤ وانتشار لهيبها فى جرجرة ، والونشريس وشمال قسنطينة ، كان منسجما مع الدور التاريخى لهذه الظاهرة الجغرافية ، وحلقة أخيرة فى سلسلة حركات المقاومة الوطنية للاحتلال الاجنبى منذ عصر قديم . أما الصحراء فكانت أيضا مركز ايواء وراحة للمقاومين ، اذ كان رجال المقاومة منذ القديم يعتصمون بها ، وبالمناطق الداخلية فى البلاد ، التى كان لا يجرؤ المحتلون قبل الاتراك والفرنسيين على التوغل فيها لملاحقتهم ، بعد أن يقوموا بواجبهم ضد مراكز النفوذ الاجنبى المنتشرة فى السهول ، والهضاب ، أو على السواحل . وكان الجيتوليون ، وهم سكان الصحراء قديما يهيؤون لعناصر المقاومة من نوميديا ، وموريطانيا ، فى أرضهم ، مكانا أمينا وحرزا حصينا للراحة وللتموين ، ولمعاودة الهجوم .

وتظهر اهمية الصحراء فى تاريخ بلادنا ، فى الميادين الثقافية والحضارية عموما ، اذ أصبحت منذ القديم معبرا للتيارات الشرقية السامية ، ومنها الاسلام ، واللغة العربية ، وجميع مظاهر الحضارة الاسلامية ، التى

نعيش الان على فيضها الزاخر ، ونتغذى من تراثها الغنى المتجدد تجدد الحياة . وعن طريق الصحراء ايضا . تكونت الصلات التاريخية . بين المغرب الاوسط . ومجموع افريقية الزنجية . اذ هاجرت منها جماعات واستقرت في بلادنا كما انطلقت من تاهرت . وورقلة وواحة توات . البعثات . والهجرات وخرج الرواد والسفراء والرحالة الى مناطق من افريقية الغربية منذ عصر الرستميين . وآثار هذه الحركة ما زالت ملحوظة هنا وهناك . في أصول السكان وفي الوانهم : وفي ثقافتهم واديانهم وعاداتهم . وحتى في مظاهر لباسهم .

وعبر طريقين تاهرت . عبر سجلماسة الى مملكة غانة القديمة ثم ورقلة عبر غدامس الى النيجر وغيرها . نفذت القوافل التجارية من المغرب الاوسط . فدخلت أودغشت وغانة ، (أسم مدينة ومملكة) . وتمبكتو (أسست ١١٠٠ م وهى فى جمهورية مالى) . ومع هذه القوافل كانت تنتقل مختلف التيارات الثقافية والاجتماعية والعقائدية . ومن المعروف عن التجار والرحالة المسلمين فى العصور الوسطى انهم كانوا دعاة ، ومعلمين ، وقد اثمرت جهودهم السلمية فى مد رقعة الاسلام . الى أماكن ، من افريقية ، وآسيا ، وأوروبا ، لم تطرقها حملات الفتح الاسلامى حتى فى عهد الاتراك العثمانيين . ومن هؤلاء الرواد الوطنيين عبد الكريم المغيلى (١٥ م) الذى بذل جهودا مشكورة فى كشف أساليب اليهود فى واحة توات . وفى تنوير الطريق أمام الحاج أسقيا ، رأس أسرة الاسيقيين فى مالى . اذ افتاه فى مسائل كانت تشغل باله حول واجب الحكام المسلمين . فى محاربة البدع ، والعادات المخالفة للدين . والقيام بالامر بالمعروف والنهى عن المنكر . وكان لهذا الرائد الجزائرى نشاط آخر . فى بعض مناطق نيجريا . (كانو) حيث يحتفظ مسلموها له . بذكريات حميدة ويعتقدون فيه الولاية : ويخلعون عليه كل مظاهر التشريف . وحياة المغيلى . التى تحتاج الى عناية . تقوم برهانا على أن الاسلام لا يعرف حدودا كما لا تثنى عزم رجاله . صعاب ، فى سبيل أداء رسالته ونشرها فى الافاق البعيدة .

وهذه الصحراء التى كنا نتصورها مركز عزلة وخلاء . كانت فى العصر القديم والوسيط ، بفضل الرواد ، والرحالة . والقوافل التجارية ، مركز وصل . وعمران ، وطريقا لاهم تجارات العالم فى العصور الوسطى ، وهى تجارة التبر (الذهب غير المضروب) الذى كانت توجد منابعه الاصيلة فى مناطق من السودان الغربى . وكان التجار ، يحملون الى هذه البلاد عبر تاهرت . أو ورقلة ، منتجات البيئة المحلية ، ومن اهمها الملح ، الذى يستخرج من السباخ ، والملاحات . ويجلبون منها ، التبر ، وريش النعام ، وأدوات الزينة المحلية .

وقد لاحظ الرحالة : البكرى ، والادريسى ، والقزوينى . أن سلجماسة (تافلالت) وهى باب السودان الغربى ، ومحطة صحراوية كبرى لتجارة التبر ، كان سكانها يتبايعون فى الذهب جزافا بدون وزن ، بينما يتبايعون فى الكراث بالوزن .

وبسبب هذه السلعة الهامة ، تمكن سكان سلجماسة من انشاء نظام سياسى قار ، احتفظ بقوته حتى ظهر الصراع الحاد بين الامويين فى قرطبة (الاندلس) والفاطميين فى المهدية (تونس) من اجل السيطرة على طرق تجارة السودان ، وعندئذ انتاب امارة سلجماسة ، الضعف وتداولها الامويون والفاطميون الذين اثروا من تجارة التبر ، ومن رسوم العبور بدرجة أن آخر حملة وجهها الفاطميون ضد مصر الاخشيدية كانت تصحب معها الفا وخمسمائة حمل من الذهب المضروب . اما المعز لدين الله رابع الخلفاء الفاطميين فى المغرب ، فقد سبك الذهب المخزون عنده ، على هيئة طواحين ضخمة ، وصحبها معه عندما ترك بلاد المغرب نهائيا الى مصر .

وحادث الانتقال الى مصر كان يعنى ان طرق التجارة مع السودان الغربى ، اصبحت تحت اشراف الامويين ، وانصارهم فى سجلماسة .

ويلاحظ ان موقع بلاد الملثمين الصحراوية عبر طريق التبر ، هو الذى اتاح لهم ان يلعبوا دورا رئيسيا . فى حياة شمال افريقية وبلاد

السودان،من النواحي الاقتصادية والسياسية والدينية .

وعندما انحلت قبضتهم القوية ، بسبب انغماس بعض سلاطينهم . في الترف والنعيم، في المغرب ، والاندلس ، اخذ زمام الامر منهم، المصامدة الجبليون الذين ورثوا دورهم واهميتهم في مناطق السودان وفي المغرب العربي .

واهتمامهم بتوفير الامن ، وبالاشراف على الطرق التجارية ، انعكست آثاره في الارباح الوفيرة ، وفي مظاهر الرخاء ، التي استغلها الموحدون ، في بناء الاساطيل التي ظهر غناؤها في نجدة مسلمي الاندلس ضد الاسبان الشماليين أثناء حركة الركونكستا (حركة غزو مضاد ضد المسلمين) ، وضد غارات النورمان المخزية على طول سواحل شمال افريقية .

وقد كانت الرغبة في الحصول على التبر ، والسيطرة على منابعه في السودان ، هي احدى الدواعي وراء حملات السعديين وسلطانهم احمد المنصور ، الذي عرف بسبب ذلك بلقب الذهبي .

وتأمل هذه الاعتبارات التي اسلفنا الحديث عنها ، يقود حتما الى التسليم بأن بلادنااسهمت، في اقتصاديات العالم الافريقي ، وفي الحضارة الانسانية ، والاسلامية منها ، اسهاما معقولا، وكان لبعض رجالها منذ القديم أدوار رئيسية وتأثير ، تجاوز في أحيان كثيرة ، نطاق الحدود التقليدية للمغرب الاوسط ، فمثلا ، صراع ماسينيسا وصفاقص ، من اجل هدف سام هو الوحدة الوطنية ، الذي حمل كلا منهما على التماس حليف يساعده ، سرعان ما تحول الى حرب دولية ذات صبغة عامة اشترك فيها الى جانبهم الرومان والقرطاجيون .

أما يوغرطة الذي اقتنع بأهمية الوحدة الوطنية ، والاستقلال السياسي والاقتصادي، وتنبه الى الدور التخريبي الذي تقوم به الجاليات والعناصر الاجنبية ، في سرتا (قسنطينة) وغيرها من حواضر نوميديا ، فقد قاوم الرومان ، وصفى العناصر الاجنبية وقضى على الانهزاميين . وعلى نفس الخط سار الامير عبد القادر

وكان للقديس اوغسطين ، وليد سوق اهراس (تاقست) أهمية في ميدان الفكر تجاوزت الوطن والامبراطورية الرومانية ،الى أوروبا العصور الوسطى . حيث كان كتابه « مدينة الله » الذي يحمل سمات البيئة الوطنية شرارة أيقظت العقول ، واضافت جديدا .

وهذا الشاعر الزناتي بكر بن حماد التاهرتي ، كان انتاجه الشعري الرفيع الذي يحمل تأثيرات البيئة الحضارية في عصر الرستميين ، يجعله في مصاف فحول الشعراء في العصر العباسي ، لا غرابة اذا نال اعجاب المعتصم العباسي ، فأجزل له الصلات .

أما ابن خلدون فرغم انه عربي من حضرموت اصلا ، الا ان البيئة الجزائرية بجاية وتلمسان ، هي التي كونته وهيأت له الظروف الصالحة كي يظهر ولاول مرة . في عالم الفكر وفي ميدان الدراسات الاجتماعية والحضارية، بقوانين مبتكرة ، صاغها في مقدمة كتابه الكبير « العبر وديوان المبتدأ والخبر » . وكانت تعتبر في وقتها ، وحتى تطور الدراسات الاجتماعية في العصور الحديثة ، كشفا جديدا

أما المقري (مقرة — ولاية الاوراس) . وآل الطبني (طبنة قرية بريكة) ، والونشريسي — وآل العقباني (تلمسان) ، الذين كانوا من صميم البيئة الجزائرية ، وازدهروا في الاندلس او في فاس ، أو في مصر ، حيث كانت لهم فروع ، وبقي لهم انتاج طيب ، فيعتبرون جميعا ، مفخرة للبلاد التي انتسبوا اليها بأصولهم ، لان آثارهم تحمل تأثيرات البيئة الاصلية .

ومن ثم فالبلاد التي أهلتها الطبيعة لان تكون على هذه الصورة ، ويبرز فيها رجال على هذا المستوى ، لا يصح قطعا ان يقال عنها أنها « الشخصية السلبية » . الا من طرف مؤرخي الاستعمار ، كي يبرروا علة وجودهم الاستعماري فيها ، وليتظاهروا امام غيرهم ، بأنهم هم وحدهم الذين اكتشفوا هذه

البلاد ، ومنحوها ميزاتها المعروفة .

ولاعتقادهم فى هذا الراى ، ولرغبتهم ، فى حمل الناس على الاقتناع به . جانبوا الصواب . وأغرقوا فى الافتراء وبالغوا فى التشويه ، ومن ذلك : .

اطلاقهم على كل الثورات الوطنية ضدهم- حتى ثورة نوفمبر ١٩٥٤ م صفة التمرد والعصيان ، كى يجردوها من دوافعها القومية ، أو نوازعها الدينية والاجتماعية .

ثم تصورهم بأن التناقض دائم . بين سكان الجبال . وسكان السهول ، بين الداخل ، والساحل أو بين الشمال ، والجنوب ، كما ان العداء مستمر . بين البترا ليرانس ، اى بين المستقرين من السكان وبين الرحل منهم .

والهدف من ذلك كله : انهم الذين أوجدوا التوازن بين الظواهر المحلية ، وبين السكان ومهدوا السيادة والامن والاستقرار حسب زعمهم .

— ثم محاربة اللغة العربية ، بحجة انها ليست لغة البلاد . وليست لغة حضارية !! والهدف من ذلك عزل السكان عن ماضيهم العربى الاسلامى — وتحويرهم للالقاب ، والكنى . والاسماء العربية ،واشعار السكان بانهم لا ينتمون الى العربية ، على نحو يثير الاستغراب والاسف . لبعدها عن الاشتقاق ، وهجنتها ، الهدف منه : التشويه واشعار السكان بانهم لا ينتمون الى العربية حتى فى شكل القابهم وكناهم .

واما نشاطهم فى الناحية الدينية ، فكان له مظاهر كثيرة : منها ارسال البعثات التبشيرية الى الاماكن النائية ، والمنعزلة خاصة ، تحت ستار القيام بالخدمات الاجتماعية ، والهدف : تخذيل الناس عن دينهم ، وزعزعة ايمانهم .

ويلاحظ ان مظهر بعض مدننا كما خططها المستعمرون يوحى احيانا بأن البلد مسيحى اذ اول ما يرى الإنسان من بعد برج الكنيسة والصليب . كذلك تكثر الكنائس ، وتتركز فى أماكن حساسة حتى فى القرى ، بينما نلاحظ قلة المساجد وعزلتها حتى فى بعض المدن والحواضر الكبرى .

واذا كان تأثير البعثات التبشيرية ، ظل محدودا ، فى العهد الاستعمارى ، لتغلغل الروح الدينية وقوة المنعة الذاتية ، واقتصر على قلة من الفقراء والايتام ، وبعض ضعاف النفوس . وظهر فى اتخاذ بعض النساء لعلامة الصليب وشما ، بقصد طرد العين عن الاولاد كان الخطر فى نشاط هذه البعثات ، قوى فى وقت اصبح فيه الوعى الدينى ضعيفا ، والتوجيه الاسرى منعدما ، مع هذه الحرية المطلقة التى يتمتع بها شباب اليوم .

— أما مظاهر التشويه فى الحياة الفكرية ، فمنها اعتقاد البعض بأن المغرب الاوسط على عكس المغربين الادنى والاقصى ، كان باستمرار بؤرة جهل ، وخلوا من سمات الثقافة الرفيعة ، انسياقا وراء مظاهر شكلية وتجاهلا لحقائق الاشياء . والحقيقة أن الظروف الصعبة التى مر بها وطننا ، الذى كتب عليه أن يتصدر الاحداث منذ عصر الرومان ، ويمتحن بقوى الغزو وينتصب ، جبارا للدفاع عن مقدساته وعن الحق ، والعدل ، هى التى كانت سببا فى ضياع تراثه منه ، وهجرة رجاله المثقفين الى بيئات اخرى مجاورة .

ويلاحظ أن وطأة الوندال ، وتخريبهم لمظاهر الحضارة والعمران ، كانا فى نوميديا بسبب كونها نقطة ترسب لهؤلاء المغامرين . من بربر اوربا الذين اضحى اسمهم مرادفا للوحشية والهمجية (القند الزم) ، اللتين لم تفقهما غير همجية المغول (التتار) فى بلاد الشرق الاسلامى .

— اما ما انتجته البيئة الجزائرية فى عصر الرستميين الاباضية ، وكان شيئا معتبرا ، فقد تلف اكثره فى عصر الفتن الداخلية بين أواخر الرستميين ، وما بقى اخذه الشيعة الفاطميون وضموه الى خزائنهم ، أو احرقوه

وما زخرت به البيئة فى عصر الفاطميين تولى نقله هؤلاء ، مع بقية ذخائرهم الى مصر

عند استقرارهم فيها ، وما بقى يحمل تأثيراتهم اتلفه المخالفون لهم من أهل السنة ، وفقهاء المالكية خصوصا فى القرن (٥ هـ) ، الـذى يعرف بانه عصر محنـة الشيعـة ، ونهضة السنة فى بلاد المغرب العربى . أما انتاج ابناء الوطن فى عصور بنى زيـرى وبنـى حمـاد الصنهاجيين وبنى عبد الواد الزيانيين والاتراك العثمانيين ، فقد توزعته بيئات كثيرة ، ويوجد منه فى خزائن المغـرب الاقصى ، وتونس ، وتبوسراى باسطنبـول وفى دور المحفوظات ببعض جامعات فرنسا . أما النزر اليسير منه فيوجد فى المكتبة الوطنية .

وتتوفر الـزوايا ، والمكتبـات الخـاصة بالاسر ، وبالاشخـاص على آثار خطية من انتاج علماء وطنيين فى عصور مختلفة ، وفى قرية (بنى يسجن) قرب غرداية ، تـوجد مكتبة قطب الائمة اطفيش وهى تشتمل على بعض الاثار التى لا تخلو من أهمية .

ويلاحظ أن بيئة المغـرب الاوسط ، كانت منذ القديم مهدا لنشـأة الحركـات المذهبية والاجتماعية فعلى أرضها ازدهـرت الحركة الدونانية ، التى كانت حركة مقاومة للنفوذ الاجنبى فى شكليه السيـاسى والمذهبى كما ازدهرت الحركـة الخارجيـة ذات النزعة الجمهورية ، التى نجحت بمساعدة السكان ، فى تأسيس نظام سياسى مذهبى مستقـر فى تاهرت ، سرعان ما تحول الى شكل امـامة كبرى ، فأصبحت البلاد بواسطة هذا التطور مركز جذب جميع فئات الخوارج الابـاضية والصفرية ، من تونس ، وسجلماسة ، وليبيا ، وبلاد المشرق . وكانت هذه الامامة عنـوانا على نجاح التجربة الاستقلالية الاولى فى بلاد المغرب الاوسط فى العصر الاسلامى .

وكانت هذه الامامة أيضا ، بمثابة الدليل الحى على الروابط القومية التى يجب أن تكون وتستمر بين المشرق العربى وبلاد المغـرب لا سيما ، جزءه الاوسط . والى جانب حركة الخوارج ، يلاحظ أن بيئتنا احتضنت الحركة العلوية الشيعية ، التى تقوم على مناصرة آل البيت وحمايتهم ، وتـأييدهم ، لاسترجـاع حقهم فى الخلافة ولذلك تبدو نزعتها ملكية لانها تستمد حقها فى الخلافة من — نسبتها للرسول (صلى الله عليه وسلم) . وكان لابناء كتامة (شمال قسنطينة) دور كبـير فى اقامة مجد العلويـين فى أرض المغـرب ثم فى المشرق ،

وطننا الذى يستقبل أبناء فلسطين ، ويؤيد قضيتهم ، ويفتح أرضه للمضطهدين ، ولرجال حركات التحرر ، ينسجم مع ماضيه فى الوفاء للمبادىء الصحيحة ، وفى الوقوف الى جانب أصحابها ، والمدافعين عن الحق والعدل .

ودعوة بـلادنا الى وحدة المغـرب العربى ، كخطوة أولى نحو بناء الوحدة العربية الشاملة ليست وليدة الظروف الانية ، وانما هى ذات **أصول موغلة فى القدم ، اذ انطلقت الدعوة اليها من قلاع شمال قسنطينة ، وتبنتها كتامة ودفعت ابناءها وزهرة شبابها ليكونوا جنود الوحدة ، ووقودها ، وحربا على التجزئة فى** شتى **مظاهرها ، وهكذا أصبح المغرب العربى وبلاد الحجاز ، ومصر وبلاد الشـام وحدة سياسية مركزها القوى فى القاهرة المعـزية وجنودها الحارسون لها : هم أبنـاء كتامة وصنهاجة ، وهم من قبائل المغرب الاوسط.**

ولقد حافظ الزيريـون (صنهاجة) على طابع الوحدة المغربية ، من طرابلس الى سبتة كما احتفظوا بالروابط التاريخية مع الفاطميين فى مصر .

وعندما بدا أن الفـاطميين انغمسـوا فى شؤون المشرق ، واصبحوا لا ينهضون بواجب المحافظة على هذه الوحدة ، واصل الزيريون مهمتهم حتى ظهر من ابناء الوطن موحد جديد ، انجبته كومية (دائرة ندرومة) فنهض بالعبء وواجه الاخطار الاسبانيـة والنورمانية ضد المسلمين فى المغرب والاندلس ، وحافظ على

الوحدة كما كانت ، وكـــان يمكن لخلفاء عبد المؤمن بن علي ، أن يقدموا الكثير للمسلمين في مصر والشام ، اثناء الحـــركة الصليبية ، لولا تاثر ابي يعقوب المنصور من معاملة صلاح الدين الايوبي ،الذي ارسل اليه يطلب النجدة ولم يخاطبه بلقب أمير المؤمنين .

وبذلك لم يقـــدر لهـــذه الدولـــة المتيـــدة (الموحدية) أن تشترك رسميا ، في المجهود ضد الصليبيين وأن تمكن كثير من رعاياها ، من مد العون والمســـاعدة لاخوانهم في مصر والشام ، بالاشتراك في حركـــة الجهاد ، او بمراقبة أساطيل الاعداء ، وبتعطيل ما يمكن تعطيله منها ، او بارسال اخبار عن تحركات الحمـــلات ، والجيـــوش والاستعـــدادات الصليبية ، الى اخوانهم في مصر الايوبية .

ويلاحظ ان حركة الضغط التي واجهها مسلمو المغـــرب من طـــرف الاسبان في الاندلس ، والنورمان في صقليـــة ، كـــانت هي البداية الحقيقية للحركة الصليبية ضد دار الاسلام في الجناح الغربي ، ومن ثم صرف المسلمون، هنا ، وعاقتهم حركة الاعتداء عن الاشتراك الفعال في المجهود الحـــربي ضد الصليبيين القاسيين في المشرق العربي . وان امكنهـــم فيما بعد ، أن ينزلوا هزيمة ساحقة ، ببعض هذه الحملات الصليبية التي تحاشت ميدان مصر والشام ، وحطت رحـــالها في تـــونس الحفصية .

والخلاصـــة :

ان العوامل الجغرافية التي كانت عايقـــا ضد الغزاة المعتديـــن ، وعونـــا للوطنيين لعبت أيضا دورا كبيرا في التوجيه السياسي والاقتصادي والثقافي والعرقي لسكان بلادنا منذ عهد قديم فأملت عليهم أن :

— يهتموا بأدوات الدفاع والهجوم برا وبحـــرا .
— ويتصدروا الاحداث ، ويمثلـــوا ادوارا رئيسية على نطـــاق المغرب وافريقية .
— ويكـــونوا حراسا عـــلى المبادىء السامية ، ومعـــنى ذلك أن يقبلوا التضحية لفائدة الاخوان والجيران .
— ويبقوا متفتحين على التيارات العالمية في الشرق والغرب .
— ويقبلوا الدفاع عن الحق والعدل ، والهجـــوم ضـــد قـــلاع الظـــلم والاستعمار .
— ويسهموا في تحقيق الوحدة العربية في أي صورة من صورها الناجعة .
— ويشاركوا في انعاش اقتصـــاديات المنطقة ، وفي ازدهار ثقافتها بقـــدر معقول .

لقبال موسى

أستاذ التاريخ بجامعة الجزائر

مسرحية

يسقط الروتين

محمد أبو القاسم خمار

الإهداء الى :

كل الصدائيين الفلسطينيين مناضلين متمردين فوق أرضهم المقدسة

يقوم بالادوار اربعة اشخاص .

المشهد الاول :

الـروتين ــ اسمعـي ايتهـا القضيـة الشائكـة .. مـن سمح لك بالدخول الى قصرى .. الـم اقل لك كـم مرة انني غارق فى

مشاكلى ؟ وليس لـدى الوقت لمقابلتك . ! .. الم تسمعى هذا .. والان هيا .. اغربى عـن وجهـى .. اخـرجـى .

القضيــة ــ (**تمثلهــا فتــاة**) .. ولكننى ياسيدى الروتين .. لقد جئتك فى امر هام .. ولولا انك الوصى ، على ، لما دخلت قصرك

الروتين ــ انك مازلت قاصرة ايتهـا القضية ، وباعتبارى الوصـى عليك ، فاننى آمرك بالخـروج حالا من قصرى .

القضية ــ قلت لك لقد جئتك فى امرهام.

الـروتين ــ (بغضب) وانا قلت لك : انك قاصرة وهذا يعنـى انك لا تستطيعين التفريق بين ما هـو هام ، وما هو غير هـام ، ... اننى انا الوحيد الذى احدد اهمية الامور ، ... اخـرجـى ..

القضيــة ــ انها مسألة موت اوحيـاة يا سيدى الـروتين ..

الـروتين ــ اعرف ذلك .. انك مريضة .. ولقد ارسلت الى الخـارج بمـن يأتيك بأطبـاء مختصين ليعالجـوك اخرجى ..

القضيــة ــ اننى لم ادخل قصرك بسبب المـرض ..

الـروتين ــ اذن .. ما هـى اسباب قـدومك ... تكلمـى .

القضيــة ــ لقد جاءتنى رسالة تهديـد من احد المجرمين يقول لى فيها: اما ان ارضى به زوجـا لـى او يقتلنـى .

الـروتين ــ (بتعجب) .. جـاءتك رسالة تهديد .. ! تولى رسالة خطوبة .. ؟ من ارسلهـا لك ؟ اعترفـى .

القضيــة ــ ارسلها لى : قاتل ابـى .

الـروتين ــ تقصدين الاستعمـار .. ولكنه أصبح عجوزا لا يقدر على الزواج .. خـاصة مـع بنت صغيرة ؟ مريضة مثلك .

القضيــة ــ انه لا يريد ان يتزوجنـى هو نفسه ، ولكنه يريدنى لاحـد ابنائه المجرمين ..

الـروتين ــ هل سمع اخـوك الشعب بقصـة هذه الـرسالـة .. ؟

القضيــة ــ نعم يا سيدى الروتين .. سمـع ...

الـروتين ــ (بغضب) ومن اخبره بها .. انت ؟ ..

القضيــة ــ لا .. لقد عرف ذلك مـن تلقاء نفسه ؟ وبحكـم عملـه ، وتنقلاته فى كل مكان ..

الـروتين ــ (بيأس) آه ... سيفسد هذا الشعب كل شىء على .. انه جاهل .. ولا قدرة له علـى استعمال العقل والمنطق ، ومع ذلك يحاول دائما ان يتدخـل فى شـؤونـى .

القضيــة ــ ان اخى الشعب لم يقـل شيئا عندما سمع بقضية الرسالة

الـروتين — وابنه .. ! ابنـه ذلـك الذى تسمونه الثائر ماذا قال..؟

القضيـة — قال له سيقتل كل مجـرم يحاول الزواج منـى .

الـروتين — (بتهكم) يقتل كل مجرم .. وكيف يستطيع ذلك .. يالـه من شـاب مغرور ..

القضيـة — ولكن ياسيدى .. هـل لديك حلا آخر .. ؟

الـروتين — نعم .. وهـل تشكين فى ذلـك .. ؟

القضيـة — لا .. العفـو يـاسيدى الروتين ... انك صاحب الحل والربـط .

الـروتين — احسنت .. هكذا احبك عـاقلة يـاقضيـة .

القضيـة — هل استطيع ان اعرف ماذا ستفعل من اجلى حتى اطمئن .

الـروتين — ستعرفين ذلك .. ولكن بعد ان افكر طويلا فى الطريقـة المناسبة لك .. والان اخرجى..

القضيـة — متى اعود اليك لاراك ..؟

الـروتين — لا تعودى ، سـأبعث انـا لاستدعائك عندما احتاج اليك .

القضيـة — اذن .. الى اللقـاء ..

الـروتين — مع الف سلامة ياقضية ..

القضيـة — (متداركة) سيـدى ... سيدى الـروتين ..

الـروتين — (بحدة) ماذا .. ؟

القضيـة — لقد اوصانى اخى الشعب بأن ابلغك رغبته فىمقابلتك ..

الـروتين — (بحدة) قولـى لـه اننى ارفض مقابلته .. ليس لدىوقت

القضيـة — ولكنه يلح على مقابلتك .

الـروتين — يلح .. ! ياله من ملحاح .. ! قولى لـه : ليـس الان . اننـي مشغـول ..

القضيـة — متى تقابله .. غـدا .. ؟

الـروتين — لا .. ولا بعـد غـد ..

القضيـة — اذن .. متـى ؟

الـروتين — بعد عام .. قولى له بعد عـام .. هل فهمت .. ؟

القضيـة — نعم .. بعد عـام ..

الـروتين — والان .. اخرجى .. هيا .. اخـرجـى .

المشهد الثانى :

* * *

الشعـب — (ينادى) : ثائر .. ثائر.. ايـن انـت ؟ ..

ثـائـر — نعم يابـى الشعـب .. انـا هنـا ..

الشعـب — اين اختـى القضيـة .. هل مازالت مـريضة .. ؟

ثـائـر — نعم يا ابى .. انها طريحة الفراش تعانى الام المفاصل ؟ وتكاد الحمى ان تقضى عليها ..

الشعـب — مسكينـة .. اختـى .. وياليتنى استطيع ان اعمل مـن اجلهـا شيئـا ..

ثـائـر — لماذا لا تستطيع يا ابى .. انك قادر على صنع كل شىء .. حتـى المستحيـل ..

الشعب — حقا ياولدى .. اننى قادر .. ولكن هل استطيع ان اعمل بدون اوامر سيدنا الروتين..؟

ثائر — انه سيدك انت اما انا فلا .. ولكن .. لماذا لاتذهب لمقابلته ، وتطلب منه ان يسمح لك بالعمل لانقاذ حياة اختك ، ؟

الشعب — لقد طلبت مقابلته ، واعطانى موعدا لمقابلته بعدعام

ثائر — بعد عام ؟ .. يالك من رجل طيب القلب يا ابى الشعب .. ! ومن قال لك ان اختك ستقاوم المرض مدة عام كامل .

الشعب — لقد طلبت مقابلته ، قال سيدى الروتين انه سيأتيها باختصاصيين من الخارج فى امراض المفاصل ..

ثائر — وعندنا .. الا يوجد اختصاصيون .. ؟

الشعب — قال : انه سيفكر طويلا ، اختصاصيون حسب الطريقة الحديثة ، ولا يريد ان يعالجها بطريقة اجدادنا القدامى ، قال انها لا تنفع .

ثائر — ولكنه لم يجربها .

الشعب — هكذا قال الروتين .

ثائر — وبالنسبة لرسالة التهديد التى جاءتها من طرف احد المجرمين .. ماذا كان موقفه منها ..

الشعب — نعم .. انك ولدى ، ونعم حتى يجد لها حلا مناسبا بواسطة العقل والحكمة ..

ثائر — انا اخطر منه يا قضية .. طرف مجرم خطير ، والمجرمون لا يعترفون بعقل ولا بحكمة .

الشعب — هكذا قال الروتين .. !

ثائر — هكذا قال الروتين .. هكذا قال الروتين ... ! ولكن ما هو موقفك انت يا ابى .. ؟

الشعب — موقفى انا يا ولدى هو كما ترى .. قادر على كل شىء ، ولا اعمل شيئا .. اعرف كل المجرمين ، واستطيع ان أعدمهم جميعا ولكننى لا اقدم على ذلك .

ثائر — (بغضب) لماذا يا ابى .. لماذا .. ؟

الشعب — هدىء من غضبك ياولدى .. اننى ادرك انك ثائر — ولكن لا تنس اننى والدك — وانا الذى صنعتك ...

ثائر — اعرف ذلك يا ابى الشعب .. وارجو عفوك ..

الشعب — الله معكياولدى .. وقلبى معك .. اما يدى اماقدمى .. فأنت ادرى ..

ثائر — لا تتألم يا ابى .. اعتمد على .. ولا تيأس (ينادى) القضية .. القضية ..

الشعب — لقد قلت انها طريحة الفراش .. ماذا تريد منها ..

ثائر — (يعيد النداء) القضية

.. القضية .. ستعرف يا ابى ماذا اريد ..

القضية — (تتكلم بصوت ضعيف) : ماذا تريد منى ياثائر .. ؟

ثائر — اريد اوجه اليك هذا السؤال ؟ وارجو ان تجيبين بصراحة ..

القضية — تفضل .. اسأل يا ثائر .

ثائر — هل تؤمنين بما قاله لك ذلك الروتين الماطل ، من انه قادر على حمايتك بواسطة الحكمة والمنطق .. ؟

القضية — واذا كنت لا اومن مماذا سيقع .. ؟

ثائر — اجيبى عن سؤالى بكل صراحة ووضوح ..

القضية — ان الروتين هو الوصى على .. ولكننى لم اقتنع او اعترف ، ولا مرة بوصايته .. ولا اومن بمواعيده او عهوده

ثائر — اذن .. هل تسلميننى رسالة التهديد التى جاءتك لارد عليها ..

القضية — ولكنه مجرم خطير يا ثائر .

ثائر — انا اخطر منه يا قضية .. انتى ابن الشعب ..

الشعب — نعم .. انك ولدى ونعم الابن انت ، اعطيه الرسالة يا قضية

القضية — وهل سترد على المجرم بدون استشارة الروتين .

ثائر — بدون استشارته .. !

القضية — الا تخاف منه .. ؟

ثائر — لماذا اخاف .. انني اذا انتصرت على المجرم سيفرح لانه تخلص من مشاكله ؟ واذا انتصر على المجرم فالروتين لا يخسر شيئا ، وتبقى الضحية لا يخسر هى الان ..

القضية — ماذا سيكون ردك على المجرم .. ؟

ثائر — (بحماس) : سأتحداه .. فاما ان اقتله او يقتلنى .. انه لن يستطيع ان يقترب منك وانا حى .. اعطينى الرسالة ..

القضية — خذها يا ثائر .. الله معاك ..

الشعب — حالفك النصر ياولدى الحبيب ..

ثائر — الى اللقاء ؟ والموت والدمار للمجرمين ..

* * *

المشهد الثالث :

الروتين — ايها الخدم ؟ايها الحجاب .. افتحوا الابواب ودعوا الشعب والقضية يدخلان ..

(اصوات قوم يدخلون) ..

الروتين — كيف حالك يا قضية .. ؟

القضية — كما ترى ياسيدى الروتين .

الروتين — وانت يا شعب ..

الشعب — الحمد لله على كل حال ..

الروتين — لندخل فى الموضوع مباشرة

ولنتكلم حول القضيــه .

الشعــب ـ ذلك ماتريده منك دائمــا يا سيدى ..

الــروتين ـ انكم بدون ريب تعرفــون زوجتــى المصونــة .

الشعــب ـ ومن لا يعرفها .. انهــا السياسة الحكيمة ، سيدة القصر العامر ، حفظها الله .

الــروتين ـ لقد تقدمت لى زوجتــى باقتراح هام لحل مشكلة الرسالة التى بعث بها المجرم الى القضية الا اننى ربما لا اوافق علــى اقتراحهــا ..

الشعــب ـ ما هو هذا الاقتــراح يــا سيــدى .. ؟

الــروتين ـ لقد اقترحت على بأن ارد على رسالة المجرم واخبره باننى رضيت به زوجا للقضية ؟ ثــم لا اسلمها اليه ، ولا اسمح لــه بالدخول عليها ، بحجة انهــا مريضة وصغيرة ، واماطله الى ان يموت من تلقاء نفسه ، او اكون انا قد استعديت غايــة الاستعداد واقضى عليــه .. كما اقترحت على زوجتــى المصونة ، ان اقنع الثائر بالهدوء والتريث حتى لا ينتبه المجرم لهذه الخدعة ، ويفسد علينا خططنا .

الشعــب ـ اننى افضل الجنون علــى هذه الخطة المشينة .. ثــم ان ولدى الثائر لن يرضى بها ابــدا وانه الان فى طريقه يبحث عــن المجــرم .

القضيــة ـ وانا افضل الموت على قبول هــذه الفكرة .

الــروتين ـ (بهدوء) مهلا .. مهلا .. لقد قلت لكما اننى قد لا اوافــق على اقتراح زوجتى ، .. والان اتركونى افكر ، واتدبر ..

الشعــب ـ لماذا لا تدعنا نفكر معك. هل نحن بلا عقول ؟

الــروتين ـ انا لم اقل انكما بلا عقول ، .. ولكن انت بكل اسف ، جاهل واختك مريضة وقاصرة .

القضيــة ـ حقا اننى مريضة .. ولكننى لست قاصرة كما تتصور .

الــروتين ـ من الخير لك يا ابنتــى ان تستريحى .. لقد قيل لــى ان احسن علاج لك هو الراحــة ، وعدم الانشغال بالتفكير .

القضيــة ـ ان هذا لا يمكن .. اننى قد اعمل اى شىء الا الراحة وعدم التفكير ، فهذا مالا استطيعــه .

الشعــب ـ ان خير دواء لها هــو ان نعالجها حسب الطريقة العربية القديمــة ... ؟

الــروتين ـ ما هى هذه الطريقــة ..؟

الشعب ـ الطريقة هي ان تعض يهوديا فتذهب عنها الحمى ، اما مرض المفاصل ، فخير دواء له هو الكي ..

الروتين ـ تعض يهوديا .. ! الكي .. خرافة .. انها لخرافة .. اسمعا .. اسمعا .. لقد خطرت لي فكرة ..

الشعب ـ ما هي .. ؟

الروتين ـ لقد بلغني ان المجرمين يخافون من ابنك ثائر فما رايك لو نتركه يفعل كما يشاء وننتظر النتيجة .

الشعب ـ ولكن .. اليس من الاحسن ان نمده بالمساعدة ..

الروتين ـ انني ساساعده بعقلي وحكمتي ... وانت بماذا ؟

الشعب ـ انه ابني .. روحي وقلبي كله معه ..

القضية ـ اما انا فحياتي بين يديه .. (هنا تسمع طرقات متتالية على الباب واصوات اقدام) ..

الروتين ـ (بهرع) .. ماذا .. ماذا جرى .. افتحوا الباب .

ثائر ـ لا تتعب نفسك يا سيدى لقد فتحت الباب بيدى .

الروتين ـ (بتعجب) ثائر .. ثائر .. من اين دخلت ؟

ثائر ـ لقد حطمت كل ابواب قصرك ودخلت ...

الروتين ـ ما ذا تريد .. ؟

ثائر ـ انني لا اريد منك شيئا مطلقا .. وانما جئت لاخبرك .

الروتين ـ ماذا .. قل .. ؟

ثائر ـ لقد خطبنا لك الثورة .

الروتين ـ وزوجتي القديمة ..

ثائر ـ زوجتك القديمة .. لقد حكمنا عليها بالاعدام .. انها خائنة ..

الروتين ـ (بدهشة) خائنة ..

ثائر ـ نعم .. خائنة والموت والدمار للمجرمين .

الجميع ـ الموت والدمار للمجرمين .. يسقط الروتين .. عاشت فلسطين .. العربية الحرة .

نهاية

كان البجائيون مولعين بالموسيقى حتى زعم ليون الإفريقي عندما زارها أن كل بجائي يحسن الضرب على الآلات الموسيقية

بجاية في عهد الحماديين

دكتور رشيد مصطفاي

لعبت بجاية ايام بنى حماد دورا هاما فى تشييد صرح الحضارة الاسلامية بالجزائر .

ان الحماديين ينتمون الى اهم قبيلة بربرية بافريقية الشمالية تدعى صنهاجة وهى تضم حسب ابن خلدون ثلث البربر ولما قامت دعوة العبيديين ناصرتها صنهاجة وايدتها حتى اذا انتقل العبيديون الى مصر استخلفوا آل زيرى بن مناد الصنهاجى على المغرب الذى كان يضطرب فتنا نشأت من النزاع بين العبيديين والامويين اذ كانت قبيلة اخرى عظيمة تنافس صنهاجة وهذه القبيلة هى زناتة التى ناصرت الامويين وهكذا طيلةقرون نرى مغربنا العربى تتنازعه سياسات مختلفة ويفترق اهله فريقين متعاديين ذ ناصر احدهما سياسة ناصر الاخر سياسة معاكسة

فلا يحصل للمغرب اتحاد شامل الا فى العهد الموحدى .

ولذلك لما اعانت صنهاجة العبيديين على تأسيس دولتهم ناصرت زناتة الامويين الاندلسيين أعداء العبيديين فنشبت بذلك بين القبيلتين حروب من اجل السيطرة على البلاد فكان الذى تولى قتال الزناتيين هو حماد اخا المنصور بن بلقين بن زيرى بن مناد الصنهاجى فلما توفى المنصور تولى ابنه باديس واقر عمه على عمله ولكن حمادا اراد ان ينتفع بجهوده وان يؤسس له ولابنه دولة فلم يجد بدا من ان يشيد القلعة على جبل عياض قرب المسيلة .

وبعد حرب دامت عامين بين حماد وابن اخيه باديس ثم المعز بن باديس وقع الصلح بين حماد والمعز وهكذا تثبت اركان الدولة التى يؤسسها حماد بفضل جهاده وثباته وبعد ان ازدهرت القلعة مدة من الزمن وهى حافلة بالعلماء والادباء والطلاب الوافدين اليها من كل ناحية وكانت قاعدة مملكة ذات بأس حدث حادث عظيم الا وهو دخول عرب بنى هلال وسليم افريقيا فانتشروا فى سهولها فخربت القيروان عاصمة افريقيا فاضطر اهلها الى مغادرتها وهكذا ذهب الى القلعة كثير من علمائها وطلابها كما غادرها ابن رشيق الى صقلية فلم يلبث الناصر بن علناس ان اشتبك مع العرب فى حروب طاحنة فراى لزاما عليه لتحصين قاعدة دولته ان ينقلها الى مكان آخر فارسل جماعة من الخبراء يبحثون فاستقر رايهم على صلداى الفنيقية فبنى الناصر بقربها مدينة سماها الناصرية نسبة اليه اما لفظة بجاية التى ستبقى علما لها على الدوام فتدل على اسم القبيلة التى تسكن المدينة ونواحيها وكان تأسيس بجاية سنة ٤٦٠. الموافقة لسنة ٦٧٨م بنيت هذه العاصمة على شاطىء البحر المتوسط وبساحل جبل عال وامامها خليج من اجمل خلجان العالم فكأنه والنهر يصب فيه ذيل العروس .

ثم اخذت منازلها البيضاء ترتفع وتمتدعلى جنبات الجبل وهى ذات طابق واحد بداخلها احواض لجمع الماء وخزنه وحولها أشجار لها منظر عجيب على الخليج والبحر وعلى ضفتى النهر منتزهات سكانها وقصورهم ، وبساتينهم التى غرست بالبرتقال والتين والرمان والعنب المعش ولقد زارها حسن ابن الفكون الشاعر القسنطينى المشهور فوصفها واحسن وصفها اذ قال :

دع العراق وبغدادا وشامهما
فالناصرية ما ان مثلها بلد
بر وبحر وموج للعيون به
مسارح بان عنها الهم والنكد
حيث الهوى والهواء الطلق مجتمع
حيث الغنى والمنى والعيشة الرغد
والنهر كالصل والجنات مشرفة
والنهر والبحر كالمرآة وهو يد
فحيثما نظرت راقت وكل نوا (م)
حى الدار للفكر والابصار تتقد
ان تنظر البر فالازهار يانعة
او تنظر البحر فالامواج تطرد
يا طالبا وصفها ان كنت ذانصف
قل جنة الخلد فيها الاهل والولد

هذه هى بجاية التى زارها هذا الشاعر فى اوائل عهد الموحدين اى بعد عهد الحماديين بقليل وابياته تفيض بالاعجاب الذى هى جديرة به الم يجعلها الادريسى (١٠٩١ — ١١٦٦ م) الذى زارها فى عهد الحماديين عين بلاد بنى حماد لجمالها الساحر وعظمة منزلتها .

واذا اردنا الان ان نقدر عدد سكانها بالتقريب فلنعلم انه كان بها ثلاثة وسبعون مسجدا بقببها ومنارتها البيضاء فلما احتلها الاسبان هدموا عشرة منها وكان قرب قصر اللؤلؤة مسجد عظيم يصلى فيه الملك وكان من اجمل مساجد الدنيا وكان له اثنتان وثلاثون سارية من الرخام الجيد وكان المسجد كله مبلطا بالمرمر وكان له اثنان وعشرون بابا منها باب يدخل منه النساء لاداء صلاتهن تحت حراسة شيخ طاعن فى السن .

وكان لبجاية ساحات جميلة ويحكى الاهالى انه كان بها خمسة انهج كبار مظللة بالنخيل الذى استجلبه الملك من الواحات الصحراوية .

ويحكى كذلك ان الناصر بن علناس الحمادى كان شديد الاهتمام والعناية بتشييدها وكان يكلف رعاياه ان يبنوا منازلهم وكان يحضر المواد البنائية حتى لايتلكأ احد فى رفع منزله وانه اصدر امرا لكل داخل اليها بحمل حجرة او دفع ناصرى وجعل للمدينة سورا الا من الناحية الجبلية التى سيرفع لها (حائط) فى عهد الموحدين بعد احتلال ابن غانية لها وطرده منها وكان لها ارصفة ودار صناعة لانشاء الاساطيل ومبان عمومية ومدارس تعجب كلّ من زارها وقد كانت تضم كثيرا من العلماء والادباء وكان الطلبة يدرسون التوحيد والفقه وعلوم اللغة والادب والحساب والطب وعلم الفلك وحتى الفلسفة ولكثرة صلحائها واوليائها صار اهاليها يلقبونها بمكة الصغيرة.

كان الملك الناصر يركب سفينة فى صحبة اكابرالدولة والمغنين ويخترق بها الخليج ليتأمل صنعه وكانت تأخذه روعة جمالها الطبيعي الذى لاشك انه كان يشجعه ان يجعل من بجاية مدينة عظيمة اذ وهبها الله منعة وجمالا وهنا يعجبنى ان الاحظ ان عاصمة اخرى بغربى الجزائر اعنى تلمسان قد حازت نصيبا وافرا من هذا الجمال الطبيعي الساحر فصار شاعرها ابن خميس يلهج بذكرها ويصبح .

تلمسان لو ان الزمان بها يسخو
منى النفس لادار السلام ولا الكرخ

ندرك هنا ذوق العرب الفنى وقيمته الرفيعة سواء فى اختيار مواقع العواصم فى ممالكهم او فى الاثار الفنية العجيبة التى تركوها لنا كقصر الحمراء وغيره .

كنا اشرنا من قبل ان بجاية كانت مشهورة بكثرة اوليائها يحكى اهالى بجاية ان احدهم وهو سيدى تواتى صاحب الزاوية الصوفية المشهورة عندما ذهب به الناصر فى سفينته الى وسط الخليج وقال له تأمل كيف يلمع بنيان هذه المدينة التى تزدهر ازدهارا بمنارات مساجدها العديدة الا تستحق لقب مكة الصغيرة اما الولى فلم يتأثر بجمال المدينة ولم يتحمس لها بل اخذ يعظ الناصر وعظا شديدا ويعنفه على عمله هذا وحبه للترف وانشاء القصور وقال له انك نسيت زوال الاشياء فاعلم انك تبنى للخراب وان سمعتك ستتلاشى وتسقط سقوط مدينتك فلم يأبه الملك لهذا الكلام فلما راى الشيخ ذلك نزع برنسه ورفعه بين الملك والمدينة حتى غابت عن عينيه وقال له انظر فنظر الناصر فلم ير بسوى خراب واطلال تتراءى فى برنسه فلم يبق قصور ولا بساتين ولا مساجد فراى ما ستؤول اليه بجاية فى عصورها المتأخرة من خراب وقلة عمران .

اوردنا هذه الحكاية لانها تذكرنا بحكاية شبيهة بها عن عبد الرحمان الناصر عندما بنى مدينة الزهراء ولامه عليها احد فقهائها لوما شديدا وهو القاضى منذر بن سعيد .

ولا نشك ان الناصر بن علناس كان يتشبه بالناصر الاموى العظيم وهذا يجعلنا ندرك فى هذا التشبه رغبة فى المساواة او التفوق لاننا اذا نظرنا الىالمغرب والاندلس والشرق نجد التنافس شديدا بين هذه الاقطار الثلاثة وان غرض هذا التنافس هو التفوق وذلك فى كل ميادين الحياة فى الادب والعلوم والصناعات والبطولات الحربية وفى هذا التنافس عند الملوك رغبة فى السيطرة وتعميم حكمهم وهكذا نرى بين ابناء العمومة من الصنهاجيين تنشب حروب لاجل فرض السيطرة على الخصم بعد التغلب عليه .

ونرى فى الادب ابن شهيد الاندلسى يحاول فى كتابه التوابع والزوابع ان يبين لنا تفوقه على فحول ادباء المشرق كأمرئى القيس وغيره لان المشارقة كانوا يحتقرون ادب المغاربة .

وكذلك نجد هذه الرغبة عند المغاربة الذين يريدون ان يتفوقوا على الاندلسيين والمشارقة معا .

فلا عجب ان نرى الناصر بن علناس يرفع شأن عاصمته الجديدة ببنائه من القصور ما بهر العقول وما يستطيع ان يباهى به احسن قصور الدنيا الا وهو قصر اللؤلؤة وسيتفو

ولده المنصور بعده اثره بتوسيع القصور الموجودة وابتناء قصور اخرى وسيتحف قصر اللؤلؤة بالساريتين العجيبتين المصنوعتين من حجر نفيس وقد عثر عليهما فى اطلال كنيسة قديمة ويقال ان البابا سأل المنصور ان يبيعهما له فامتنع وزين بهما قصره ان الذين راوا هاتين السارتين يشهدون انهم لم يروا فى الدنيا احسن منهما .

وعلى كل حال ان الفن الصنهاجي حسب الاستاذ مارصى متأثر بالفن الشرقى والعراقى والفارسى والمصرى والفاطمى ولكن الصنهاجيين تفننوا فى زخرفته حتى استطاعوا ان يباهوا بقصورهم اجمل قصور الدنيا ونجد اثر فنهم فى كنائس بالرم وقصورها بصقيليه التى كانت لها علاقة تجارية مع بجاية وقد مدح ابن حمديس الصقلى المنصور ووصف قصره وابدع فى وصفه الذى يدل على ماذكرنا من حسنه الباهر قال ابن حمديس :

واعمر بقصر الملك ناديك الذى
اضحى بجدك بيته معمورا
قصر لو انك قد كحلت بنوره
اعمى لعاد الى المقام بصيرا
واشتق من معنى الجنان نسيمه
فيكاد يحدث بالعظام نشورا
نسى الصبيح مع المليح بذكره
رسما ففاق خورنقا وسديرا
لو ان بالايوان قوبل حسنه
ما كان شيئا عنده مذكورا
اعيت مصانعه على الفرس الاولى
رفعوا البناء واحكموا التدبيرا
ومضت على الروم الدهور وما بنوا
لملوكهم شبها له ونظيرا
انكرتنا الفردوس حين اريتنا
غرفا رفعت بناءها وقصورا
فالمحسنون تزيدوا اعمالهم
فرجوا بذلك جنة وحريرا
والمذنبون هدوا الصراط وكفرت
حسناتهم لذنوبهم تكفيرا
فلك من الافلاك الا انه
حقر اتبدور فأطلع المنصورا
ابصرته فرايت ابدع منظر
ثم انثنيت بناظرى مسحورا
فظننت انى حالم فى جنة
لما رايت الملك فيه كبيرا
واذا الولائد فتحت ابوابه
جعلت ترحب بالعفاة صريرا
غضت على حلقاتهن ضراغم
فغرت بها افواهها تكبيرا
فانها ابدت لتهصر عندها
من لم يكن بدخولها مامورا
تجرى الخواطر مطلقات اعنة
فيه فتكبو عن مداه قصورا
بمرخم الساحات تحسب انه
فرش المها وتوشح الكافورا
ومحصب بالدر تحسب تربه
مسكا تضوع نشره وعبيرا
تستخلف الابصار منه اذا اتى
صبحا على غسق الظلام منيرا

ثم وصف بركة فيه فقال :

وضراغم سكنت عرن رئاسة
تركت خريرا الماء فيه زئيرا
فكانما غشى النضار جسومها
واذاب فى افواهها البلورا
اسد كان سكونها متحرك
فى النفس لو وجدت هناك مثيرا
وتذكرت فتكاتها فكانما
اقعت على ادبارها لتثورا
وتخالها والشمس تجلو لونها
نارا والسنها اللواحس نورا
فكانما سلت سيوف جداول
ذابت بلا نار فعدن غديرا

وكـأنمـا نسـج النسيـم لمـائـه
درعـا فقـدر سـردهـا تقـديـرا
وبـديعـة الثمـرات تعبـر نحوهـا
عينـاى بحـر عجـائب مسجـورا
شجـريـة ذهبيـة نـزعت الـى
سحـر يـؤثـر فى النهـى تاثـيرا
قـد صـوفحت اغصـانهـا فكـانما
قبضت بهـن مـن الفضـاء طيـورا
وكـأنمـا تابـى لوقـع طـيرهـا
ان تستقـل بنهضتهـا وتطـيرا
مـن كـل واقعـة ترى منقـارهـا
مـاء كسلسـال اللجـين نمـيرا
خرس تعـد مـن الفصـاح فان شدت
جـعلت تغـرد بـالمياه صفـيرا
وكـأنمـا فى كـل غصـن فضـة
لانت فـارسـل خيطهـا مجـرورا
وتريك فى الصهريج موقـع قطرهـا
فـوق الزبرجـد لـؤلـؤا منثـورا
ضحكت محـاسنـه اليـك كـأنمـا
جعلت لهـا زهـر النجـوم ثغـورا
ومصفـح الابـواب تبـرا نظـروا
بالنقش فـوق شكـولـه تنظـيرا
تبـدو مسـامـير النضـار كما علت
تلك النهـود مـن الحسـان صـدورا
خلعت عليـه غـلائـلا مـوشيـة
شمس تـرد الطـرف عنـه حسـيرا
واذا نظـرت الـى غـرائب سقفـه
ابصـرت روضـا فى السمـاء نضـيرا
وعجبت مـن خطـاف عسجـده التى
حـامت لتبنـى فى ذراه وكـورا
وضعت بـه صنـاعهـا اقـلامهـا
فـارتك كـل طـريدة تصـويـرا
وكـأنمـا للشمس فيـه ليقـة
مشقوا بهـا التـزويق والتشجـيرا
وكـأنمـا لـلازورد مـخـرم
بالخـط فى ورق السمـاء سطـورا
وكـأنمـا وشـوا عليـه مـلاءة
تركـوا مكـان وشـاحهـا مقصـورا
يـا مالك الارض الذى اضحـى لـه
ملك السمـاء علـى العـداة نصـيرا
كـم مـن قصـور للملوك تقـدمت
واستوجبت لقصـورك التـاخـيرا

هذه القصيدة تدل على براعة ابن حمديس وعظمة المنصور الحمادى وتدل كذلك دلالة قاطعة على هذا التنافس الذى ذكرناه آنفا اذ فضل قصره على مابنى العرب والفرس والروم مـن القصـور .

ويظهر كذلك هذا التنافس فيما احتشد فى بجاية من علماء وادباء اشار اليهـم الغبرينى فى كتابه عنوان الدرايه فى سياق الكلام على ابى على المسيلى الذى كان يلقب بأبى حامدالصغير قال ابو على هذا : ادركت ببجاية ما ينيف على تسعين مفتيا ما منهم من يعرف ابا على الحسن المسيلى من يكون واذا كـان مـن المفتيين تسعون فكم يكون من المحدثين ومن النحـاة والادباء وغيرهم ممن تقدم عصرهم .

كان الناس على اجتهاد وكان الامراء لاهل العلم على ما يليق ويراد وهذه الفترة التـى اشار اليها الغبرينى والتى لم يشتهر فيها ابو على المسيلى هى فترة بنى حماد وهذا يدل على ان الناس قد حفظوا من هذا العهد الزاهـر ذكرا يبعث على الاعجاب والاجلال ولا شـك ان بجاية كانت تزخر بالعلماء والادباء وارباب الصنائع من الجزائريين وممن قدم اليها مـن الاندلس وافريقيا والمغرب الاقصى والمشرق حتى ارتفع شأنها بين العواصم ولا سيمـا عواصم شمال افريقيا .

ويظهر التنافس كذلك بين مؤلفى الغـرب ومؤلفى الشرق اذ كان اهل المغرب سواء فى بجاية او غيرها من العواصم المغربية يطلعون

على كل ما يؤلف فى الشرق ويدرسونه ويجعلونه المرجع الصحيح فى تلقيهم العلوم والادب ولكن كانوا يجارونهم فى التاليف فى نفس المواضيع ويحاولون ان يتفوقوا عليهم وهذا ماذكره الغبرينى عن ابى على المسيلى اذ تعرض لتعليل لقبه بأبى حامد الصغير اذ قال ان ذلك راجع الى تاليف له طرق فيه ما كتب الغزالى فى الاحياء فكان كلامه احسن فيه من كلام الغزالى واسلم وكتابه كثير الوجود بين النــاس .

وكثرة وجود الكتاب دليل على اعتناء الناس به وايثارهم له وفيه دليل عندنا على ان المغاربة لم يكونوا يحتقرون ما يؤلفه مواطنوهم بل كانوا يعتزون به ويباهون به اهل المشرق

وما قلنا فى علــوم الدين نقولــه فى الادب فالمنافسة فيه قوية نجد مثلا اهل المغــرب يعتزون بأدبائهم ويفاخرون بهم اهل الاندلس واهل المشرق وكثيرا مانجدهم مثل الاندلسيين يتلقبون بأسماء او القاب ادباء المشــرق وفى عهد بنى حماد ومايليهكان اهل المغرب يطلعون على كل ما يؤلف فى الادب وما يجد من مقالات. ويقال من شعر وكانوا فى دراساتهم يعطون اهمية كبرى لابى تمــام (١٨٠ — ٢٢٨ هـ) والمتنبــى (٣٠٣ — ٣٥٤ هـ) والمعرى (٣٦٣ — ٤٤٩ هـ) ولعمرى فىهذا التفضيل دلالة على ان ذوقهم سليم وانهم يميلون الى الادب القوى الحافل بالحكمة ومعانى القوة والرجولة ولكن اعجابهم بهؤلاء الفحوللم يصرفهم عن الاعجاب بأدبائهم وشعرائهم كالذى ورد عن الغبرينى عن عمارة الشاعر الذى اشتهر بتواشيحــه الحسان وكان الناس معجبين بها حتى اذا شط الانسان فى الطلب يجيبه واغنى لك موشحــا لعمارة كأنه طلب شيئا نفيسا رفيعا جــدا ولعمارة هذا بنت يقال لهاعائشة تعطيئا صورة لما كان عليه النساء من مشاركة الرجال فى العلوم والادب اذ كانت عائشة اديبة مشهورة بالنسخ لحسن خطها وكانت تجالس الادباء منهم ابو على الحسن بن الفكون الشاعــر القسنطينى المشهور شاعر وقته كما يقــول الغبرينى كما تشارك فيها العوام وهكذا كان بعض العلماء يدرس الفلسفة فى منزله لبعض نبهاء الطلبة وكانت تقوم محاورات ومذاكرات بين الاستاذ وطلبته النبهاء اذ يبدون رايهــم حتى لا يأخذوا العلوم كقضايا مسلمة لا تقبل الجدل بل يناقشونحتى يستقر فهمهم وادراكهم للمسالة على امر صحيح تسلمه عقولهم وهذه الطريقة لا شك انها طريقة حية تشجع علــى الإستقلال فى الراى والجراة على التاليــف والمساهمة فى الانتاج العلمى والادبى ولذلك كثر العلماء والادباء فى ابناء الجزائر فى هذا العهد الزاهر وحتى فى العهد الموحدى الذى يليه كما يدل على ذلك كتاب الغبرينى .

اما العلوم التى كــانت تــدرس فمعدتنــا فى بيان ذلك على ماورد فى عنوان الدراية اذ نرى العصر يورد لها سندا الى ما قبل العصر الحمادى بحيث هذه العلوم هى التى تدرس فى المشرق بكتب الفت فيه ووصلت الى المغرب فنظر فيها اهل المغــرب ودرسوهــا وزادوا عليها ونقحوها حسبما كان يبدو لهم اذ كانوا يتصرفون فيها بحرية ويؤلفون ما هو احسن منها فى نظرهم كما نبهنا الى ذلك لما تحدثنا عن ابى على المسيلى وفى هذا دليل على حيويــة الفكر المغربى فى هذا العصر وعلى عدمجموده

اما العلوم فهى على نوعين علوم الدراية وعلوم الرواية ، تشتمل علوم الدراية على علم الفقه وعلم اصول الدين واصول الفقه .وعلم العربية وعلم التصوف وعلم المنطق .

وتشتمل علوم الرواية على علوم تفســير القرآن العزيز وعلوم الحديث وعلوم الفقــه وعلوم العربية وعلوم التصوف .

فنستطيع من هذا التفصيل ان ندرك طريقة

التعليم عندهم ولا سيما العالى منه فهم يدرسون كتبا لائمة المؤلفين عن شيوخ اجلة مجازين من شيوخ مشهورين وهكذا حتى نصل الى الشيوخ الذين تلقوا محتويات الكتاب من المؤلف نفسه بحيث استطاعوا ان يتمكنوا من روح معانيه وان يلقنوها تلاميذهم تلقينا صحيحا وهذه هى ناحية الرواية .

اما طريقتهم فى الدراية فهى مبنية على القاء الاسئلة والمحاورة والمذاكرة حتى يستقر الفهم فى ذهن الطالب فيكون من المحصلين . اما المعاملة بين الاساتذة والطلبة فكانت على احسن مايرام اذ كان الطلبة يجدون من شيوخهم كل مساعدة وتنشيط وترغيب وان كان من الشيوخ من يتشدد فى الاجازة اذ لايجيز الا بعد الاختيار الشديد وبعد ان يتبين ان الطالب من المحصلين تحصيلا تاما دقيقا لا سطحيا وهذه فى نظرنا هى امانة تبليغ العلوم وتلقينها .

ومع هذه العلوم والاداب كانت تدرس علوم اخرى لها صلة بالصناعات والحياة المدنية كالطب وغيره وكان يرد على بجاية طلبة من كل قطر حتى من اقطار النصارى يروون ان ليونارد فيبوناتشى العالم الإيطالى الرياضى المشهور تلقى علومه ببجاية وفى هذا شرف لها اذ يعترف لها الاجانب بتفوقها على بلدانهم وباشعاعها الثقافى العالمى واذ نحن نتحدث عن الجانب الجدى من الحياة فى بجاية نذكر النزعة الصوفية التى اخذت تسيطر على العقول فى ذلك المعهد وفى المعهود التى جاءت بعده هذه النزعة كانت لا محالة توجه الناس الى الاخرة وتصرفهم عن الحياة اللاهية وتغرس فيهم ايمانا قويا بالقول والعمل وهذا الايمان ستظهر ثمرته فى الدفاع عن الوطن عندما يوالى الغربيون هجوماتهم عليه كالنرمان والاسبان ولا باس ان نورد مثالا من امثلة البطولة التى اشتهر بها فريق من الصوفيين وقادتهم وان تاخرت الحكاية عن المعهد الذى نتحدث عنه .

يحكى انه عندما احتل الاسبان بجاية وتحصنوا فى حصونها لدفع المسلمين الذين يريدون اجلاءهم عنها حاول المسلمون يوما ان يقتحموا برجا له برج موسى احتمى به الاسبان الذين اخذوا يرمون المهاجرين بقنابل مدافعهم القتالة حتى بعثوا اليأس والفشل فى قلوب المسلمين فلما احس بعض الصوفية بذلك برز سبعة منهم وخطبوا فى المقاتلين خطبا حماسية حارة وتقدموا انفسهم الى الحصن واسندوا اليه السلالم ولم يصرفهم تذف المدافع فاستطاع احدهم ان يصعد الى راس الحصن ولكن احاطت به اسلحة العدو فخرقت جسمه قنابلهم فسقط على الارض شهيدا واما رفقاؤه فاستشهدوا قبل ان يصلوا الى ما وصل اليه ولكن هذا المثل الحى الذى ضربوه كان كافيا لبعث الحماس فى المسلمين وروح التضحية فيهم فهجموا على الحصن كرة اخرى وبقوة اشد من ذى قبل واستماتة لا نظير لها حتى استطاعوا ان يحتلوا الحصن ويقتلوا كل من فيه من الاسبان فبنى بعد ذلك صالح رايس التركى لاولئك الابطال السبعة أضرحة فى الأماكن التى سقطوا فيها وصارت تلك الاضرحة تزار وتحكى الاهالى ان اتقياءهم اذا مروا عليها بالليل شاهدوا سبعة اضواء تتحرك خلال الحصن واما شرارهم فاذا مروا عليها بالليل تذفوا بالحجارة التى لا يعتصمون منها الا بالفرار .

وعلى كل حال فكان للصوفية جانبان جانب ايجابى صالح نافع يتمثل فى كثير من العلماء العاملين الواقفين عند حدود الشرع وجانب سلبى مفسد يتمثل فى بعض الدجالين الذين كانوا يسخرون التصوف لاغراض دنيئة وقد حدث فى ذلك المعهد ان دخل احد هؤلاء بجماعة من مريديه الى المسجد وجلسوا ولم يؤدوا تحية المسجد فلما أراد الامام ان ينبههم الى ذلك قال له شيخهم دعهم فثار العالم فى وجهه واخرجه من المسجد هو واتباعه ثم نفى عن البلدة وهذا يدل على ان الحرب كانت قائمة بين صلحاء الصوفية وبين دجاليهم .

وازاء هذه الحياة الجدية حياة لاهية كانت نتيجة لما بلغته الحضارة المادية ببجاية من ازدهار وهذه الحضارة سواء فى بجاية او فى مصر من امصار الاندلس او المشرق كانت ذات طابع متشابه وذات فتنة قوية على

النفوس حتى اندفع الحاضرون يأخذون منها نصيبا وافرا وهي نتيجة اليسر الكبير الـذي كان يعيش فيه المسلمون والـذي جعلهـم يستكثرون من طيبات الحياة الدنيا ويستعجلونها حتى يبالغ بعضهم ان يجعل جنة الخلد فيـها كما فعل ابو نواس في بغداد وكما فعل ابـن خفاجة في الاندلس وكما فعـل ابي الفكـون القسنطيني عندما وصف بجاية اذ قـال :
ياطالبـا وصفهـا ان كنـت ذا نصـف

وهذه الحياة التي تشمل الجواري والغناء
قـل جنـة الخلـد فيهـا الاهل والولد

والخمر صارت ويا للاسف شائعة في كثـير من امصار المسلمين وهي التي ستفقدهـم رجوليتهم عن مراقبة العدو الذي كان يتربص بهـم الدوائـر .

اخذت بجاية حظا كبيرا من هذه الحيـاة فصار التنافس كثـيرا في اقتنـاء القصـور والمنتزهات على شاطيء البحـر أو ضفتـي النهر الكبير فكانوا يقضون فيها اطيب اوقاتهم وكانهم يتمثلون بقول ابن زهـر في موشحـه البـديـع .

ما للمولة .. من سكره لا يفيق .. ياله سكران
من غير خمر ما للكئيب المشوق .. يندب الاوطان
هل تستعاد .. ايامنا بالخليج .. وليالينا
أو يستفاد .. من النسيم الاريج .. مسك دارينا
اوهل يكاد .. حسن المكان البهيج .. ان يحيينا
روض أظله .. دوح عليه انيق .. مورق الافنان
والماء يجري .. وعائم وغويق .. من جنى الرحان

وكان البجائيون كغـيرهم من المتحضريـن مولعين بالموسيقى حتى زعم ليون الافريقـي عندما زارها ان كل بجائي يحسن العزف على آلة الموسيقى وان البجائيين كلهم مخنثون لا يهمهم الا ان يأخذوا متعتهم من الحياة ولم يبق من الرجولة ما يدافعون به عن أوطانهم .

ومهما يكن من صحة هذا القول نـرى ان فيه غلوا اذ سيبرهن اهل بجايـة على روح التضحية عندما يتصدون للدفاع عن وطنهـم العزيز .

وعلى كل حال قد روى لنا التاريخ مرور محمد بن تومرت بها في عهد العزيز الحمادي واخذ يغير فيها المنكر بيده فكسر آلات الموسيقى واراق دنان الخمر ، حتى صار السكـــان يضيقون به ذرعا وحتى اخرجه الملك منها .

ان يكون لهذه الحياة اللاهية جانب سيئ فقد دلت على مقدار الرفاهية التي كان عليها الناس في عهد الحماديين ورغد العيش كان شاملا في سائر مدن مملكتهم التي كانت تحتوي على ثلاثة ارباع الجزائر الحالية وقد ذكر ذلك الادريسي في كتابه المشهور نزهة المشتاق في اختراق الآفاق .

واشهر مدنها الجزائر واشير والقلعـــة وبجاية وقسنطينة وكلها كانت تنعم بحـــال مادية وادبية حسنة يحق لهذا العهد الزاهر ان يفتخر بها .

ونالت بجاية اسمى منزلة في عهد الناصر وابنه المنصور من قوة وحسن تدبير لشـــؤون الدولة ما أعظم أمرها في أعين ملوك عصرهما حتى بابا روما كريكوار السابع كان يتـــودد للناصر ويكاتبه مكاتبات يلاطفه فيها ويوصيه خيرا برعاياه من النصارى اذ كانت في القلعة كنيسة للنصارى ولا يبعد ان يـكون مثلها في بجاية التي كانت تحتوي على جماعات مـــن نصارى رومة وجنوه وكاصالونيا وهــــذه الجماعات كانت تشتغل بالتجارة وكانت تكرع كذلك من مناهل العرفان الذي كان منتشرا في مدن المسلمين ولا سيما بجاية .

وفي وثيقة تاريخية قديمة عثر عليها شارل

فيرو نجد أن المنصور قد ارسل البابا من رومة بنائين لتزيين عاصمته فبنوا له برجا عظيما يدعى برج شوف الرياض لحراسة ثلاثة ابواب منها باب البنود الكبير الذى ينفتح على البساتين والواد الكبير وفى اعلى البرج آلات لها مرايا تجاوب باشارات امثالها فى جهات مختلفة وبفضلها يمكن التخابر مع جميع نواحى المملكة ومدنها كقسنطينة والقلعة وغيرهما وفى الليل تحصل الاشارات بنيران موضوعة بكيفية ملائمة ولذلك يسمى برج شوف الرياض بالمنارة او برج النيران .

واحدث ملوك بنى حماد اسطولا عظيما استطاعوا ان يحافظوا به على شطوط البلاد رغم هجومات النورمان وغيرهم من النصارى الذين كانت لهم مطامع فى بلدان المسلمين مع ما اشتهروا به من روح صليبية عدائية حتى النرمان الذين اشتهروا فى عهد رجار الثانى بحسن معاملتهم للمسلمين لم يسلموا من هذه الروح العدائية ومن هذه المطامع الاستعمارية فلا ننس غزوهم للمهدية .

ولذلك اشتهرت بجاية ثم الجزائر بجماعة اغلبها اندلسيون همها غزو الجزر والشطوط الرومانية وغيرها وكانوا يعدون ذلك جهادا فى سبيل الله اذ كانوا يخمسون غنائمهم وكانوا يسوقون السبى الكثير وينزل الناس لشرائه بحومة المنبح من جهة ربض سننهم .

اذ عظمة بجاية فى عهدها الزاهر يرجع الى هيئة مرساها الذى كان يلائم حاجات الملاحة وعاداتها فى القديم ولهذا المرسى قيمة دفاعية كبيرة لانه فى مأمن من العواصف التى تهب من حين الى آخر بالبحر المتوسط وتجعل الشط الافريقى صعب الارساء فيه .

وقد يلخص الادريسى هذه العظمة بقوله :

ومدينة بجاية فى وقتنا هذا مدينة الغرب الاوسط وعين بلاد بنى حماد والسفن اليها مقلعة وبها القوافل منحطة والامتعة اليها برا وبحرا مجلوبة والبضائع بها نافقة واهلها مياسير تجاروبها من الصناعات والصناع ما ليس بكثير من البلاد واهلها يجالسون تجار المغرب الاقصى وتجار الصحراء وتجار المشرق وبها تحل الشدود وتباع البضائع بالاموال المقنطرة ولها بواد ومزارع والحنطة والشعير بها موجودان كثيران والتين وسائر الفواكه بها منها ما يكفى لكثير من البلاد ولها دار صناعة لانشاء الاساطيل والمراكب والسفن والحرابى لان الخشب فى اوديتها وجبالها كثير موجود ويجلب اليها من أواليمها الزفت البالغ الجودة والقطران وبها معادن الحديد الطيب موجودة ومكنة وبها من الصناعات كل غريبة وعلى بعد ميل منها نهر يأتيها من جهة المغرب من نحو جبال جرجرة وهذا نهر عظيم يجاز عند فم البحر بالمركب وكلما بعد عن البحر كان ماؤه قليلا ويجوز من شاء فى كل موضع منه .

« ومدينة بجاية قطب لكثير من البلاد . هـ »

وهكذا لم تزل بجاية مزدهرة تشع ثقافتها وحضارتها فى عهد الحماديين وعهد الموحدين والحفصيين حتى احتلها الاسبان سنة عشر وتسعمائة فخربوا كثيرا منها وخربوا قصريها المشهورين الباقيين الى عهد احتلالهم وهما قصر اللؤلؤة وأميمون ثم اخرجهم الاتراك منها فاخذت بجاية فى الاضمحلال ولولا انها مرسى من المراسي ذات الاهمية لكان شانها شأن القلعة وقد خرب الفرنسيون ما بقى من آثارها فلم يبق اليوم الا باب البحر الذى يسميه الفرنج الباب الشرقى .

وهذا الباب يشير الى ذلك العهد الزاهر وأن أربابه لم يكونوا انكاسا كما قال البحترى فى ايوان كسرى

د . رشيد مصطفاى

استاذ الآدب بجامعة الجزائر .

مقومات الشخصية



عبد الحميد مهري

آدار الندوة عثمان شبوب

قضية الشخصية الوطنية تحتل مكان الصدارة في مشاكلنا الفكرية والخلقية والاجتماعية وحتى السياسية والاقتصادية لانها موضوع الساعة الذي تجرى فيه مناقشات واسعة في مختلف الاوساط . فمن الضروري ان نبسط هذا الموضوع ، ونحدد معالمه بوضوح ، حتى نعرف وجهتنا، وطريقنا الى المستقبل .

واود ان الاحظ منذ البدء ان المجلة عندما فكرت في تنظيم لقاء يضم بعض المثقفين، لمناقشة موضوع الشخصية الوطنية ، وعرضت الفكرة عليهم اصطدمت بنوع من الحذر والحيرة عند بعضهم .وكان من اسباب هذا الحذر وتلك الحيرة، ان هذا الموضوع معقد وشاق ومحفوف بالاخطار ونتائجه مشكوك فيها .

وفي راى هؤلاء ان الحديث عن شخصية الامة — ايا كانت — يواجه من حيث المبدا اعتراضات علمية منهجية ، اذ من الصعب — في نظرهم — تشبيه الامة بالفرد من حيث وجود سمات ثابتة للشخصية، اذ ان مثل هذا التشبيه ينطوى على تعميم لا يستساغ في العلم

اذ من رايهم ان الحديث عن الشخصية الوطنية يتطلب اجراء بحوث ودراسات منهجية على عدد كاف من الافراد ، حتى يتسنى لنا ان نحكم بان هذا الشعب مثلا، له خصائص مشتركة تنطبق على جميع افراده .

والاعتراض الثانى يتلخص في ان اصحابه يرون ان طرح هذا الموضوع في الوقت الراهن يخلق لنا مشاكل كثيرة ، ونحن في مرحلة انتقالية احوج ما نكون الى وحدة الصفوف .

فرايى ، ولعل الاساتذة يتفقون معى في هذا ، ان نبدا نقاشنا بمعرفة مدى وجاهة هذين الاعتراضين :

الوطنية

شارك فى الندوة

عبد الحميد مهرى
الامين العام لوزارة التعليم الابتدائى والثانوى
عمار طالبى
استاذ الفلسفة بالجامعة
الشيخ بوعمران
استاذ الفلسفة بالجامعة
محمد العربى ولد خليفة
استاذ علم النفس بالجامعة
عبد الرحمن حاج صالح
مدير معهد اللسانيات واستاذ بالجامعة .



عمار طالبى



الشيخ بوعمران



عبد الرحمان حاج صالح

مهرى : اعتقد ان الحديث عن الشخصية الجزائرية اذا وقع تناوله فى مناقشة من المناقشات ، او بطريقة من الطرق بقصد البحث ، وبقصد بغية التوصل الى الحقيقة ، وبدون افكار مسبقة ، فان هذا سيكون ولا شك عنصرا ايجابيا ، فى المرحلة الراهنة ، ولكن محاولة اعطاء تعريف مرتجل ، او غير مدروس للشخصية ، والانطلاق منه بدون درس وبدون تمحيص هو الذى يكون غير مقبول .

بوعمران : رأيى ان اعتراض هذا الذى يدعى المنهجية ، ربما يؤدى بنا الى اكثر من المقصود بالنسبة الى الشخصية اذا فكرنا فى هذا الموضوع ربما يصعب علينا مناقشة اى موضوع يتعلق بواقعنا . مثلا الثقافة الوطنية هل يمكن تقييمها والتعليم والتربية ، والاقتصاد ؟ . هل كل هذه المسائل ليست لدينا اذا فتحنا هذا النقاش ولا نملك جميع المعلومات والاحصاءات التى تسمح لنا بأن نناقشها على ضوء مناهج سليمة ، واظن بأن هذا الاعتراض ليس له فائدة بالنسبة لموضوعنا هذا ، او لموضوعات اخرى ، الا اذا كان المقصود منه التعمق فى الموضوع ، والتركيز على بعض القواعد ، سواء كانت منهجية



محمد العربى

او غير منهجية ، هذا مقبول طبعا .

الطالبى : ان من يعترض مثلهذا الاعتراض لا يفترض ا نهناك شخصية جزائرية ، ولكن الواقع ان هذه الشخصية هى التى استطاعت ان تدافع عن نفسها ، فيمكن لنا أن نستعرض هذه الصفات التى استطاعت بها هذه الشخصية ان تقاوم وان تثبت ذاتيتها واستقلالها ، وتثبتانها لم ترض ابدا ان تندمج فى شخصية اخرى او فى حضارة اخرى اندماجا تاما ، والمقاومة المستمرة للشعب الجزائرى تدل على أن هناك شخصية وهذا يبرر لنا البحث فى هذه الشخصيةومعرفة هذه الصفات فى النواحى الحركية مع تغير التاريخ ، وفى النواحى الثابتة أيضا خلال هذا التاريخ .اظن انه باستطاعتنا ان نبحث هذاالمشكل ، وأن ننتهى الى صفات مشتركة ولو كانت قليلة ، اظن ان الانسانية كلهاتنتمى الى عنصر واحد من الناحية البيولوجية لا يختلف انسان عن انسان ، فنحن لا نثير البحث فى النواحى البيولوجية التى يشترك فيها بنو آدم كلهم ، وانما نثير النواحى الاجتماعية لا باعتبار انها علم ، أو تيار عقائدى فقط .

حاج صالح : نعم انا موافق تماما على هذا الراى ، الا اننى ، أؤكد ضرورة ايجاد وسائل لاثبات هذه الشخصية للكشف عن كنهها بوسائل علمية ، اى بأبحاث ، واحصاءات وغير ذلك ، فانا طبعا اعتقد ان كل موضوع يدور حول الشخصية ، بما ان الشخصية مثل الظواهر الطبيعية ، فلابد من المشاهدة ومن العيان ومن الملاحظة ، وهذه الملاحظة لا تتم الا بتلك الوسائل العلمية ، الا اننا مادمنا مستعجلين فى قضية الكشف عن الشخصية فلا بأس من الاجتهاد الشخصى الذى يمكن ان نسميه الاستبطانى ، اى التأمل الباطن الذى ربما ساعدنا شيئا ما الا اننى شخصيا لا اظن انه يصل بنا الى كبير فائدة ، فأنا متيقن ان قضية ضرورة وجود شروط معينة لموضوعية البحث ، هذا شىء لا بد أن يصبح كل شىء ، لكن هذا لا يمنع من أن يتناقش الالمعيون والناس الاذكياء وذوو البصر ، من المواطنين .

محمد العربى : فيما يخص موضوع الشخصية بقطع النظر عن كوننا نبحث عن الشخصية القومية ، أو الشخصية الوطنية ، وبهذه المناسبة اسمح لنفسى أن الاحظ ملاحظة للاخ عثمان شبوب ، تتعلق بحصره موضوع المناقشة فى شخصية وطنية ، هناك اغفال ، لبعد ثانى ، أو دائرة أوسع تغذى الشخصية الوطنية هى الشخصية القومية .

الشخصية الوطنية ليست الا دائرة صغيرة فى دائرة اكبر ، هى الشخصية الوطنية ،هذه ملاحظة جانبية فقط ، نثيرها حول تعليقكم الاول ، اما موضوع الشخصية نفسه ، فهو موضوع من اعقد الموضوعات سواء كان فى علم النفس او علم الاجتماع ، فكل بحث يبدا بمعاجلة الشخصية وينتهى الى محاولة ايجاد حل لها ، لكن انا أرى ، وفى هذا اوافق بعض الشىء الاستاذ عبد الحميد ، فى ان موضوع التعريف ليس مهما ، فى المرحلة الاولى فمن البديهيات الواضحة وهذا فى مجال الرد على دعاة المنهجية فى هذا الموضوع أننا فى كل يوم ندفع لمحصل الكهرباء ثمن ما استهلكناه ، ولكن لا يعرف أحد من عامة الناس او من خاصتهم ما هو كنه الكهرباء ويبدو على اغلب الظن ان موضوع الشخصية بالنسبة لنا ينبغى ان يطرح فى نطاقين .

نطاق تاريخى وآخر حضارى بمفهوم نفسى اجتماعى ، فى هذه الناحية ينبغى لكل من

يدرس هذا الموضوع أن يلاحظ ظاهرتين حدثتا في الشخصيـــة القوميـــة .

الظاهرة الاولى أسميها : ظاهرة الاحتواء وهـــو ان الشخصيـــــة الوطنيـــة ، او القومية بصفة عامة واجهت في بداية امـــرها عملية امتصاص ، ان الانهيار الذي حدث في بداية الاحتلال جعل الشخصية القومية امـــا ان تندفع في اتجاه القوة الاستعمارية بعتادها الفني وبهرجها الحضاري الى غير ذلك ، واما ان تنكمش ، ففي المرحلـــة الاولى فضلت الانكماش لكي تتقي الاحتواء ونتج عن ذلـــك الانكماش ظاهرة أخرى اسميها « بالنبذ » ، وهو أن المستعمر اغفل هؤلاء الناس وطرحهم تماما ، فانزووا في القباب ، وظهرت بعـــض المظاهر مثل الطرقية واجترار الماضي الى غير ذلك ، في خلال هذا المجال يمكن — يعني مجال عملية النبذ والاحتواء — يمكن أن نجد طريقنا الى وضع الشخصيـــة القوميـــة موضعـــها الصحيـــح .

بوعمران : اعتقد اننا في هذه المرحلة مـــن البحث يمكن ان ننتهي الى نتيجتـــين :

الاولى : اهمية الموضوع والثانية اهميـــة مناقشته مناقشة علمية هادئة ، وهذا طبعا لا يتوقف مثل ما يرى البعض على توفر عدد من الدراسات ، أو من الاحصاءات ،

ثانيا : أما الهدف من هذه المرحلـــة التي نجتازها ينبغي أن يكون الوصول الى تحديد عام للشخصية ، ينفي النظرات الضيقة أو النظرات التحزبية ، التي تريد ان تستعمـــل شعار الشخصية وقضية الشخصية لهـــدف سياسي قريب فـــاذا كـــان البحث في هـــذا الموضوع يـــرمي الى تحديـــد الخصائـــص الاساسية الثابتة الدائمة التي من شأنهـــا أن تكون عوامل في تطور المجتمع اعتقد أن هذا من الاهمية بمكان ، وان هذا الموضوع يرتبط تما م الارتباط بمستقبلنا وحاضرنا ، كما يرتبط بماضينا .

انا يودي أن أضيف الملاحظة التي هي : انا دخلنا بعد ، في بحث مفهـــوم الشخصيـــة الوطنية ، والتمهيد طبعا الذي تناقشنا فيـــه في المنهجية ، ما هو الا تمهيد ، ويبدو لي ان ندخل الان في مفاهيم الشخصية الوطنية حتى ندرس ما فيها من سمات ثابتة ، وما هـــي الجوانب التي يمكن ان نحصر فيها الشخصية الوطنية ، انطلاقا مـــن واقعنـــا في الجزائـــر بالـــذات .

الطالبي : الحقيقة اننا في تنـــاولنا لهـــذه المشكلة ، لا نبدأ من نقطة الصـــفر . بل ان هنا لك وقائع تاريخية وهنا لك وثائق مسجلة في مختلف الاثار التي تركها الفكـــر في هـــذه البلاد ، نستطيع ان ننطلق منها وان نجعلهـــا بمثابة مادة نستأنس بها ونعتمد عليها ، وهذا لا يمنع أننا سنبحث هذا الموضوع بحثا قائما على دراسات منهجية ، وعلى احصاءات ، وعلى تحليل هذه الاحصائيات وما الى ذلك ، من المناهج العلمية المعروفة في الدراســـات الاجتماعية والنفسية والتاريخية ايضا ، ولكن ينبغي ان نعترف بأننا نعيش في هذا المجتمـــع المستمر في التاريخ ، ومن جهة اخرى فاننـــا نقرأ وثائق وتاريخ لهذا المجتمع ، ومن خلال هذه الاشياء التاريخية نستطيع ان نستخلص وان نستخرج المقومـــات الاســـاسية لهذه الشخصية التي نستطيع ان ننتهي فيها الى راي فيما اظن في هذه الندوة .

سؤال : الان يبدو لي مـــن الفائدة ان ننتقل الى مناقشة الاعتراض الثاني الذي يعتقد ان اثارة هذا الموضوع في الظرف الراهن ، سيهـــدد وحدتنا ، ويصيب تماسكنا ،

مهـــري : اعتقد ان هذا العذر الذي يقدمه البعض لعدم بحث هذا الموضوع ، لا اساس له من الصحة لان هذا الواقع عرفته جميـــع الشعوب وتعرفه جميع الشعوب فليس هناك شعب يتميز بخصائص مستقلة تماما عـــن المجتمع البشري او مستقلة تماما عن التبادل الحضاري والفكري ، وليس هناك شعـــب تتساوى فيه خصائص وتنسجم الى درجـــة انها لا تمثل الا وحدة منسجمة ، فانا لا ارى ان هذا يكون مبررا كافيا لعدم طرح القضية

هناك طريق تناول القضية ، وهذا اشرت اليه فى السابق اذا تناولنا البحث فى قضية الشخصية وانطلقنا من عاطفة عابرة او موقف سياسى وقتى، او نظرة ضيقة للامور فان هذا حتما لا يؤدى الى نتيجة ايجابية .

ولكن أعتقد ان هذا ليس ما نعنيه عندما نطلب او نؤكد على ضرورة البحث لهذا الموضوع فنحن نعنى البحث السليم والبحث العلمى ، وتبادل الاراء فى مشكلة من اهم مشاكل نهضتنا فى العصر الحاضر .

بوعمران : انا فى رائى هذا الاعتراض يرمى الى حقيقة لو اعتنينا بها ربما تبعدنا عن الموضوع ، وهى ربما فى الحالة التى نعيشها الان ، ثمة مجهودات ، ثمة مساعى تتطلب منا بحث مسائل اخرى غير هذه المسألة ، فى رائى هذا الراي غير سليم من نواحى :

اولا : لا ارى ما يمنع من بحث قضية جوهرية مثل هذه وهى الشخصية الوطنية ، ولا ارى كيف يرى البعض عدم بحث موضوع مثل هذا ، فاننا نبحث فى موضوعات اخرى مثل الثقافة العالمية ، او التقدم العلمى او الاستقلال الاقتصادى ، او السياسى ، وكل هذه المسائل لا تركز الا اذا كانت هناك شخصية وطنية .

والناحية الاخرى : التعريف بالشخصية الوطنية او بحث الشخصية الوطنية ، لا يتناق مع تفتحنا نحو العالم ، العلمى ، او الثقافى ، لان العالم الذى نعيش فيه الان لا يمكن ان ينزوى على نفسه وكل المعلومات وكل الحدوات اليوم اصبحتمتبادلة ، ولكن اخشى ان يرمى البعض بتقديم هذا العذر او الاعتذار الى ان نذوب فى غيرنا ، فى شخصية غيرنا او فى ثقافة غيرنا ونهمل هذا الجانب الاساسى الذى فى الواقع يقره التاريخ ، تاريخنا القديم ، او القريب ، وحاضرنا ومصيرنا ، كل هذا مرتبط بتعريف شخصيتنا الوطنية ، فى اوصافها العامة كما قلنا ، لا فى التركيز على بعض الفوارق الجزئية التى توجد من قرية الى قرية، او من جهة الي جهة ، او فى عوائد عابرة وفى

خلاصة هذا القول ، اريد ان اركز على حقيقة وهى :

لا وجود لشعب مهما كان الا وكانت له شخصية ، ونحن نبحث فيما يتعلق بنا فى هذه الشخصية ، وهى موجودة كما تفضل بقية الزملاء ، موجودة لا ينكرها احد ، وهى غير مبنية على جزئيات او اختلافات ، او عناصر ، متباينة ، وانما هى تجمع ابناء الوطن كلهم فى مقومات ، ويبدو لى ان الوقت حان لنتحدث على هذه المقومات .

سؤال : اذا سمح لى الاستاذ بوعمران ، اريد قبل ان نشرع فى مناقشة المقومات، ان نناقش مسالة تبدو لغوية فى الظاهر ، ولكنها فى الحقيقة لها ابعاد سياسية، هى مسالة استعمال كلمة الوطنية بدلا من القومية .

محمد العربى : اظننى طرحت من قبل هذا الموضوع ، الحقيقة ان الوطنية بتعبير مبسط وربما ساذج نوعا ما ، هو « عملة » القومية يعنى هناك شىء كلى ، وهناك تنوع داخله ، وهذا التنوع هو ما نطلق عليه الوطنية ، والحقيقة يمكن النظر الى مستويين فى طرح هذه المشكلة . هناك شخصية قومية بما تجمع من مقومات عامة يشترك فيها كل ابناء الوطن الذين لهم لسان واحد ، ودين واحد ، وتراث مشترك من قديم ، وهناك تنوع داخلى يميز بعض المظاهر الاجتماعية والحضارية الجزئية التى تخص كل منطقة داخل الوطن الواحد، وعلى مستوى الوطن كله ، انما اريد ان اضيف تمييزا آخرا ، وربما هذا داخل فى اختصاصالاستاذ الحاج صالح وهذا بمجرد طرحنا لكلمة الشخصية وحتى من الناحية اللغوية كلمة شخص على ما اعتقد لست ادرى هل يوافقنى الاستاذ الحاج صالح فشخص يعنى ظهر وبرز ، فكلمة شخصية نفسها ، ليست فى حاجة بمعناها المنهجى الى الدوران فى الحلقة المفرغة ، وهذا

رد على دعاة المنهجية المتذرعين باسم المنهجية لاثبات أن الشخصية الوطنية الجزائرية غير موجودة فى وقائع مجسدة فى احصائيات ومواقف تاريخية ودراسات الخ ..

ليس هناك شعب يخلو من الشخصية على ان هذه الشخصية قد تتكامل ، وقد توجد فيها بعض الثغرات ، بالنسبة لنا ، وجدت بعض الثغرات والغموض المفتعل ، نتيجة التصادم الحضارى الذى وقع بيننا وبين حضارة اخرى مختلفة عنا ، اذا فينبغى أن نميز بين التنوع وبين التفتت ، فالتفتت هو ان ينسلخ شعب عن شخصيته ، مثلما حاول الامريكيون أن يفعلوه بالنسبة للهنود الحمر او الاسكيمو ورد الفعل أو الثبات ، والسعادة والتكامل مثل ما حدث عندنا .

حاج صالح : القضية صحيح ، لها مساس باللغة ، يظهر لى هنا انها نسبة الى وطن ، ونسبة الى قوم ، الفارق ظاهر ، ان الشىء الوطنى ، المنسوب الى الوطن ، كأنه شىء فردى ، لان السلوك الشخصى يكون وطنيا ، كذلك لكن بنوع من المجاز ، كذلك السلوك الجماعى ، الا أن السلوك القومى لا يكون الا جماعيا ، يعنى من الممكن ان نطلق على الفرد الواحد أن له موقفا مشرفا ،من حيث الوطنية، اما القومية فهى اشمل ، يظهر ان القومية هى اشمل ، لان القومية ظاهرة لا تخص الوطن كوطن ،لكن تخص الوطن بما فيه . المواطنون، وبما فيه الماضى ، والمستقبل ، والاقتصاد ، وكل شىء ، لست ادرى هل هذا يعنى .

س : هناك مسالة اخرى ، ونحن طبعا ما نزال فى اطار العموميات ، تحتاج فى راى الى تحديد ، وهى مسالة الشخصية البربرية . هناك من يحرف مفهوم الشخصية الوطنية ، ويعتقد ان المقصود بذلك ، هو الشخصية البربرية .

حاج صالح : لا ، هو بالعكس ، قضية الوطنية هنا لا تخص فئة من الفئات خاصة من الفئات التى تتكون من البلد ، هذا البلد الذى نعيش فيه ، الوطنية لا ترادف الاهلية اذا قلنا الاهالى الاولون لافريقية الشمالية هم البربر فلا شىء ، اما الوطنية فكأنها شىء متعلق بالارض ، وكلمة وطن لم تعن ابدا عند العرب القومية ، انما هى عندهم دائما مثلا حب الوطن من الايمان هذا فى الحقيقة له معناه ، هو حب مكة ، بالنسبة الى النبى عليه الصلاة والسلام هو مسقط راسه ..

الطالبى : يبدو اننا دخلنا فى تحديد الالفاظ اللغوية وما الى ذلك ، لكن المهم هو المعنى ويمكن القول بأن هناك طريقتين للتعبير عن الشخصية اما أن ننسبها الى الوطن ، واما ان ننسبها الى القوم الذين يعيشون فى الوطن، فيمكن ان نقول ان كلمة وطن ، وكلمة قوم متطابقتان ، فالقوم يعيشون فى وطن ، والوطن يعيش فيه قوم ، فلا يقصد بالوطن النواحى الجغرافية والترابية فقط ، ولكن ان هؤلاء القوم ربما يكونون جزءا من قومية اعم ،فبهذا اعتبرنا أن هؤلاء القوم ، الذين ينسبون الى وطن خاص ، اما اذا نظرنا الى هؤلاء القوم كجزء من قومية اعم ، فيمكن أن نقول بأن القومية أعم من الوطنية ، فيصبح الوطن اقليميا بالنسبة لقوميته العامة، وأما كون هؤلاء يقولون بأن القومية هى البربر ، اظن ان هذا من الناحية التاريخية لا يجوز أن نقتصر عليه ، لان الاقوام قد اختلطت فى هذه البلاد وتمازجت ، فلا يمكن أن نميز تمييزا واضحا تماما بين عربى او او بربرى ، أو غير عربى، او رومانى او غير هؤلاء من العناصر العرقية والاجناس .

مهرى : اعتقد ان الفارق بين الشخصية الوطنية ، والشخصية القومية هو أن نعطى الاولوية الاولى فى التعريف الى العامل الجغرافى بمعنى اننا نعتبر السكان الذين يسكنون فى

منطقة جغرافية موحدة لهم من الخصائص ومن السمات الاجتماعية ما يميزهم حتى عن جيرانهم الاقربين وسواء كان هذا الشعب محصورا في هذه المنطقة الجغرافية من اصل بشري واحد ، أو من معتقد واحد ، او كانوا مختلفين في هذه النواحي ، فالمهم اننا اذا تحدثنا عن الشخصية الوطنية ، فأننا لا نعتبر ان حدود الوطن ؛ الحدود الجغرافية السياسية . لا تقف حاجزا دون شمول هذا التعريف سواء لمجتمعات مجاورة قريبة او بعيدة ، واعتقد ان الاستعمال اليوم لهذه الكلمات قد يعيننا على تحديد مفهومها لا بالنظر لاصلها اللغوى ،ولكن بالنظر للاستعمال المستعمل الان ، وعلى هذا فيكون تفضيلنا ، للتعريف ، سواء بالشخصية الوطنية أو الشخصية القومية . بل لتحديد مفهوم هذه الشخصية .

ابو عمران : في رأى اذا اردنا الجواب على هؤلاء الذين يقولون بأن الشخصية الوطنية عندنا مثلا هي فقط الشخصية البربرية ،يجب أن نرد عليهم من ناحية التاريخ أولا . ومن ناحية الواقع . من الناحية التاريخية حقيقة

توجهنا الى الاستاذ ابراهيم مزهودي مدير الشؤون الثقافية بوزارة التعليم الابتدائي والثانوي بسؤالين :

١ — القنوات التي تصل الشخصية الوطنية بالشخصية القومية .

٢ — تحديد الشيخ باديس لمقومات الشخصية الوطنية وهل ما يزال يحتفظ بقيمته أم تجاوزته الاحداث ؟



وهذا نص جوابه :

لعل الدراسات التاريخية والجغرافية من جهة ، والسوسيولوجية من جهة أخرى باستطاعتها تحديد نقاط الوطنية والقومية ، أو الشخصية القومية على حدة والوطنية على أخرى ، وهي ظاهرة منطورة عبر العصور والازمنة لم تخضع في عصر من العصور الى مقاييس ثابتة ، بل كانت تتبع مفهوم الوحدة المتطور حسب الازمنة والامكنة .

فلنأخذ على سبيل التمثيل هذه الظاهرة عند الشعوب السامية في الجزيرة العربية ، فاننا نجد ان المفهوم القومي كان باستمرار عبر التاريخ القديم محاولة للخروج من اطار القبلية الضيق ، الى اطار اكثر منه اتساعا ومرونة وفي هذا الاطار القومي نجد بعثة الانبياء ، ورسالات الرسل ، اذ كانت تلك المجتمعات القبلية يخاطبها زعماؤها وأنبياؤها — بالقوم — :

(يا قومي أجيبوا داعي الله) وقوم عاد وقوم فرعون. ولعل في هذه العصور القديمة لم تتبلور فكرة الوطن اذ كانت مضارب الاقوام ومنازلهم هي أوطانهم تتغير بتغير تحولهم عنها الى غيرها . ولعل هذا المفهوم بدوره هو الذي يبرر لنا تعدد الهجرات من صقع الى صقع طلبا للمحافظة على كيان القبيلة الذي كان يعتبر الخلية الاساسية للعمران في تلك العصور ، كلما داهمه ما يخشى عليه منه ، من تفتت او تصدع ، كالامراض والمجاعات ، والاوبئة ، والحروب المدمرة والافات الطبيعية .

واستمر الحال فيما عرفه التاريخ القديم على هذا المنوال أو قريب منه ، حتى كانت العصور الحديثة ، وفي أرض أوروبا تبلورت فكرة الوطن داخل حدود معينة او تكاد ، واصبح عنصر الارض يلعب دوره في هذا المفهوم الذي لا يزال مستمرا حتى الان ، وعمت فكرة الوطنية بمفهومها هذا في سائر ارجاء الارض المتحضرة ، او التي هي في طريق التحضر .

والقومية بدورها في عصرنا الحاضر احدث لها مفهوما اشمل واوسع من العصور القديمة ، اذ اصبحت تحمل فيما تحمله من معاني وحدة اللغة المشتركة ، والعقيدة ، الواحدة ، والخصائص الثقافية والحضارية الجامعة . وارتفعت بالمستوى الانساني فوق اعتبارات الجنس والقبيلة والحدود الوطنية الضيقة . وفي هذا الاطار نجد خصائص الشخصية الوطنية لا اقول تذوب ، ولكنها تتفاعل وتتفاعل وتتسق لتصبح بخصائصها وخصائص ومقومات الشخصية القومية تتكون الامة بمفهومها الحضاري الحديث .

اما الجزء الثاني من الموضوع المتعلق بتحديد ابن باديس لمقومات الشخصية بعناصر ثلاثة ، فاني اريد

ان السكان الاولين كانوا ينتمون الى هـذا العنصر البربرى ، ولكن اتت حضارات كثيرة على هذا الوطن ، لا على الجزائر فقط ولكـن على المغرب بأكمله ، وربما حتى ابعد مـن المغرب. الوطنية لا تقوم عندنا على عنصر معين ، فالواقع لا يبـرز ما ذهبـوا اليـه ، والماضى لا يبرر ما ذهبوا اليـه ، والعلـم لا يثبت ما ذهبوا اليه ، وانما اذا اردنا ان نفهم الشخصية الوطنية بمفهوم اوسـع ينبغى ان نفكر فى الطابع الحضارى الذى تنتمى اليـه الشخصية الوطنية ، وهذا ما ياتى فيما بعد فى حديثنا .

محمد العربى : انا عندى ملاحظتان :

اولهما : تتصل براى الاستاذ الحاج صالح

ثانيتهما : براى الاستاذ عبد الحميد .

فيما يخص راى الاستاذ الحـاج صالـح بالتفريق بين الشخصية القومية ، والشخصية الوطنية قال ان الشخصية الوطنيـة هـى شخصية فردية ، وان الشخصية القوميـة هى شخصية جماعية ، الوطنيـة مفهـومها اللغوى فردى ، والقومية مفهومها جمعى ، قد يجوز هذا من الناحية اللغوية البحتة ، لكـن

الوقوف عند عنصر واحد من عناصر مقومات الشخصيـة الوطنية فى رايه ، وهو عنصر العقيدة والدين . والامام ابن باديس فى هذا المقام يتحدث عن الاسلام .

فى اعتقادى ان الدعوة الاسلامية فى جوهرها تتجاوز حدود مفهوم القومية بمعناها القديم والحديث ، كما تتجاوز حدود مفهوم الوطنية كما عرفت فى العصور الغابرة اذ ان هذه الظاهرة الاجتماعية والتاريخية فى جميـع عصورها واصقاعها ، لم تكن تهدف لتحقيـق الـوحدة البشرية الا فى حدود اقليمية ، او جنسيـة او قبليـة ، او قومية . وهى ظاهرة مهما بلغ بها التطور والشمول لم تكن بالغة الهدف الذى من اجلـه جـاءت الدعـوة الاسلامية فى تجاوز جميع الحدود الشخصية الوطنية او القومية ، القديمة منها والحديثة .

ذلك ان الاسلام جاء بمفهوم جديد للوحدة الانسـانية ونقطة الانطلاق من هذا المفهوم تبدا اول ما تبدا من عنصر فكرى هو الايمـان بالتوحيد ، توحيد الخالق ، وفى تسليم البشرية قيادتها لهذا المبدا اسلمت وجههـا للتشريع والتنظيم والتوجيه الصادر عن هذا المبدا ، والمنبثق عن عنصر الايمان بتوحيد اللـه . وفى هذا الاطار نشات قاعدة لمفهوم جديد للوحدة الانسانية يتجاوز جميع حدود المفاهيم السابقة واللاحقة ، تلك المفاهيم الضيقة المحدودة للوطنية والقومية . وهى ظاهرة تاريخية ثورية انبثقت مع الاسلام وتعاليم القرآن ، اذ جعلت من العقيدة حجر الزاوية فى البناء الاجتماعى الجديد ، ومن التعاليم التى جاءت بها هذه العقيدة عناصر ومقومات للـوحدة الانسانية ، تتجاوز حدود الوطن والاوطان ، والقومية والقوميات ، ولاول مرة فى تاريخ الانسان فوق الارض تتبلور الوحدة الاسلامية فى اوطان العرب وقبائلهـا على ان تعم هذه الوحدة قوميا اوطان اخرى من ارض البربر فى الغرب ، الى مطلع الشمس من ارض الهندوس وعبدة النار فى المشرق .

وعلى ضوء هذه الظاهرة التى ذكرت ، فى اعتقادى ان جعل الاسلام مقوما من مقومات الشخصية الوطنية منسوبا الى الامام ابن باديس فيه من تضييق الواسع ما فيه ، الا على ضرب من التجاوز والتسامح ، ولعل ابن باديس يعنى الاسلام كمقوم للشخصية الجزائرية ، هو حفظها من الانحلال ومحاولة المسخ والدمـار التى حاولها الاستعمار لتدمير كياننا الروحى والحضارى . وبجعله الاسلام احدى مقومات شخصيتنا كان يهدف الى الابقاء على هذا الكيان الصغير محفوظا سليما فى هذه البقعة الصغيرة من الارض ، ضمن الكيـان الاسـلامى الكبير الذى لا يعرف له حدودا سوى حدود العقيدة من مطلع الشمس الى مغربها . ولعل باديس هو القائل ما معناه : «بخدمتى لوطنى الجزائر الصغير فانى اخدم وطنى العربى الكبير ، وبمساهمتى المتواضعة فى العمل من اجل الاسلام فانى اعتبر نفسى فى رباط فى ثغـر من ثغور الدعوة لكتاب اللـه ، ومختلف امم الارض تسعى لاعداد المواطن الصالح ولكن الاسلام يسعـى لاعداد الانسـان الصالح ليستحق خـلافة اللـه فوق الارض » .

ومن هذا المنطلق الفسيح الذى اتخذته الايديولوجية الاسلامية مجالا لها ، اسهمت الدعوة الاسلامية فى بنـاء الحضارة البشرية بتصور للحياة جديد ، وامدت الفكر الانسـانى بآلة تفوق فى اهميتها آلة البخار والكهرباء الالكترونية التى ابدعت الحضارة المادية للانسـان . ذلك ان الجانب المجهـول فى الانسان الذى لم تستطع الحضارة البشرية المادية والعقلية ، وضع يدها على مغلق سره ، الا وهو الجانب الذى رشح به الانسان لخلافة الله فى الارض . اعنى جانب الروح .

وجميع فلسفات الارض التى بحثت طويلا عن هذا الاكسير ، والسر المغلق فى الانسان المجهول ، لم توفق فى بحثها توفيق العقيدة الاسلامية فى وضع يدها على السر المحجب ، بحفظها التوازن بين مادية الانسان والكون . وعقل الانسان ، وروح الانسان . وبالتالى نشا عن هذا التوازن بين القيم الثـلاث : المـادة ، والعقـل ، والـروح ، تساوق وانسجام مع سنة الكون والعمران . وتحدد مفهوم جديد لرسالة الانسان على الارض بعيدا عن طغيان القيم الثلاث بعضها عن بعض بفضل التصور الاسلامى للحياة . ولو مضت الانسانية فى مسيرتها بسلوك طبق هذا التصور ، لتجنبت الارض كوارث الحروب والدمار ، ولا زهرت مدنية انسـانية ، وحضارة بشرية تكون بدايتها فوق الارض ، وفى آفاق السماء ، ونهايتها فى الاخرة وعلى مشارف الجنة .

ابراهيم مزهودى

وجهة النظر الفكرية ، القضيــة يبدو لى ان هناك اندماجا او تقمصا ان صح ان نستعمل احدى مقولات التحليل النفسى ، فان هناك ترددا او ذهابا وعودة ، بين « أنا » «ونحن» الانا لا يكتسب خصائصه الا فى نطاق الكل الذى هو « النحن » ، والعكس صحيح لا يوجد نحن بدون أنا ، لا يوجد هناك تجريد ماهية مستقلة عن خصائص فردية فيها ، أما فيما يتصــل بالاستاذ عبد الحميد قال : اننا ينبغى أن نركز على العامل الجغرافى ونبنى عليه تمييزنا بين الشخصية القومية والوطنية ان هذا التفسير بعامل واحد قد يبتر القضية ، أو قــد يعطيها تفسيرا غير كامل . وهو مالا يعنيـه الاستاذ مهرى .

اسمح لى يا حاج صالح :

فى وجهة النظر هذه ، فقد ســاد فى القرن الثامن عشر من تفسيرات مونتسكيو بالمنــاخ وحده او بالجنسى او بالاقتصاد الخ ... وقد تبين أن هذه التفسيرات التى تعطى جانبــا واحدا ، أو عاملا واحــدا ، لتفسير قضيــة بهذا التعقيد ، لا تستوفى الموضوع كله ،فيبدو لنا على اغلب الظن ان التفسير الصحيـــح للقضية ، هو أن توضح هذه القضية فبالنسبة للبلاد الامريكية ، نجد أن فيها أجناسا مختلفة من الناحية العنصرية .. عناصر ، — يعنى نستطيع أن نقول عناصر ، كل عنصر ينتمى الى سلالة مختلفة — هناك ألمان وأنكليز وبلغار .. لكن رغم ذلك هناك وحدة حضارية تجمع هؤلاء الناس كل منهم يقول أنا أمريكى ، مع أن جده الرابع او الخامس قبل ذلك كان المانى او ارلاندى ، او غــير ذلــك ، واذكر بهــذه المناسبة أن الانجليز الذين هاجروا أو اندمجوا واصبحوا أمريكيين بعد أن استقلت ، وعادوا بعد الحرب العــالمية الثــانية الى بريطانيا كانت الوصية الاولى التى يوصون بها هــى أن يحذروا من السخرية بلهجة الانجليز ، لانهم يعتبرون أنهم نســوا اصلهــم ، واصبحــوا يشعرون أنهم أمريكيون ، ولا صلة لهم بمــا هو انجليزى خلاصة القــول ان التفسيــر الشــامل ينبغى ان يكون متعدد العوامــل يحلل الموضوع فى نطاق حضارى ، الحضارة التى يدخل فى نطاقها كل فئات المجتمع العربى مهما كانت نوعية وكيفية الاختلافات الجزئية والتى تثرى مضمون الشخصيـــة الوطنيـــة وتعطيه سندا من الماضى والحاضر لتلتقــى به مع المستقبــل .

مهرى : أنا لم أنته الى فكرة ، ولم اقترح تحديد معينا ، وانما ظهر لى أننا اذا قيدنا الشخصية بالوطنية فاننا بدانا فى تحديد معالمها ، ونعتبر أن العامل الجغرافى هو العامل الاول فى تحديد الشخصية ، بمعنى ان المجتمع الجزائرى ، اذا قلنا الشخصية الوطنية للجزائر ، فمعنى هذا أننا نعتبر أن المجتمع الجزائرى له من الخصائص ما يكفى لتمييزه حتى على التونسى أو المغربى ، واذا قيدنا الشخصية بالقومية فاننا نكون بدانا بالفعل فى تعريف هذه الشخصية ، واعتبرنا أن المجتمع الذى نريد تعريفه لا يمكن حصره فى الحدود الجغرافية المعروفة للجزائر ، ولهذا بدا لى أن الفارق بين استعمالنا للشخصية الوطنية والشخصية القومية ، هو تقديرنا لاهمية العنصر الجغرافى وانما لم أقل بانه أهم عنصر فى تعريف الشخصية أو تحديد الشخصية ، هو العنصر الجغرافى ، وانما للتفريق فقط ، وتفضيلنا اطلاق احدى النعتين على الشخصية .

حاج صالح : قضية بناء الشخصية على عامل واحد ، فهذا طبعا لا ، لم اقلها ولا يقولها أى واحد ، هناك عوامل كثيرة تتفاوت على كل حال ، وربما يكون العامل الفلانى مثلا أشد تاثيرا على الاخر ، لكن التحديدات اللغوية لابد منها ، لان التحديد اللغوى للمعانى ليست أشياء ملموسة لابد ان نبحث فى ما وراء الفاظهــا ، فالالفاظ بما أنها مركب للمعانى لابد أن تدرس ، كاداة لحمل هذه المعــانى من شخص لاخــر ، فاذا قلنــا ان الشخصية الوطنية هى كذا ، فلابد من تحديد ما يقصده الناس ، من وراء هذه الالفاظ ، فانا يظهر لى أن الحضارة وخصوصا اللغة العربية ، تطورت فى السنوات الاخيرة ، ووقع نوع من الموازاة بين تطور المصطلحات الاخلاقية والفلسفية والعلمية فى أروبا من جهة ، وفى الشرق العربى والمغرب العربى كذلك . انا تتبعت شخصيا هذا التطور من ناحية وطنية وقومية ، صار الناس الان فى الشرق لا يطلقــون وطنيــة الا على مــا يسميه الفرنسيــون (Patriotisme) فاحتاج فى يوم من الايام الى ترجمة كلمة (Nationalisme) او (National) فكان بعض الكتــاب وبعض العلماء شعروا بنقص فقالوا ان الوطنية فيهــا نوع من الاشتراك فلجاوا الى هذه اللفظة « قومية » ، لانها تدل على ما يدل عليه اللفظ الاوروبى ، وهذا ليس معناه أن كلمة « قومية » كما كانت موجودة عند العرب وكانت مهملة أو منسية فانبعثت من جديد ..

« القسم الثانى فى العدد القادم »

ابن حماد الصنهاجي

جلول بدوي

تستأثر الجزائر برصيد نادر ، لذخيرة فذة ، من خيرة ابنائها الذين رفعوا لواء مجدها الثقافي اجيالا متتالية ، في المشارق والمغارب ، منذ أن أشرق نور العرفان السماوي في هذه الربوع ، وتألق نجم الهدى النبوي في سمائها ، يهتدي به الضالون في الليلة الليلاء ، ويستنير به المدلجون الحيارى في المتاهات

لقد خف أبناء هذه الارض الى تناول ذلك المشعل الوهاج الحضاري يتلقفونه من أيدي القادة البهاليل الذين تغلغلت في نفوسهم دعوة الحق ، ودفعتهم الى تمكين هذه الدعوة اينما توجهوا وحيثما حلوا رغبة في

تبليغ كلمة الله لعباده ، امانة تعهدوا باداتها يوم أن بايعوا محمد ابن عبدالله ، المبعوث الى الناس كافة ، دانيهم وقاصيهم ، صلوات الله وسلامه عليه ، رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، اثابهم الله على ما اتوا ، وجزاهم بالحسنى .

عرفت التربة الجزائرية بانها تربة خصبة ، ليس فيها أجادب ، تؤتي ثمار نباتها كلما جادتها السحائب

واحيتها بغيث من وابل مدرار ، لا ينفك ينبت على اديمها افذاذا من أئمة كانت لهم مقامات جلى في ميادين العلم والمعرفة ، ظلوا بها همزة وصل بين العلماء ، الصادرين والواردين من المشرق الى المغرب ، ومن هذا الى ذاك .

ونأسف لكون الايام التي تعرف عددا منهم ليس بالقليل كيف طاب لها أن تسحب عليهم ذيل النسيان ، بينما نجدها تعنى بآخرين دون مستواهم شانا ومقاما . ! أظاهرة عزيز علينا أن نراها بادية على مر الايام ، ثم تبقى هي هي الى يوم الناس هذا ! وهو أمر باعد بين الناشئة وبين ماضيها حتى اصبحت تجهل تاريخ بلادها العلمي ، جهلا يحدمن مداركها ، ويحرمها من الانتفاع بمآتي قومها .

والحق أن التبعة تعود اولا وبالذات علينا ، نحن الذين جمدوا على ماحضر ، ففترت الهمم عن التفكير في محاولة الكشف عن تراث الاجداد العلمي الذي عرف بعضه عند الاباعد.

ولقد كنت فيما مضى كتبت شيئا عن بعض علمائنا وادبائنا ، نشر في حينه ببعض الصحف المحلية . واليوم اعود الى الموضوع من جديد ، . واول ما تمثل في خاطري تجلية شخصية مغمورة ، طوتها الاحقاب فيمن طوت ، وباتت نكرة ، قد لا يعرف عنها الكثير من القراء شيئا ، مع انها جديرة بان تعرف ، وقمنة بان تبرز للظهور ، شأن نظائرها من رجالات الادب والعلم . أوليس أن هناك رجلا انجبته بلاد الجزائر في عهد من عهودها الخوالي المزدهرة يدعى (ابن حماد الصنهاجي)؟ فمن هو ؟ ومن عساه أن يكون ؟

التعريف به

هو الامام ابو عبد الله محمد بن علي بن حماد بن عيسى ابن ابي بكر ، ينحدر من قبيلة صنهاجة العتيدة التي كانت تشغل ساحات مترامية الاطراف من القطر الجزائري . ولد باحدى القرى المنبثة حول « قلعة بني حماد » تدعى باسم « حمزة » في اواخر النصف الاول من القرن السادس ، وعلى وجه التقريب سنة ٥٤٨ هـ ١١٠٥ م

ونشأ بالقرية المذكورة في عهد الناصر بن علناس أعظم ملوك بني حماد ، تلك القلعة التي عاشت مزدهرة برجال الفكر والادب والسياسة ، بفضل تشجيع مؤسسها وأهل العلم حينا من الدهر ، حتى كانت كعبة القصاد ، ومنتجع الرواد ، وفيها بدأ ابن حماد يتعلم ويتقلب في مدارج العلم والعرفان ، يأخذ عن كبار علمائها وأدبائها حتى قضى لبانته من ذلك ، ثم تحول الى مدينة بجاية

حيث اتم ما بداه بالقلعـة .

نذكر من بين مشائخه واساتذته الذين تخرج على ايديهم :

ا ـ المربى الشهير الشيخ ابا مدين شعيب بن الحسن الاشبيلى البجائى المتوفى بقريـة « العباد » من ضواحى تلمسان سنة ٥٩٤ هـ ومن جملة ما روى عنه كتاب : (المقصـد الاسنى فى شرح اسماء الله الحسنى) .

ب : عبد الرحمن بن عبد الله ، ابا محمد الازدى الاشبيلى المولـود سنـة ٥١٠ هـ باشبيلية ، والمتوفى ببجاية سنـة ٥٨٢ هـ صاحب التآليف القيمة ، فى الفقه والحديث واللغـة ، روى عنـه كتـبا كثـيرة فى الحديث وخاصة موطأ الامام مالـك .

ج ـ الامام حسين بن عـلى بن محمـد الشهير بـ « ابى على الموسيلى » والملـقب بابى حامد الصغير ، بسبب تاليف له سالك فيه مسالك الغزالى فى الاحياء ، قال فيـه بعض العلماء : ان كلام ابى على فيه احسن واسلم من كلام الغزالى . مات ببجاية ، ودفن عند باب « اميسيـون » ولـم يعلم تاريـخ وفـاتـه .

د ـ : الشيخ ميمون بن جبارة ـ ابا تميم البارودى الـذى كـان قاضيـا ببلنسيـة بالانـدلـس ، ثـم ببجـايـة الـى ان استدعى منهـا الى تولى خطـة القضـاء بمرسية . وفى طريقه اليها ادركته الوفـاة بتلمسان ، رحمه الله .

ـ : الشيخ ابا العباس بن مبشر .ونأسف لكوننا لم نعثر على شىء من اخبار هـذا الشيخ ، فى اى مصدر من المصـادر التـى رجعنا اليهـا .

٣ ـ تـلامـذته

لم نتمكن من معرفة اسماء تلامذته الكثيرين الذين لازموه واخذوا عنه الا واحدا عـرف بالشيخ العالم القاضى محمد بن عبد الحـق بن سليمان التلمسانى الذى كان حيا سنـة ٥٨٤ هـ

٤ ـ معلـوماتـه

ابرز ما تلقي من العلوم عن مشائخه هو(١) العلوم القرآنية من تفسير وقراءات وتجويد ، (٢) مصطلح الحديث وعلومـه ، (٣) علـم الاصول ، (٤) علم النحو والصرف ، (٥) علم الادب ، (٦) علم التاريخ (٧) علوم الرقائـق والاذكار . وقد كان له من هذه الفنون حظ وافر وباع اى باع

٥ ـ رحـلاته ووظائفـه

لقد تقلب فى البلاد ورحل الى مدينة الجزائر وتلمسان ، والى المغـرب الاقصى ، ولقـى عديدا من العلماء اخذ عنهم واعطاهم . ثـم انتقل الى الاندلس حيث اسند اليه القضاء بالجزيرة الخضراء ، وصرف بعد حين عنها ليتولى خطة قضاء مدينة « سلا » بالمغرب سنـة ٦١٣ هـ

٦ ـ آثاره العلمية والادبية

انتـج ابن حمـاد فى ميادـين مختلفة من الفنون كما قدمنا وكتب فيها عدة تآليف لـم نعرف من اسمائها الا هـذه :

ا شرح كتاب « الاعلام بفوائد الاحكام » تاليف شيخه عبد الحق الاشبيلى .

ب : شرح مقصورة ابـن دريـة .

ج : النبذ المحتاجة فى اخبار صنهاجـة بافريقية وبجاية . وهو اكبر كتاب فى التاريخ الصنهاجى يتضمن فوائد لا يجدها الباحث فى غيره . نقل منه كثيرا علامتنا عبد الرحمن بن خلدون فى تاريخه الكبير عند حديثه عن بجاية وما حولها . وقد اهتم به المستشرق الفرنسى (شربونو) فنشـر قسما منه فى « المجلـة الاسيوية » سنة ١٨٥٢

د ـ برنامج كبير ذكر فيه شيوخه واسماء الكتب التى قراها ونص فيه على انه لخـص « تاريخ الطبرى » الكبير وقـد ضاعت هذه الكتب فيما ضاع من آثار الرجل لم نعرفمنها الا اسماءها ، وعسى ان ياذن الله فى العثور عليها او على بعضها ، انه جواد كريم .

هذا وقد حفظت لنا الايام كتابا آخر لـه فى التاريخ سماه « اخبار بنى عبيد » مـن

الفاطميين عنى فيه باخبار دولتهم فى الجزائر وتونس ، لم تذكره المصادر القديمة ، وتوجد منه نسخة بالمكتبة الوطنية بالعاصمة . وهناك من هو منكب على تحقيقه والتعليق عليه ، بغية نشره وتعميم فائدته .

٧ــ شعره وشيء منه

كما يعد ابن حماد عالما بين العلماء يعدايضا شاعرا يجرى مع الشعراء ، ويطرق الاغراض الحساسة من مكامن الشاعرية ، مثل الرثاء والوصف . وشعره ، على قلة ما وصلنا منه يمتاز بالرقة وصدق اللهجة . يدلنا على ذلك ما نقراه من رثائه للقلعة ، ملعب صباه ، ومسرح هواه ، بعد ان اتى عليها الدهر هدما وتخريبا على قصورها ومعالمها محوا وطمسا ، فهو يقول :

ان (العروسين) لا رسم ولا طلل
فانظر هنا ليس الا السهل والجبل
وقصر (بلارة) اودى الزمان به ..
فاين ما شاد منه السادة الاول (كذا)

الى ان يقول :

وقد عفى قصر حماد فليس له
رسم ولا اثر باق ولا طلل

وقال فى شوقه الى (الوادى) او (وادى الجوى كما دعاه) :

... وما رسوم (المنار) الان ماثلة
لكنها خبر يجرى به المثل ..
اليت شعرى هل ابيتن ليلة
بوادى الجوى ما بين تلك الجداول ؟
...وهل اردن ((عين السلام)) على الصدى
فابرد من حر الضلوع النواهل
وانظر طيقان ((المنار)) مطلة
على الدجنات الزاهرات الخمائل
كان القباب المشرقات بافقه
نجوم تبدت فى سعود المنازل
صبرا جميلا غير ان اصابتى
ستبقى بقاء الطالعات الاوافل ،

وقال فى ناحية قريبة من القلعة تدعى (عين السلام) :

على عين السلام سلام صب
غذاؤه ماؤه العذب النمير
تاود ايكها وجرت صباها
وشم لها ــ كما فتق ــ العبير
وابرد ما يكون الجو فيها
واندى ، حين يحتدم الهجير
وما ادرى : ايجرى فوق در
ام ابتسمت بمنبعها الثغور ؟
وقد قام (المنار) على ذراها
كما قام العروس أو الامير
بناء يزدرى ايوان كسرى
لديه ، والخورنق والسدير

٨ ــ راى الناس فيه

قال عنه ابو العباس احمد الغبرينى فى كتابه (عنوان الدراية) ، ((الشيخ الاجل الفقيه الرئيس الاكمل ، العالم الاوحد ... كان من روى عنه فما هو الا من الجلة لقد بارك الله فى عمر ابن حماد حتى الاعلام))

٩ ــ وفاته :

تجاوزت سنه الثمانين وادركته الوفاة على المشهور سنة ٦٢٦ هـ ــ ١٢٣٠ م
رحمه الله واجزل ثوابه على ما قدم من نفع وما ترك من طيب الاثر .

جلول البدوى

مصادر البحث :

اــ عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء فى المائة السابعة ببجاية ــ طبع بالفرنسية ١٩١٠ م

ب ــ موجز التاريخ العام للجزائر ، لعثمان الكعاك ، طبع بتونس

ج ــ بلاغة العرب فى الجزائر »

د ــ البستان فى ذكر الاولياء والعلماء بتلمسان ، لابن مريم التلمسانى ــ طبع الجزائر ١٩٠٨ م

هـ ــ نيل الابتهاج ، لاحمد بابا التنبكتى المطبوع بهامش الديباج المذهب لابن فرحون طبع مصر سنة ١٣٥١ هـ

ــ تاريخ الجزائر العام ، للشيخ عبد الرحمن الجيلالى المطبوع بالمطبعة العربية بالجزائر سنة ١٩٥٥ م



كتاب الأصالة

الاستبداد والمجتمع الصناعى

من جملة الكتب المهمة التى صدرت اثناء ١٩٧٠ نقدم للقراء كتاب الاستبداد والمجتمع الصناعى ، نظرا لاهمية الموضوع والبحث .

قد الف الاستاذ « بيرو » عدة كتب قيمة بحث فيها صلة الاقتصاد بالمجتمع وعالج الكثير من مشاكل الساعة ويعتبر المؤلف من الخبراء فى هذا المجال وهو يدرس الاقتصاد بالمعهد الفرنسى المعروف « بكوليج دى فرانس » باريس .

تأليف : فرانسوا بيرو
تقديم : الشيخ بوعمران

وقد اهتم الاستاذ « بيرو » بدراسة العالم الثالث وهو رئيس جمعية العالم الثالث (مقرها بباريس) وقد اكتسب هذا الباحث شهرة كبيرة في الاوساط المثقفة . يعالج الكتاب استبداد المجتمع الصناعي على الانسان ويبحث كيف يمكن التحرر من ذلك الاستبداد بعد عرض ومناقشة عدة آراء وتحليل بعض المجتمعات المتقدمة والمتخلفة في عصرنا هذا .

لا نريد ذكر كل ما جاء في البحث بالتفصيل وانما نقتصر على اهم الجوانب .

ينطلق الكتاب من تعريف الفيلسوف الالماني « هيجل » لمفهوم الاستبداد ويبين كيف حول « ماركس » هذا المفهوم الى مفهوم آخر بناء على دراسة المجتمع الصناعي الاوربي . يرى الاول ان الانسان يعاني من الاستبداد الديني والسياسي ويرى الثاني ان السبب غير ماذكر « هيجل » لان الاقتصاد هو اهم شيء في نظام المجتمع ولهذا يذهب « ماركس » الى ان استغلال الانسان ناتج عن النظام الراسمالي الذي لا يسمح للعامل بأن يتمتع بثمرة كده (ص ٨ — ٩) ان هذه النظرية معروفة ولا حاجة الى الاطالة فيها ، وانما المقصود من الاشارة اليها هو أن تحرر الانسان من الاستغلال والاستبداد مرتبط بنظام اجتماعي جديد يجعل السلطة في يد العمال . ويتساءل المؤلف اذا كان المجتمع الصناعي قد حقق هذه الغاية المنشودة ويبدو لصاحب الكتاب ان دراسة المجتمع السوفياتي هو احسن طريق للجواب (ص ١٧) — وانما الانسان ليس شيئا او آلة ولا يمكن ان نهمل شخصيته وارادته وحرية تصرفه مهما كانت العوامل الاجتماعية وتأثيرها عليه (ص ٢٢ وبعدها) انه يتحكم في مصيره وفي مواقفه انطلاقا من وضعه الخاص والمستقبل الذي يريده لنفسه معتمدا على امكانياته الفردية والاجتماعية . ويبرز وجوده في نشاطه اليومي والانجازات المختلفة التي يحققها (ص ٢٦) تظهر شخصية الانسان في الحوار الفردي والاجتماعي مع الغير (ص ٢٧) ويمكن تطور الانسان بفضل هذا الحوار وليس هذا التطور حتميا بل هو مرتبط بما يقوم به كل شخص من المساعي والاعمال وكل ما يحققه الانسان له صلة وثيقة بمجهوداته وثقافته ، ولهذا تعتبر الاشياء التي ينجزها اشياء ثقافية لا مادية فقط لانها تحمل معاني ورموزا وتدل على نشاط كائن حي يتكيف ويتفاعل مع الواقع متبادلا الخبرة والفكرة مع الغير (ص ٢٩) . ولهذا يتصف التزامه بالتبصر لا بالالية (ص ٣١) وكلمة سارتر غير صحيحة عندما زعم بأن **« جهنم هي الآخرون »** . هكذا يستطيع الانسان ان يتحرر من الاستبداد والاستغلال وان يتمكن من تحقيق انسانيته في اعماله اليومية .

غير ان تحرر الانسان لا يتحقق آليا في المجتمع الصناعي وذلك يظهر بديهيا لكل من يدرس هذا المجتمع ، يلاحظ اولا ان الاستبداد يتمثل في الجهاز الميكانيكي وفي الجهاز النظامي بحيث أن العامل يشعر بأنه مسير نحو غايات حتمية لم يشارك في وضعها ويبدو له ان الجهاز قد تسلط عليه (ص ٣٢ — ٣٣) واصبح العامل وسيلة في خدمة الالة واخذ يسعى في تحقيق مشروع لاحظ له فيه . ولهذا ظهر عليه القلق والحيرة .

يركز الاستاذ « بيرو » في منهجه على التحليل الاقتصادي والاجتماعي وعلى التحليل الفلسفي (ص ٣٨) . ويذكر ان انتقاده لآراء « هيجل » و « ماركس » يعتمد على مذهب الوجودية المعاصرة التي عرفت بالشخصية الانسانية تعريفا واضحا (ص ٤٢) . ان التحرر في نظر « هيجل » يتجسم في التاريخ اذا شارك الفرد في نشاط المجتمع ومجرى الحوادث او بعبارة اخرى ان التحرر جماعي لافردي . ولهذا ينبغي ان نتحول من « انا » الى « نحن » وفلسفة « هيجل » فلسفة الجماعة وعلى الفرد ان يذوب في الجماعة باستثناء الابطال الذين يلعبون دورا خاصا في تطور التاريخ . ونظرية ماركس لا تختلف في جوهرها عن نظرية « هيجل » مع التحويل الذي اشرنا اليه آنفا . ان الاساس هنا هو العلم والثقافة ، والعمل له طابع جماعي ولكن الجماعة هي الطبقة الاجتماعية ويقضي التطور



هيجــل

الجدلى للتاريخ بتحرر الطبقة العاملة مـــن الاستبداد الراسمالى . ولاقيمة للضمير الفردى اذا انعزل عن المجتمع او قاومه (ص ٥٠)

ويتصدى المؤلف الى انتقاد النظريتـــين المعروضتين ابتداء من الغاية التى يرمى اليهاكل من «هيجل» و « ماركس » وهى تحرر الانسان من الاستبداد مهما كان نوعه ، مبينا ان النظام الذى تشخصت فيه آراء المفكرين المذكورين لم يحقق هذا التحرر المنشود لان المفكرين اهملا اعمالا تاما تلك الغاية التى ارادابناء المجتمع من اجلها . وذلك لان الانسان افتقد فيه حريته ومصيره وذهب ضحية المجتمع الصناعى الذى قام على حساب الفرد (ص ٥٣) . وقـــد ضاعت شخصية الانسان فى « الموضوعية » وتجرد الفرد من انسانيته. وفى الواقع ان الغاء (الانا) والاعتماد على الجماعة وحدها غير كاف اذا اهملنا حقوق الانسان . وقـــد بينت الفلسفات الوجوديـــة حقيقـــة الشخصيـــة الفردية وتمييزها عن المجتمع (ص ٥٨) ان الفرد يتفاعل مع المجتمع وفى نفس الوقت انه يشعر بحريته ويفكر فى شؤونه ويكتشـــف الواقع ويتعلم ويجرب ولا يعتبر نفسه متقيدا بقوانين ومناهج الا اذا تفهمها واقتنع بصحتها والعلوم والثقافة العالمية تبرهن عـــلى ذلـــك

ولا يعنى هذا القول ان الانسان يستطيع ان يتصرف كما يشاء فى جميع الامور ، ومن يعتقد ذلك يقع حقيقة فى اخطاء المثالية المجردة وانما الانسان يتفاعل مع المجتمع ومع الاشيـــاء ويتكيف حسب الظروف والاهـــداف التـــى سطرها لنفسه فى الحياة . وليس الانســـان جسما ماديا فقط . وانما هو مـــركب حـــى تتداخل فيه الجسم والروح بحيث لا يمكـــن فصل الواحد عن الاخر (ص ٦١) وغايـــة الحضارة هى سعادة الانسان وليس غايتها الاستبداد على الانسان من اجل بناء مجتمع صناعى يضمن له — فى يوم مـــا — التقـــدم والعدالة الاجتماعية والرفاهية دون مراعاة حقوقه وقيمه الاساسية .

يرى الاستاذ « بيرو » ان العلوم والصناعة والتكنولوجية تمكن الشعوب والمجتمعات من التقدم ومن المنافسة فى نفس الوقت (ص ٦٥) وتجعل مصيرنا فى خطر اذا فسحنا لها المجال دون شرط او قيد ، ولا سيما فى عصرنا هذا لان طبيعة الانسان والدول تقودنـــا الـــى التسلط والوحشية الحيوانيـــة (ص ١٨١) وتتجسم قوة الشعوب الصناعية فى منافسة الدول الكبرى من اجل السيطرة على العالم واحتلال المراكـــز الاقتصاديـــة والثقافيـــة والسياسة الكفيلة بنشر نفوذها فى البـــلاد المتخلفة . سواء كانت هذه الدول من الغرب او من الشرق (ص ١٠٨) . نحن طبعـــا فى حاجـــة ماســـة الـــى العلـــوم والصناعـــة والتكنولوجية ولكن ما هى الوسائل التـــى تمكن من استخدامها لصالح الانسان ؟ مـــن جملة الوسائل يذكر المؤلف الحوار المثمر بين الافراد فى المجتمع والقضاء على الاستغـــلال والاستبداد والخوف واستهداف العدالـــة الاجتماعية ومراعاة حقوق الانسان واسهام الافراد فى التخطيط والبناء والتركيز على القوة الابداعية والتغلب عـــلى روح البيروقراطيـــة والتعاون الدولى بين الامم وبين المؤسسات الدولية ومساعدة البلاد النامية ...

ابو عمران الشيخ
استاذ الفلسفة بجامعة الجزائر

ضلال أم تضليل!

موسى بن عمار

ننشر هذا المقال فى اطـار حـرية الرأى والمناقشة ، دون ان نلتزم بكل ما جاء فيه من آراء واحكام .

* ——— * ———

فى مقدمة هذا الموضوع أريد أن أتساءل .
لماذا الفرح بكلما يبشر بقرب انهيار الحضارة الاروبية الحديثة ؟
لماذا الفرح كلما ظهر نوع من عجز الانسان امام مشكلة من مشاكله الكثيرة فى صراعه الخالد مع الطبيعة ؟
لماذا الفرح كلما انحسر العلم فى ميدان من الميادين وبدا عاجزا عن النجاح فيه واعترف العلماء بذلك العجز ، حتى لو كان العجز امام المرض والموت والاوبئة وكل ما هو عدو للانسان ؟
لماذا الفرح كلما اظهر العلماء جهلهم بالانسان او ببعض اسرار الكون التى كان من المرجح التوصل اليها ؟
لماذا التشفى اذا ظهرت بوادر من عجز الانسان عن الوصول الى الكواكب او سكناها او فشلت العمليات التى تم فيها زرع القلب؟
لماذا الاستشهاد بكل كاتب وبكل كتاب ابرز بعض النقص فى جانب من جوانب الحضارة الغربية والعلم الحديث ، واتخاذه قرآنا يقرا ويرتل ؟
واخيرا لماذا الفرح كلما شكا الغربيون من ازمة اجتماعية او اقتصادية او اخلاقية .. الخ ؟

اقول هذا لاننى الاحظ ان طائفة من الكتاب والمفكرين العرب قد ابتدعوا هذا الفرح واولعوا به وادمنوه فى كتاباتهم حتى اصبح شيئا مزعجا لا يحتمل ولا يطاق . وقد استغل هؤلاء الكتاب صراحة الاروبيين مع انفسهم حين يتعرضون لمعالجة مشاكلهم واستغلوا روحهم العلمية التى تلزمهم الصراحة والنقد الذاتى وقول الحقيقة ولو كانت مرة فى معالجة قضاياهم العويصة ومشاكلهم الشائكة التى تطرحها طبيعة المرحلة الحضارية التى يمرون بها فراحوا يطبلون ويزمرون ويبالغون ويضخمون ويرون ذلك دليلا على قرب انهيار هذه الحضارة « المادية » المجرمة التى ابعدت الانسان عن خالقه وجعلته عبدا للعلم ونظرياته وخادما للمادة واسيرا لها !! فاذا راوا « شبنغلر » فى كتابه « سقوط الغرب» او « الكسس كارل » فى كتابه « الانسان المجهول » او « كولن ولسن » فى كتابه « سقوط الحضارة » قد تنبأوا بقرب انهيار الحضارة الغربية او ابدوا تخوفاتهم تجاه هذه القضية وجدنا كتابنا هؤلاء قد اتخذوا ذلك امرا مسلما وقضية مفروغا منها .

وهؤلاء الكتاب المساكين لا يعرفون انهم بذلك يظهرون سذاجة محزنة اذ يظنون ان هذه الحضارة سوف تنهار وتموت فى وقت قريب او ان العلم سوف يتقهقر او يتوقف فى يوم من الايام . كما يظهرون سوء نية لا لزوم لها تجاه ما حصله الانسان من نصر فى ميادين

المعرفة المختلفة وتجاه نجاح الحضارة الحديثة **المبنية على التجربة والنظرة العلمية الى الكون والحياة . كما يحاولون ان يجعلوا من العرب خصما للحضارة الحديثة ولروح العلم والتطلع** الى المجهول ، او هذا على الاقل ماتوحي به كتاباتهم وافكارهم للمطلع الاجنبي . وهم **بذلك يوهمون انفسهم من حيث لا يشعرون او** يشعرون ويصرحون انهم يدافعون عن الاسلام كان الاسلام يحتم عليهم محاربة النور ومعاداة العلم ومجافاة الحضارة .

مع ان الاسلام برىء مما يحملونه او يحاولون ان يحملوه من مبادىء وافكار هو منها براء . بل اننا لا نعرف دينا قدس العلم واحترم العلماء كما فعل الاسلام حتى ان اول سورة فى القرآن تظهر هذا التقديس ((اقرا وربك الاكرم الذى علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم)) وامثال هذه الاية كثير فى القرآن لا داعى لذكرها هنا .

وامامنا الآن كاتب عربى مشهور ينتمى الى هذه الطائفة وهو الاستاذ المرحوم « سيد قطب » فى كتابه « الاسلام ومشكلات الحضارة » نتخذه كنموذج لهذا النوع الذى لا يحصى من الكتاب الذين يميلون الى التضخيم والتهويل ، والى المبالغة التى لاتخدم الحقيقة اذ يوهموننا اننا خرافة اخجرت للناس وان البشرية تتخبط فى مشاكلها وانه لانجاة لها مما هى فيه الا اذا لجأت الينا لتاخذ الدواء وتأخذ الشفاء وتعيش الحياة السوية التى تنقصها الان .

ومعظم كتابه هذا يحتوى على عرض ومناقشة وتأييد لكتاب « الكسس كارل » اشرنا اليه آنفا وقد اعتبره وثيقة هامة تدين الحضارة الغربية بقلم احد ابنائها الخلص فأخذته فرحة غامرة لم ينجح فى كتمانها ، وقد عثر على هذا الكتاب كانما عثر على كنز فأخذ معظم نصوصه وزين بها كتابه .

ويطول بنا الحديث لو تعرضنا لكل النصوص التى تظهر فيها المغالطات فى هذا الكتاب وانما يكفينا ان ناخذ نصا او نصين كنموذج لبقية النصوص . يقول سيد قطب صفحة ١٢٠ من الكتاب يصف حالة المجتمعات الاروبية « المنحلة » بسبب اتجاهها « المادى والحيوانى » : « وكتب على البشرية ان تؤدى الضريبة فادحة صارمة ثقيلة : حروبا رهيبة ضحاياها بالملايين قتلى وجرحى ومشوهين ومعتوهين ومعذبين ، وازمات تلو ازمات .

ازمات اذا قل الانتاج ، وازمات اذا زاد الانتاج ، ازمات اذا مال الميزان التجارى الى العجز وازمات اذا مال الميزان التجارى الى الزيادة ، ازمات اذا نقصت المحصولات وازمات اذا فاضت المحصولات . ازمات اذا قل النسل وازمات اذا زاد النسل ، وتخبط من هنا وتخبط من هناك وقلق وحيرة واضطراب وعدم استقرار ، وضغط على اعصاب الناس لا تطيقه بنيتهم فيخرون اموانا بالسكتة وتفجر المخ .. الى ان يقول: وما كان ذلك الا نذيرا لله الذى لم تتفتح له القلوب والاذان »

ونحن نقول تعليقا على كلامه : ان هذه المشاكل التى تحدث عنها الكتاب واشار اليها هنا موجودة فعلا فى البلدان الغربية ولكنها ناتجة عن المرحلة الحضارية التى يمرون بها الان وما دمنا نحن لم نبلغ تلك المرحلة فاننا لا نستطيع ان نعطى الحكم الصحيح فكثيرا ما تبدو الاشياء سهلة للمتفرج من بعيد ، حتى اذا تحمل المسؤولية واصبح وسط المشكلة ظهرت له الاشياء على حقيقتها وعرف الصعوبات التى كان يجهلها . ثم ان الكاتب يحلو له ان يرى مشاكل الغرب وعيوبه ولكنه ينسى او يتناسى انه يوجد فى الشرق ما هو افظع واسوا **من هذه العيوب بمئات المرات ولكن الفرق ان الناس فى الشرق لايحسون بمشاكلهم او هم يحسون بها ولا يتحدثون عنها لانهم لا يملكون الجراة ولا الصراحة اللتين اكتسبهما الغربيون بعد تجارب كثيرة وكفاح طويل وهذا هو الفرق بين الشرق**

والغرب ، الغرب الذى يعيش فى اعلى مستوى تهيا للانسان على الارض منذ اقدم الازمنة ومن جميع الوجوه ومع ذلك نراه يثور ويتمرد ويشكو اذا وجد اى انخفاض فى مستوى حياته او اقل تدهور فى واقعه لانه يعلم ان الثورة والنقد هما الوسيلة الناجحة لتغيير الواقع الفاسد والسير نحو واقع اصلح واحسن ، كان الشاعر العربى كان يعنيهم حين قال :

ونحن اناس لا توسط بيننا
لنا الصدر دون العالمين او القبر

اما الشرق الخانع الراكع الذليل فانه يقاسى فى صمت كالحيوان الاعجم ، انهيتلقى لطمات الواقع فى صمت ، ويحاول ان يغلفها بغلاف من الرضا بالقضاء والقدر والرضا بالمكتوب واما اشبه ذلك من فلسفات عتيقة ، وتبريرات فاسدة ، هذا فضلا عن ان النقد الذاتى والجراة على كشف عيوب النفس هى مرحلة من التطور لم يصل الشرق اليها لانه مازال يخجل من ذلك ويعده ضعفا بسبب عقليته الطفيلية وبسبب ما ترسب فى نفسه من النفاق والمبالغة فيه .

اما وقدعرفنا الاسباب التى تجعل الغربيين ينقدون انفسهم بكثرة ويتحدثون عن عيوبهم بصراحة فانه لا ينبغى لنا ان نسرع الى الفرح الطفلى الساذج كلما وجدنا مفكرا منهم ينقد مجتمعه او يتحدث عن بعض العيوب التى انتجتها الحضارة الحالية . لا ينبغى ان نتبنى ذلك بسذاجة وسرعة ونتخذه قضية مسلمة فنعتبر انهيار الحضارة وشيكالوقوع كما يفعل هذا النوع من الكتاب .

وفى كتاب سيد قطب ما هو اكثر تطرفا واشد تحاملا من المقطع الذى ناقشته قبل قليل، يقول فىصفحة ١٦٧ من كتابه معلقا على الكسس كاريل صاحب كتاب « الانسانذلك المجهول »: « لامفر اذن — لامثال هؤلاء المخلصين المساكين الا ان يلجأوا الى العلم وحده ، حتى فيما يحسون هم انفسهم ان العلم لن يصل بهم فيه الى نتائج حاسمة قاطعة كالتى وصل اليها فى علم المادة » ولكن ماذا بيدهم ؟ ماذا يملكون للبشرية غير هذا ؟ ثم قال :

« ولكننا نحن نملك ، نحن اصحاب — المنهج الاسلامى للحياة — نملك للبشرية مالا يملكه احد آخر على ظهر هذا الكوكب ونملك ان ننقذ الدكتور كاريل نفسه من حيرته .. نحن نملك منهجا للحياة لا يعادى العلم مطلقا الخ » .

فانظر الى هذه المبالغة الصارخة التى يتبرأ منها كل مفكر يحترم نفسه ، فهم يملكون للبشرية مالا يملكه احد على ظهر هذا الكوكب ! فهلا انقذوا انفسهم وشعوبهم الضائعة الجائعة اولا . ؟

لماذا يفكرون فى انقاذ الامريكيين والاوروبيين وهم عاجزون عن انقاذ شعوبهم المسكينة ؟ افلا يصدق عليهم المثل القائل ان فاقد الشىء لا يعطيه ؟

افلا يكفون عن هذه المبالغات التى تجعلهم يأمرون الناس بالبر وينسون انفسهم ويجدون الحلول لمشاكل العالم وينسون شعوبهم واوطانهم ؟

اما السيد انور قصيباتى فبعد ان تحدث فى كتابه « **الحضارة العربية الجديدة وحتمية الثورة** » على ان الحضارة الغربية فى نزعها الاخير وبين ان هناك سؤالا بدا يرتسم فى الافق الانسانى الواسع هو لمن الدور اليوم فى ابداع حضارة جديدة ؟ قال فى صفحة ٥٣ من الكتاب :

« اما نحن فلن نترك للمستقبل امر تحديد هذا الجواب لاننا نريد استعجاله . ولاننا نملك كل المبررات التى تدفعنا الى ضرورة الاجابة عليه الان فنقول بكل تهور : ان الدور

الان ، لابداع حضارة جديدة هو لنـــا نحن العـــــرب .

فالامة العربية مدعوة من قبل القـــــدر والتاريخ لتاديةرسالتها الحضارية ، مستجيبة بذلك الى النداءات الحـــارة ، التـــى تنبعث واضحة صافية الرنين ، من اعماقها فى كل لحظة وآن ، والتى تنبعث باستجداء انقاذ من الوعـــى الانســـانى كلـــه . »

ونحن لا ننكر عليه ان يرشح الامة العربية لتساهم فى صنع وابداع الحضارة ، وانمـــا ننكر عليه ان يجعل امة وحدها تتفرد بابداع الحضارة وقيادة البشرية دون بقية الامـــم والشعوب ، كما اننا ننكر عليه ان يقول :

« ان الامة العربية مدعوة من قبل القدر والتاريخ لتادية رسالتها الحضارية مستجيبة الى النداءات الحارة التى تنبعث باستجداء انقاذ من الوعى الانسانى كله » فهذه مبالغة لا تصدر عن كتاب يحترم نفسه ويحترم قراءه فلا بأس ان تلعب الامة العربية دورهـــا الحضارى ، اما ان تتجه الانسانية كلهـــا اليها بنداءات الاستجداء لتنقذها من مهاوى الجهل والتخلف فهذا لا يصدر الا عن انسان مغرور ضعيف التفكير .

ومن هذا النوع من المبالغات التى تصدر عن السذاجة والغرور ما قاله السيد احمد عبد الرحيم مصطفـــى فى مقدمتـــه لكتـــاب « موجز تاريخ الاشتراكية » صفحة — ٩ —

« اذا كنا نجد اليوم ان المجتمع الغربـــى يحاول ان يحقق لافراده الامن المعنوى ، وان المجتمع الشرقى الذى ينزع الى الاشتراكية يحاول أن يحقق لافراده الامن المادى ، افليس من سبيل لان يقدم الشرق العربى للمعسكرين مبدا شاملا يقوم على تحقيق الامن المـــادى والمعنوى معـــا ؟ »

فهذه نغمة جميلة طالما رددها الكتـــاب المثاليون الحالمون ، والا فكيف يستطيـــع الشرق العربى أن يقدم الحلول للعالم وهو لم يجد ابسط الحلول لقضاياه ومشاكلـــه الكثيرة المتراكمة والتى هى دون هذه الدرجة بكثير ؟ لقدقلت آنفا « ان فاقد الشىءلايعطيه» فلماذا يحاول هؤلاء الكتاب ان يضللوا قراءهم ويعبثوا بعقولهم ويزيدون فى بعث الغرور فى نفوسهم حين يخيلون اليهم انهم فى موقف من يملك الحلول لمشاكل العالم .

هذه نماذج فقط واعتقد ان فيما ذكرته الكفاية لاننا لو اردنا ان نتتبع أمثال هـــؤلاء الكتاب لطال بنا الحديث لان كثيرا من الكتب تزخر بمثل هذه الافكار ، وكثيرا من الكتاب يحلو لهم أن يتملقوا الجمهور ويعبثوا بعقول القراء المساكين الذين يقراون كتبهم ويتأثرون بهـــم .

وقد ساهم هؤلاء الكتاب فى خلق جيـــل عربى مخدوع مفتر بنفسه حين علموه الاوهام والاضاليل ومن واجب كل مخلص ان يكشف الاعيبهم واضاليلهم بما يستطيـــع .

مـــوسى بن عمـــار

استاذ بثانوية خمار — المدية —

مع

التيارات

الفكرية

العالمية

... فى المجلات الانجليزية

إعداد : محمد طاع الله

قدمت بعض الحوادث التاريخية فرصة العثور على مبررات لضبط الوقت لدى الانسانية ، وبالطبع فقد مضت الصحافة وكتب المناسبات الانفلو سكسونية خلال الا سبوعين الماضيين فى تعداد التاملات والواقع والتى يأتى بها تعاقب وانتقال العالم المسيحى من عام الى عام آخر الى جانب مظاهر الاحتفالات الدينية .

وكان مسالة حساب الوقت لم تعد تثير اهتماما يحدد بالابعاد الجغرافية او المجتمعية وحدها ، وهى ملاحظة ابداها الان بريان فى مقدمة مقال له فى مجلة ((نيوستيس مان)) حيث قال : لقد كانت الشعوب القديمة تحسب وقتها لنفسها لانه لم يكن هناك ما يرغم اغلبية الانسانية على غير هذا الموقف ، اما الان ، فتحسبه الانسانية لكل فرد من افرادها . واننى استطيع ان اضع حدا لمسيرة عقارب ساعتى ، ولكن الزمن لن يتوقف لا بالنسبة لى ، ولا بالنسبة للآخرين ، وسوف لن اتمكن فيما بعد ، من استعادة الفترة التى توقفت فيها دون الاخرين ، وهذه هى حيرة الانسان الحالى .

ويقول جوزيف الوب فى « هير الدتيبيون » لا استطيع ان اتذكر عاما يصعب فيه الخــروج بخلاصة او تقييم كما هو الحال بالنسبة لعام ١٩٧١ ، وان اكثر المراقبين السياسيين دقة فى التقديرات يشق عليهم ان يعثروا على اهتمام واحد للانسانية كلها .

لقد استغرق العام المنصرم فى ملاحقـــة الاحداث التى وقعت فى السنوات السابقة ، خاصة فى المجال الدولى . غير ان راى اكثـر المعلقين قد استقر على الحرب والموت والجنس ما تزال اكثر العوامل المؤثرة على مصـــير البشريـــة .

فما زالت حروب كثيرة تمارس او فى حالة هدنة فى بقاع كثيرة من العالم . وما تزال آلاف الضحايا تتساقط فيها كل شهر ، ولم تكن سنة ١٩٧٠ سنة الوفيات الناجمة عـــن الحـــروب وحدها وعن الشيخوخة وحدها ، فقد ، توقفت حياة عدد كبير من السياسيين والادباء وغيرهم وقد كان موتهم فى حد ذاته جزءا مـــن الاثارة التى رافقت علاقاتهم مع الجماهير . وسواء كان الامر يتعلق بالوفيات التى جاءت صدفـــة او لتلك التى سببتها الحروب والامراض ، فان الانسانية ما تزال بعيدة عنالقدرة على الخروج بعبر مفيدة من حياة الضحايا والراحلين ، فقد ودع العالم عددا من الوفيات بينما يذكر غيرهم يوميا بالارقام فقط ، ومازال الجنس والتفاقم السكانى فى العالم يلعب بدوره اثرا كبيرا فى جدل الانسان مع شروط وجوده .

وصدرت بعض الاعترافات والتكهنات غير المشجعة فى الكتابات الانغلوسكسونية ، وهى اعترافات وتكهنات لا تتعلق بمصير الذيــــن صدرت عنهم وحدهم ، فقد اعترف مستشار الشؤون الخارجية للرئيس نيكسون « انالتنبأ بالكوارث اسهل واكثر واقعية من التنبـــؤ بالمناسبات السعيدة » . وفى هذا التكهـــن ، يساهم بفاعلية فى تخطيط سياسة الولايـــات المتحدة ربما لم يتصورها صاحب هذا التصريح المتشائم نفسه .

وفى مجلة **نيوزويك** يدعم الصحفى ستيوارت الوب هذا التشاؤم وهـــو يســـوق تعبـــير كسينغر فيقول : « ان التنبؤ بالكوارث يقـــدم فى الغالب على فهم لواقع هذا العالم ، فسوف يشهد العالم مثل هذه الكوارث عاجلا او آجلا وهى كالموت نفسه ذات توقيت غير مؤكـــد ، ولكنها مؤكدة » .

وفى بريطانيا اختارت الامة البريطانيـــة فى شهر جوان من العام الماضى حكومة حيث بدلا من حكومة ويلسون بينماكانت التقديرات توحى بفوز ساحق للعمال . وقد كانت قطاعات من هذه الامةنفسها وخاصة العمال ضد الحكومة التى فازت فى الانتخابات . ومع انقضاء النصف الثانى من العام ، لم يعثر الذين استبدلـــــوا حكومتهم ، كما اكدت جريدة « التايمز » على سبب لتصرفهم فى تلك الانتخابات .

ومع الساعات الفاصلة بين عامين جـــاء اعتراف الفيزيائى الامريكـــى ، ادوارد تيلـــر الالمانى الاصل الذى يعتبر اب القنبلة الذرية التى اسقطت على هيروشيما وناجازاكى عندما قال : « ان الناس لايفهمونه ، لقد هرب مـــن النازية ولكنه ارغم على ارتكاب عمـــل اكثـــر نازية من خلال حروب الولايات المتحدة التـــى منحها خدماته » وقال : « هل استكملت القنلبة الذرية فى منتصف ١٩٤٥ وكان السؤال هـــل تلقى على اليابان فجاة ام نخيف اليابان بهـــا اولا بعد ان شرح لها اهوالها ، وقد شاركنى الدكتور زيلارد ليو الفيزيائى المجرى فى ذلـــك الحين ، ولكن راى كل منا لم يقبله الذين امروا بالقاء القنبلة وكان اوبنها يمر صاحب النفوذ الكبير وراء ما حدث » .

وفى مجلة **نيوزويك** صدرت احصائية تفيد ان معدل ٢٠٠٠ كتاب دينى تصل الى المكتبات كل عام . وهو اكبر عدد يسجل فى فئة واحدة من الاهتمامات . وبالرغم من ان معظم هـذه الكتب من الاناجيل وكتب القساوسة فان كل موسم يدفع الى السوق بعدة مجلدات تساهم فى اعادة تشكيل وتعديل نوعية الفكر والتجربة الدينية . وقد كانت السنتان الماضيتان حسب هذه الاحصائيات مثلا على ذلك وخاصة تلك المساهمات الـتى كتبت عن الدين والعلاقات الروحية من خارج الحدود المالوفة للكتابات الدينية .

ويعتبر كتاب « **البحث عن الله فى الزمن وفى الذاكرة** » من بين هذه الكتب ومؤلفه هـو الاب ـ جون دون ـ من جامعة نـوتـردام بالولايات المتحدة الذى يعتبر نفسه الخليفـة المباشر لبول تليش فى ميدان علم اللاهـوت المنهجـى .

والمؤلف مسيحى وجودى يسلم بنزعـة الانسان المعاصر التى تتجه نحو التخلص من كل ما هو تجريدى . ولذلك فقد دعا الانسان من خلال كتابه الى البحث عن فهم « الله » من خلال تجاربه وتأمله الخاص لسير الاشخاص البارزين فى التاريخ ، وكيف حدث لهم ذلك ؟ .

وقد ادى ظهور القوة السوداء فى الولايات المتحدة الى الاهتمام بالفكر الدينـى وسـط التحولات الاجتماعية ، فظهر ما سمى اخيرا فى الولايات المتحدة بعلم اللاهوت الزنجى . واصدر جيمس كون كتابا لخص فيه الاراء التى وقـع عليها اختياره فى كتاب بعنوان « علم اللاهوت الاسود والقوة السوداء » . وقد دعم الكتاب بمقتطفات لفرانزفانون .

وبحثت كتب اخرى مع نهاية العام مصير الكنيسة خلال الاحقاب القليلة القادمة . وقد اكد نقاد هذه الفئة من الكتب ان الكتـاب الصادر عن مارتن مارتى هو افضلها وهـو بعنوان « البحث عن مستقبل معقول » ، وقال فيه : « **ان محاولة علماء اللاهوت ان يقراوا المستقبل بدون المعطيات التى تقدمها لهم فروع المعرفة الاخرى قد ادى بالبعض منهم الـى سلوك عصبى خلال الستينـات** » .

ولذلك يتوقع المؤلف سبرا اكثر من حقبـة السبعينات التى مضى منها عام ، وان هـذا السبر سيكون خليطا مع عدم التأكد والمخاطرة وهو الشىء الذى يحرص جميع الاوقياء على استبعاده .

وفى ميدان العلاقات الانسانية ايضا اكتشف بول صامويلعون مؤلف اشهر كتـاب لمبادىء الاقتصاد الراسمالى والفائز اخيرا بجائزة نوبل ان كتابه يحتوى على هفوة كبرى ، اذ تنقصه فقرة عن اقتصاديات الحب . وقال ان هـذا الاكتشاف يتناقض مع الدروس التى كان يلقنها لتلاميذه فى جامعة شيكاغو حول المبدا الاول والوحيد من نوعه فى الاقتصاد وهو : « ليس هناك افضل من وجبة مجانية » .

ومن خلال المساعى التى تبذلها الصهيونية

ايضا على صعيد العلاقات الانسانية ، حرص علماء اللاهوت اليهود مع نهاية العام على ان يقدموا الدليل القاطع من اجل تقارب افضل مع المسيحية ، على ان المسيح كان يهوديا ، فما الذى ينتظره العالم المسيحى اكثر من ذلك .

الانية فى نظر جاك بيرك



جاك بيرك

فى حديث جرى بين مجلة افريقيا الفتية (جون افريك) والمستشرق الفرنسى المعروف جاك بيرك (فى العدد ٥١٦ بتاريخ ٢٤ نوفمبر الاخير) جاء ما يلـــى :

بـــيرك : « ... الى جانب مـــا تشيرون اليه من خطر التطـــرف فى المحافظة والتعلق بالقديم البالى أود أن أنبه الى تطرف آخر معاكس يتمثل فى تصور ساذج فى الشرق العربى عن العصرية والتفتح وهو تصور سطحى جدا يدفع كثيرا من العـــرب إلـــى السطحية وبالتالى الى البتر الذاتى والقطع مع أنفسهم . »

المجلة : « ألا ترون أن اليابـــان مثل حسن للتوفيق بين العالم الحديث والتراث الوطنى ؟ »

بيرك : « تذكرون مثل اليابـــان بحق . ولكن ماذا تفعلون بمثل آخر أهم وأعظم وهو مثل الصـــين ؟ ان الصينيين يحققـــون الآن منجـــزات عظيمة وبدون أدنى تنازل للخارج . ولا أقل تفريط فى كل مـــا يتصـــل بشخصيتهم الصينية .

على أننى قد عتبت على الصـــين فى حد فضـــول مثالى عدم أخذها الغير بالاعتبار بكفاية .

وفى العالم العربى نفسه نشاهد منذ نصف قرن اتجاها الى الجمع بين العصرية والمحافظة عـــلى الانيـــة الجماعية ، بل تأكيد هذه الانيـــة ، وأحسن مثل لهذا التوفيـــق هـــى الجزائر التى أخذت بعد قرن وثلاثين سنة من الاستعمار تكافح لاسترداد انيتها ، فى الوقت الذى تقتحم فيـــه القرن العشرين من بابه الواسع ، وذلك انه لا يمكن أن يكون هناك أى تقدم لاى بلد يتخلى عن آنيته » .

... فى المجلات الفرنســية

إعـــداد : عبـــد القـــادر رهـــومى

كثيرة هى القضايا السياسية والفكرية التى تناولتها المجلات الفرنسية ـــ خلال الشهـــر الماضى ـــ فمن جولة البابا ، بولس السادس الى اقطار آسيا ونتائجها ، وابعادها السياسية والدينية ، « والثورة البيضاء » فى الشيلى ، الى تقييم الفكر السياسى للفيلسوف الفرنسى « جان بول سارتر » ودور المراة الفلسطينية فى الكفاح المسلح الفلسطينى ، والضجة التى اثيرت حول تهريب كتاب المؤرخ السوفياتـــى « اندرى امـــالديك » هـــل « يعيش الاتحـــاد

السوفياتى حتى سنة ١٩٨٤ » الى فرنسا ..

فبالنظر للمسالة الاخيرة انفردت مجلة « لكسبريس » بسبع صفحات لترجمة بعض فصول الكتاب الذى نشره المؤرخ الفرنسى بيارنوا تحت عنوان **« سفر قاهر الى سبيريا »**

وقد صدرت المجلة فصول الكتاب بتعريف الاديب الروسى « اندرى امالديك » الذى قالت عنه : انه مؤرخ يبلغ من العمر اثنين وثلاثين سنة ، الف كتابا وصل الى فرنسا عن طريق التهريب اسمه هل « يحيا الاتحاد السوفياتى حتى سنة ١٩٨٤ » .

وتقول لكسبريس : « يعد اندرى امالديك فى طليعة المثقفين السوفيات الذين عارضوا صراحة الحكم فى بلادهم .. » وقد حكم عليه سنة ١٩٦٥ بالسجن سنتين ونصف قضاهما فى سبيريا وبعد « سفره القاهر الى سبيريا » واصل مهاجمته لبعض مظاهر الحكم فى الاتحاد السوفياتى .. فزج به من جديد فى السجن .. ولا يزال حتى الان نزيله .

والصفحات السبع التى ترجمتها لكسبريس هى عبارة عن تسجيل للاحداث التى عاشها « اندرى امالديك » منذ ان داهمت منزله ــ حيث يعيش مع والده المعطوب المحال على التقاعد ــ الشرطة .. ووجهت له تهمتين : الاولى اجراء اتصالات مشبوهة مع الاجانب « صحفى ودبلوماسى امريكيان » والثانية رفضه للعمل .. لان مرسوما سوفياتيا صدر فى ٤ ماى ١٩٦١ ينص على محاربة الاشخاص الذين يرفضون المساهمة فى معركة البناء ويحيون حياة طفيلية ولا يمارسون اى عمل ..

وينفى « اندرى امالديك » فى يومياته تلك عن نفسه تهمة الاتصالات المشبوهة مع الامريكيين اللذين زارا بيته .. ويقول : ان الصحفى الامريكى وزميله الدبلوماسى لم يزوراه الا ليشاهدا لوحات صديقه الرسام « زفيرف » .. الذى دخل فجاة الى المستشفى .. والذى ابدى موافقته لاندرى امالديك على مقابلته الصحفى الامريكى ليجرى معه حديثا صحفيا ...

ويستمر الاديب السوفياتى فى تسجيل الاحداث التى صاحبت مداهمة الشرطة لمنزله واعتقالها له .. فيصف قاضى التحقيق الذى استنطقه بانه « يجهل القوانين السوفياتية » .

ويصف المراة التى وشت به الى مصالح الامن بانها « عجوز معتوهة » الجميع يعرف انها فى سنة ١٩٣٠ كانت سببا فى اعدام زوجها رميا بالرصاص بعد ما اخبرت الشرطة بانه يقوم بنشر الدعايات المضادة للاتحاد السوفياتى . وهو فى الواقع لم يقم بهذا العمل .. انما كان يخونها مع امراة اخرى . كما ندد بجاراته وجيرانه الذين قالوا عنه للشرطة كلاما ملفقا ..

ويمضى الاديب السوفياتى فى تسجيل الاحداث التى صاحبت تنقلاته بين مكاتب الشرطة . ومكتب قاضى التحقيق ودخوله السجن ، الى ان يصل الى ذكر تدرج التهم الموجهة اليه . فقد بدات برفضه العمل ، واجراء اتصالات مشبوهة مع الاجانب وقيامه باعمال معادية للاتحاد السوفياتى ، وانتهت باعتباره مجرد مايستحق النفى الى سبيريا ..

وفى نفس العدد من مجلة لكسبريس كتب مبعوثها الخاص الى « شيلى » تحقيقا عن « الحكم الاحمر » فى هذا البلد الذى وصل فيه الشيوعيون الى الحكم عن طريق الانتخابات الحرة . لا عن طريق الثورة الدموية .. وعن هذا تقول لكسبريس : لاول مرة فى تاريخ امريكا اللاتينية يتمكن الشيوعيون من تأسيس دولة فى الشيلى .. بواسطة الطرق الشرعية « الانتخابات .. »

ولا يخفى الصحفى الفرنسى الانطباع الذى ارتسم فى نفسه عندما قام بجولة فى ربوع الشيلى .. وفحوى هذا الانطباع هو ان الحكم الجديد فى الشيلى .. لقى تاييدا ملموسا لدى الجماهير الشعبية الكادحة .. لان اقتصاد البلاد بكامله كان بيد قبضة اقلية ، من البرجوازيين والشركات الاحتكارية الاجنبية .

• كل الشعر المكافح الفلسطينى يصدر اليوم من العرب الفلسطينيين الذين يعيشون تحت الاقامة الجبرية او فى السجون داخل

اسرائيل .. بهذا صدرت مجلة جون افريك الصادرة يوم ٨ ديسمبر الماضى .. موضوعها عن « الفلسطينيات » حيث تقول :

ان معظم اشعار سالم جبران ، ومحمود درويش وسميح القاسم وغيرهم من شعراء فلسطين المحتلة ... هى اغانى حب يائسة لفلسطين التى مثلوها بصورة الام ، والحبيبة ... والمراة .

ويستعرض تحقيق « جون افريك » عن الفلسطينيات دور المراة الفلسطينية فى ثورة بلادها .. فهى « تحمل السلاح وتقوم بالعمليات الفدائية » داخل اسرائيل والاراضى الفلسطينية المحتلة بعد ٥ جوان ١٩٦٧ وهى تشتغل ممرضة ومعلمة ، داخل مخيمات اللاجئين ... وباختصار ..

فالمراة الفلسطينية هى اليوم مجاهدة ، ومناضلة فى صفوف ثورة شعبها . الذى صمم على مواصلة الثورة المسلحة ، حتى النصر النهائى واسترجاع وطنه السليب .

. اين وصل جان بول سارتر ؟ هذا هو السؤال الذي حللت فيه مجلة لوفيغارو ليتيرار الفرنسية الصادرة يوم ٦ ديسمبر الماضى .. شخصية زعيم الفلسفة الوجودية الفرنسية « جان بول سارتر » وقيمت فكره السياسى والادبى ، بقولها :

ان جان بول سارتر عظيم فى الادب والفن طفل فى السياسة .. والحركات السياسية ..

• « لا ماركس ولا المسيح » هذا عنوان لكتاب جديد الفه الصحفى الفرنسى « جان فرانسوار يفال » موضوعه الرئيسى « الثورة الامريكية » ويرى فى كتابه هذا ان الثورة العالمية الجديدة ستندلع فى الولايات المتحدة الامريكية وليس فى اى بلد آخر ..

ويقول : « ان ثورة القرن العشرين ستندلع فى الولايات المتحدة الامريكية .. ولن تندلع فى اى مكان آخر من العالم .. فقد بدات هذه الثورة فى الولايات المتحدة ولن تنجح فى بقية انحاء العالم الا اذا نجحت فى امريكا الشمالية نفسها ..

واعتمد « جان فرانسوار يفال » فى توصله الى هذا الاستنتاج على تحليله للاحداث والوقائع التى تعيشها الولايات المتحدة الامريكية منذ قيام الحرب الباردة بين الشرق والغرب بعد الحرب العالمية الثانية حتى اليوم ..

فهو يعتقد ان بذور ثورة الطلاب شهدت النور فى امريكا بعد مظاهرات طلبة جامعة « باركلى » سنة ١٩٦٤ — ١٩٦٥ ثم انتقلت الى بقية انحاء العالم ..

وكذلك مظاهرات العمال الامريكان سنة ٦٩ — ٧٠ كانت لها استمرارية فى مظاهرات واضراب عمال اوروبا .. ويلاحظ المؤلف : ان طابع الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية فى الولايات المتحدة الامريكية .. حمل بذور الثورة العالمية فى القرن العشرين التى ستنطلق من امريكا الشمالية لا من روسيا او الصين او من امريكا الجنوبية او العالم الثالث ...

طريق الوحدة

ان العرب لا يلمهم الا دين ، ولا ينهضون الا بايمان ، فاذا تخلى الدين عنهم او تخلوا هم عن الدين ، فان الموجة الصاعدة ترتد ، والامة المستجمعة ترجع متفرقة ، والذين وحدتهم طريق الحق ستوزعهم طريق الباطل ، والنفس العربية نفس مصابة بالفردية ، بالمفاخرة ، باشياء كثيرة يقول الله فيها « لو انفقت ما فى الارض جميعا ما الفت بين قلوبهم ولكن الله الف بينهم »

ابن خلدون